



نخادف الكاميليا

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور حجاب عكاوي

تأليف
الكسندر دومالين

www.liilas.com/vb3
^ RAYAHEEN ^



غادة الكاميليا



موضوع رواية «غادة الكاميليا» من الموضوعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعًا، وقد انتقلت إليهم من طريق روائي من كتاب القرن الثامن عشر الذين يُطلق عليهم اسم جيل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس أنطوان بريفور في روايته الشهيرة «مانون ليسكو».. ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسيي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هيجو وألفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب.. وكان بعض هؤلاء يعطف على المرأة الخاطئة عطفًا شديدًا ولا يجد فيها إلا ضحية من ضحايا المجتمع.

وتجدر الإشارة إلى أن رواية «غادة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم إلى درجة أنها ظهرت في السينما المصرية وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٨٥.



ألكسندر دوما الابن

١٨٩٥ - ١٨٢٤

ولد الأديب الفرنسي ألكسندر دوما الابن في باريس في ناحية مارلي - لي - روا سنة ١٨٢٤ ، وهو الابن البكر للكاتب الروائي المعروف ألكسندر دوما صاحب الروايات التاريخية العديدة وأهمها «الفرسان الثلاثة» و«عقد الملكة» ، وكان عمر ألكسندر الكبير يوم ولادة ابنه واحداً وعشرين عاماً ، فقد ولد الأب سنة ١٨٠٣ . وقد تأثر ألكسندر الابن بوالده تأثيراً كبيراً ، وامتلاً به إعجاباً ، فلا بدع أن بدأ يكتب الروايات غداة إتمام دراسته الثانوية ، وكانت أول رواية ينشرها هي «غادة الكاميليا» التي كتبها - كما يقول هو نفسه في مقدمة هذه الرواية - في أسبوع .



ألكسندر دوما الابن

تحول عن كتابة الرواية إلى المسرحية فغذى المسرح الفرنسي بمسرحيات تمتاز بحسن السبك والبناء وتفيض بروح الفكاهة والسخرية . ومسرحياته على الدوام هادفة ، وكانت فكرته الرئيسية التي يدعو إليها في جميع مسرحياته هي إعادة بناء المجتمع من طريق إصلاح الأسرة التي ينبغي أن تبنى على الحب لا على المال .

أهم مسرحياته هي : غادة الكاميليا ، وادي الزفاف ، أنطونين ، مغامرات أربع نساء ، العلبة الفضية ، أقاصيص وقصص ، غادة اللؤلؤ ، صديق النساء ، المجتمع الثانوي ، الابن غير الشرعي ، الأب

المبثّر، الأميرة جورج، أفكار مدام أوبري، فرانسيللون، ديانا عادة الليس، استراحة، مسألة طلاق، قصة امرأة، المسرح الكامل، مسرح الآخرين، ودينس .

قُبِلَ ألكسندر دوما الابن عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٧٤ وتوفي سنة ١٨٩٥ .

والواقع أنّ الفرنسيين لا يعتبرون دوما الابن من كتّاب الدرجة الأولى، ولذا فقلّما يدرس لذاته في الجامعات، وإنّما يدرس عادة ضمن كتّاب الدرجة الثانية من أمثال إميل أوجيه وجول ساندو . غير أنّ كل من يدرس المسرح الفرنسي في القرن التاسع عشر دراسة خاصة لا بدّ أن يمرّ به . ومن عجائب القدر أن المسرحية التي منحتها الشهرة، والتي قدّر لها أن تؤثر في الأدب العالمي، هي أول مسرحية كتبها في حياته حين كان بعد فتي يافعاً غراً ناقص الخبرة غير مكتمل النضج، وهي مسرحية «غادة الكاميليا»، وهذا يعود دون شك إلى صدق الشاعر التي كانت تهزّه حين كتبها، ولطرافة الموضوع واستقائه من صميم المجتمع الفرنسي، ولعاجته لداء من أهم الأدواء الاجتماعية التي تفشت في المجتمع في ذلك العصر . وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة الطبعة الكاملة لمسرحياته :

«لتعرف إذا يا صديقي القارئ أنني كتبت هذه المسرحيات بكل ما أدين به لغني من حب واحترام، فيما عدا الأولى «غادة الكاميليا» التي وضعتها في ثمانية أيام دون أن أدري كنه ذلك، تدفعني جرأة الشباب وما يصادفه من حظ حسن . وكان الدافع الخفي لي هو الرغبة في الحصول على المال لا الإيحاء المقدس . وقد دفعت الجزء الأكبر من ديوني، واستطعت أن أولي المسرحية التالية مزيداً من العناية والوقت (وهي مسرحية «ديانا عادة الليس»)، ومع ذلك

فأخشى أن نحمدها أقل من الأولى . ولعلّما كنت بعد عرض هذه الأخيرة قد سدّدت جميع ديوني، فقد استطعت تخصيص أحد عشر شهراً بطولها لتنفيذ المسرحية الثالثة «المجتمع الثانوي» التي يصرّ الناس على اعتبارها أحسن من سابقتها . أمّا أنا فأصرّ على تفضيلها جميعاً بالتساوي، فقد منحني لذة في العمل وشهرة أكثر مما أستحق، وعرفت من خلالها أنبل عواطف الفكر والاستقلال الذي جعلني سعيداً وطيباً .

غادة الكاميليا

مسرحية ورواية

قبل الخوض في دراسة الظروف التي أوجت إلى ألكسندر دوما الابن بمسرحيته وروايتها لا بدّ من ملخص لهذه وتلك، أمّا المسرحية فتدور أحداثها كما يلي :

الفصل الأول : مرغريت جوتييه وسط أصدقائها في حياة ماجنة صاخبة رغم الداء الذي أخذ ينخر في عظامها . وبداية التعارف بينها وبين أرمان ديفال الذي أحبها دون أن يعرفها، وكان لا يكفّ عن الوقوف ببابها والسؤال عنها في أثناء مرضها . مرغريت تتأثر لصديق مشاعر أرمان نحوها فتبادلته حباً بحب .

الفصل الثاني : بداية حياة الحب السعيد بينهما رغم استمرار مرغريت في حياتها الماجنة، وإن كانت قد بدأت تقطع علاقاتها بعشاقها ومنهم الكونت دي ج .

الفصل الثالث : مرغريت وأرمان يفادران باريس إلى الريف . مرغريت تنقطع جميع مواردها المالية من عشاقها وكذلك من الدوق، وهو الرجل المسنّ الذي كان قد تولّى تسديد نفقاتها الباهظة لعطفه عليها لأنها تشبه ابنته التي ماتت بداء مرغريت نفسه . وقد

كفّ الدوق عن الاستمرار في الدفع لأنه كان يعتقد أنها في الرف
للراحة والعلاج ، فحضر لزيارتها فجأة فوجدها تتناول الغداء مع
خمسة عشر شخصاً من الأصدقاء ، كما أنه علم بعلاقتها بأرمان .
مرغريت تبدأ ببيع ما تستطيع الاستغناء عنه من مظاهر الترف مثل
الركبة والمعطف وترهن مجوهراتها . والد أرمان يحضر لزيارتها في
غيبه ابنه ، ويطلب منها التضحية بسعادتها وحبها من أجل ابنته التي
يرفض خطيبها إتمام الزواج ما لم يقطع أرمان صلته بمرغريت ، رغم
أن هذا الحب هو ومضة السعادة الوحيدة في حياتها ، والشريان
الوحيد الذي كان يمدّها بالحياة ، إلا أنها توافق على التضحية من
أجل سعادة أرمان وأخته ، وتؤكد قبول التضحية بقيلة طاهرة طلبتها
من والد أرمان . تحاول مرغريت إخفاء الأزمة التي تجتازها عن
أرمان ، وتخرج بحجة الابتعاد عن البيت بعض الوقت فيما يحضر
والده لزيارته . ثم تبعث له بكلمة مع خادم تقول له فيها إن كل ما
بينهما قد انتهى وأنها الآن عشيقة رجل آخر .

الفصل الرابع : مرغريت تعود إلى حياة الصخب وتسوء حالتها .
أرمان يعود كذلك إلى الحياة الماجنة نفسها ويلتقي بها في كل مكان
ليوجه إليها الإهانات علناً ، لأنه أساء تأويل الطريقة التي هجرته بها .
مرغريت تستدعيه وترجوه أن يرحمها ويكف عن توجيه الإهانات
إليها ، لأنها تخشى أن يبارزه عشيقها الكونت ويقتله . أرمان يعرض
عليها حبه من جديد فترفض ، فيوجه إليها إهانة شديدة في حضرة
جمع كبير من رواد هذا الوسط الماجن ويرميها بحزمة من الأوراق
المالية ثمناً للحب الذي لم يكن قد دفع عوضه حتى الآن .

الفصل الخامس : نرى مرغريت في قراشها في حالة مرض

شديد . إنها لا تزال محاطة بالأصدقاء الذين يعطفون عليها ويدفعون
عنها ديونها ، وهي ما زالت تغمر صديقاتها بالهدايا وتعطي لبرودنس
مالاً هي في أشد الحاجة إليه . والد أرمان يرسل لها خطاباً يؤكد فيه
أنه رجع في تصميمه ، وأنه سوف يكتب لابنته ليعود إليها ، لأنه تأكد
الآن من أنها خير ممّن يسمّين أنفسهنّ بالفتيات الشريفات . أرمان
يعود في اللحظات الأخيرة لمرغريت ويعد أن يشت من عودته .
مرغريت تشعر لفراط سعادتها أنها شفيت ، ولكنها تموت بعد قليل
بين ذراعي أرمان ووسط قبالة ودموعه . وآخر كلمة - في المسرحية
- تنطق بها صديقنها «نيشيت» إذ تقول : « .. نامي في سلام يا
مرغريت ! سوف يغفر الله لك كثيراً لأنك أحببت كثيراً » .

أمّا الرواية فتختلف اختلافاً كبيراً عن المسرحية ، ويبدو واضحاً
فيها أنّ المؤلف منحها مزيداً من العناية الفنية في الأسلوب والحبكة
القصصية ، واستفاد من طبيعة هذا اللون الأدبي لون الرواية ليقدّم
 للقارئ وصفاً مفصلاً لحياة مرغريت وجمالها وثيابها ، وفي تصوير
المجتمع الباريسي عموماً وبنات الهوى خصوصاً ، وثمة اختلافات
جوهرية في مجرى الأحداث بين المسرحية والرواية ، وهناك
شخصيات تظهر في المسرحية ولا تظهر في القصة وبالعكس . وتركز
أهم الاختلافات في الخاتمة .

في الرواية ، وبعد أن تهجر مرغريت أرمان نزولاً عند رغبة والده ،
يعود كل منهما إلى الوسط الماجن نفسه ، ويعقد أرمان صلة بإحدى
فتيات الهوى تسمى أوليمبيا ربما تكون أجمل من مرغريت خلُقاً
ولكنها مختلفة عنها خلُقاً اختلافاً تاماً ، فلا يلبث أن ينفر منها ،
وتحضر مرغريت إلى شقته لتوسل إليه أن يرحمها ويكف عن توجيه

الإهانات إليها ، فيضعف كل منهما أمام الآخر ويعودان إلى حبهما رغم حمى الداء الذي ينتخر في عظامها . وفي اليوم التالي تنصر مرغريت على إعادة قطع العلاقة تمسكاً منها بعهداها ، فيعود أرمان إلى إهانتها . تسافر مرغريت إلى إنجلترا بحثاً عن النسيان ، وكذلك يسافر أرمان في سفر طويل . ثم تسقط مرغريت أمام ضربات دائها المثالية ، وتتلقى من والد أرمان غفراناً وصفاً ومساعدة مالية . ولكنها تنتظر عودة أرمان دون جدوى وتموت وحيدة بائسة ، لا يحضر لحظة إسلامها الروح إلا صديقة واحدة - جوليا - ويبيع أثارها ومخلفاتها بعد ثلاثة أيام وفاء لديونها الكثيرة . يعود أرمان ويصعق لخبر وفاتها ويصرّ على نقل رفاتها إلى مقبرة أخرى ليتمكن من رؤيتها ، وتؤدي أزمته النفسية إلى أزمة جشعانية ثم يشفى . وتختتم الرواية بمذكرات مرغريت المؤثرة .

ولا شك أنّ السبب الذي حدا بالمؤلف إلى ابتكار هذا الاختلاف البين بين الرواية والمسرحية ، ولا سيما في الطريقة التي ماتت بها مرغريت في كلتا الحالتين ، إنما يرجع قبل كل شيء إلى رغبته في التأثير في المشاهدين أو القراء . فلو أنه جعل مرغريت - في المسرحية - تموت دون رؤية حبيبها أرمان ، لاضطره الأمر إلى أن يخوض في تصوير مشهد الاحتضار الطويل أو الدخول في حوار بين مرغريت وصديقتها في جو جنائزي منفر . فلا بد إذاً أن يكون احتضار مرغريت قصيراً أو مؤثراً ، ولا يكون كذلك إلا بعودة أرمان في اللحظات الأخيرة . أمّا في الرواية فمجال الوصف شاسع أمام المؤلف ، كما أنه يتجه بتصويره إلى خيال القارئ ومشاعره في وقت واحد ، فلهذه في هذه الحال فرصة للتأثير فيه وإسالة دموعه بوصف

الاحتضار الطويل والألام المبرّحة التي قاستها مرغريت على قرائش الموت . ويقدم المؤلف من ثمّ للقارئ مذكرات مرغريت ليقرأها بترتّب ويكي ما شاءت له دموعه وأسعفت عيناه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف صادف صعباً جمة ليحصل على إذن بعرض مسرحيته . فقد كتبت المسرحية سنة ١٨٤٩ وقدمت إلى المسرح التاريخي الذي أغلق قبل العرض ، ولم تقبل في مسرح «الفوديل» إلا بتدخل من الممثل هيبوليت دورمز ، ولم تعرض في هذا المسرح إلا في ٢ شباط / فبراير ١٨٥٢ . وقد منعت الرقابة هذه المسرحية عاماً كاملاً في وزارة ليون فوشيه ، رغم المساعي الكبيرة التي بذلها المؤلف ووالده ، والتي وصلت إلى رئيس الجمهورية ، فقد كتب ثلاثة من الكتاب المعروفين هم : جول جانان وليون جوزلان وإميل أوجيه توصية بصلاحياتها للعرض ، وأرسلت هذه التوصية إلى الكونت دي مورني ، الذي كان يتولى حمايتها ، ثم إلى رئيس الجمهورية الذي حوّلها إلى رئيس الوزراء الذي رفض قبول هذه التوصية رفضاً باتاً . وتدخل ألكسندر دوم الأب فتلقى الجواب عنه ، وقيل له إنه طالما كان ليون فوشيه في الوزارة فلن تعرض المسرحية ، وكان على ألكسندر الابن أن ينتظر .

وفعلاً انتظر . . وعيّن الكونت دي مورني ، الذي كان يرعى المؤلف ، في الوزارة محل فوشيه ، وكانت تلك مصادفة من مصادفات الحظ . وقد حدث ذلك في ٢ كانون الأول / ديسمبر وحققت المسرحية نجاحاً هائلاً ، إلا أن الرقابة عادت فمنعتها ، ثم أجازتها ، ثم منعتها ثانية مشرطة إجراء بعض التعديل عليها ، وكان بعض هذه التعديلات تافهاً لا ضرورة منه وبعضها ذا فائدة . وبعد

التعديل أقرتها الرقابة وصارت منذ ذلك الوقت في حمي القانون ، وكانت أول من أدّى دور غادة الكاميلىا المثلثة مدام دوسن فأحسنّت الأداء إلى درجة أن اسم غادة الكاميلىا التصق بها بعد ذلك .

ولا بدّ من التوقّف قليلاً لتتعرّف على الفتاة التي أوحّت للمؤلف بشخصية البطلة مرغريت جوتييه ، وفي أي ظروف عاشت تلك الفتاة ، وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة روايته : «إنّ الشخصية التي كانت لي مثلاً في الرواية والمسرحية كان اسمها ألفونسين بليسي ، وهو اسم كوّنّت هي نفسها منه اسماً أكثر رقة وعذوبة هو ماري دي بليسي . كانت طويلة القامة نحيلة القوام ذات شعر أسود ، وكان لونها أبيض مشرباً بالحمرة ، وكانت رأسها صغيرة وعيناها لامعتين كعيون اليابانيات ، ولكنها كانت مليئة بالحياة والرقّة ، وشفتاها في حمرة الكرز وأسنانها أجمل أسنان في العالم . وكان المرء إذا رآها يظنّها مثلاً من «الناسكس» . ولما رأيتها سنة ١٨٤٤ لأول مرة كانت في أوج عزها وجمالها . وماتت سنة ١٨٤٧ بمرض صدري وهي في الثالثة والعشرين من عمرها» .

«كانت واحدة من قلة من بنات الهوى ، تتميز بقلب كبير ، ولا شك أنها ماتت في شرح شبابها لهذا السبب . كانت لا ينقصها لا الذكاء الألمي ولا التعفّف . وقد انتهت فقيرة في شقة فاخرة حجز عليها الدائتون . كانت متميزة تتسم ملابسها بلذوق رقيق وغشي في رشاقة وربما كذلك في نبيل . وكان الناس يظنونها أحياناً إحدى سيدات المجتمع ، ولو عاشت إلى اليوم لاستمر الناس يظنونها كذلك . كانت فلاحه من إحدى قرى غربي فرنسا ، وقد خصّتها نيوڤيل جوتييه ببعض أبيات رثاء تصوّر هذه النفس الصغيرة الرفيعة

التي سوف تخلد الخطيئة» .

ولا شك أن ماري دي بليسي قد لفتت نظر كثير من الكتاب في ذلك الوقت ، فأفرد لها جول چاتان مقدمة طريفة للرواية دلّت على المجتمع الذي عاشت فيه تلك الفتاة ، والذي صورّه ألكسندر دوما الابن في روايته ومسرحيته على السواء . وقد أثارت ماري هذه عطف من عرفها ، وخصوصاً عطف المؤلف ألكسندر ، وانتقل هذا العطف إلى بقية بنات عالمها من بائعات الهوى ، فانبرى يدافع عنهنّ ويحاول معالجة الأسباب التي تدفعهن إلى الرذيلة ، فتراه يقول : «إنّ الضرر الذي تسببه بائعة الهوى ضرر لا سبق إصرار فيه ولا يغرق المرء فيه إلّا إذا كان غراً ولا يعجب به إلّا إذا كان فاسقاً . لكنه ضرر له عذره وهو الجوع والجهل والقدوة السيئة والوراثة التي لا حيلة فيها وأنانية المجتمع والمبالغة في الحضارة والمشكلة الأبدية : الحب . والمذنبه هنا تدعو إلى المساندة والعطف ولا تستلزم العقاب ، وذنبها هو ذنبنا ولا يمكن أن نكون قضاة طبيين في الوقت نفسه الذي نكون فيه نصحاء سوء» .

والواقع أن المجتمع الفرنسي قد مرّ في الفترة التي عاشت فيها بائعة الهوى ، التي قدّر لها أن تخلد في رواية ألكسندر دوما الابن ، بمرحلة يسر مالي أدّى إلى تفشي الخطيئة ، بشكل دقّت له نواقيس الخطر . فقد كان من السهل إيقاع العاملات الفقيرات في الخطيئة ، كما كان من السهل عليهن بعد ذلك أن يعشن في حماية رجل ثري يرعاهن مع تركهن مستمرات في عملهن . وأحياناً كان هذا الثري يضع العاملة على رأس محل من محلات الأزياء ، وقد كانت تلك هي حالة ألفونسين بليسي ومرغريت جوتييه . ولما اخترعت السكة

الحديد أثرى بعض الناس ثراءً فاحشاً وامتلأت باريس بطائفة كبيرة من الشبان الأثرياء من فرنسيين وأجانب ، وكان أغلبهم يخرج من أحط الطبقات ، وكان هؤلاء يخشون على سمعتهم من التورط مع هؤلاء الفتيات .

وما لبثت هذه النوبة العارمة من الثروة والبغاء أن اختفت ، وقد أحسن ألكسندر دوما الابن صنعاً بكتابة روايته في إبان الأزمة وهو متأثر بأحداثها وبشخصية البطلة ، ولو أنه ترك الأزمة تمر لما كان من اليسر له بعد ذلك أن يلقى ما لقي من نجاح ، وفي ذلك يقول بعد خمسة عشر عاماً من كتابة روايته : «إن غادة الكاميليا التي كتبها منذ خمسة عشر عاماً لا يمكن أن تعاد كتابتها اليوم لأنها لن تكون صادقة بل حتى لن تكون ممكنة ، فسوف لن يجد الناس حولهم مثلاً لهذا النوع من الحب والندم والتضحية » .

إن موضوع بائعة الهوى من الموضوعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعاً ، وقد انتقل إليهم من طريق روايتي من كتاب القرن الثامن عشر الذين يطلق عليهم اسم جبل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس بريغوز(*) في روايته الشهيرة «مانون ليسكو» . ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هوغو وألفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب . وكان بعض هؤلاء يعطف على العاهرة عطفاً شديداً ولا يجد فيها إلا ضحية من ضحايا المجتمع إذا أخذ بيدها فقد ترتفع إلى درجة القديسين ، ومنهم فيكتور هوغو حين صور شخصية «فانتين» في قصته المعروفة «البؤساء» .

وقد كتب هوغو «ماريون دي لورم» ، وموسيه «برنوريت»

(*) أنطوان فرانسوا بريغوز (١٦٩٧ - ١٧٦٣) .

وألكسندر «فرناند» ، وفتح المفكرون والشعراء في جميع العصور العاهرة عطفهم ورحمتهم ، وحدث أحياناً أن ردّ لهنّ رجل ذو قلب كبير الاعتبار بحبه وأحياناً باسمه . كما اهتم كثير من الكتاب الفرنسيين ، من غير الروائيين في ذلك الوقت بموضوع «البغي» فأفرد لها ج . ميشليه في كتابه «المرأة» ١٨٥٩ فصلاً عبّر فيه عن رأيه فيها ، وهو يرى أن الأمل ليس مفقوداً في إصلاحها ، كما أنه ليس مفقوداً في إصلاح حتى المرأة القتالة ، وهو يسميهم «شهيديات وقديسات البغاء» ويفرق في ذلك بين المرأة بهيمية الشهوة وتلك التي تضطر إلى ذلك بدافع البتة أو الأمومة .

ويعود روايتي فرنسي (رومان رولان في «النفس المسحورة» ١٩٥٠) محدث إلى هذا الموضوع في منتصف القرن العشرين فيلتمس الأعداء للمرأة الخاطئة ويفرق بين دنس الجسد ودنس الروح ، ويرى أنّ دنس الجسد من اليسير غسله ، أمّا دنس الروح فهو الذي لا يمكن تطهيره ، وفي ذلك تقول البطلة «آنييت ريفير» : «لقد دنست جسدي ويدي وعيني ولذا أغسلهما في عنف ، ولكن قلبي طاهر لم يمس فإنّ الوحل لم يصل إليه» .

غادة الكاميليا في الأدب العربي

كان لرواية «غادة الكاميليا» أثر كبير في الأدب العربي ، فقد عرّبت المسرحية في أوائل القرن الماضي ، ومثّلت فترة طويلة ، ومن الممثلات اللاتي تألّفن في هذا الدور السيدة زينب صدقي ، إلا أنه ليس ثمة ترجمة أدبية دقيقة لا للمسرحية ولا الرواية ، ولا يدخل في الحسبان «مذكرات مرغريت» للمنفلوطي رغم النجاح الذي حققته تلك المذكرات في القراء العرب في مطلع القرن العشرين ، إذ إن

المثقلوطي لم يكن يجيد الفرنسية ، وكان يعتمد في التعريب على صديق له يذكر له موضوع القصة ثم يتركة ينمقه بأسلوبه ويضيف إليه ما شاء مما تمهده به المحسنات البيانية والبديعية ، ولذلك فإن صلة القرين بين الأصل الفرنسي ومذكرات مرغريت كما عرّبها المثقلوطي بعيدة كل البعد ، ولا يقلل ذلك من أهمية تأثر القارئ العربي بهذا الموضوع ، رغم بعده عما يألّفه العرف والتقاليد في مصر والشرق .

كما أن أحد كتّاب القصة العرب ، هو غيب الحداد ، أراد الخوض في تجربة من نوع جديد لتقريب موضوع «العاهرة» التي يطهرها الحب من الذوق العربي ، فكتب رواية «حواء الجديدة» أو «إشون مونا» . ولكن كيف أمكنه جعل العاهرة بطلّة للرواية والذوق العربي يأبى حتى وجودها؟ كان لا بد له إذاً أن يجعل بطلّة روايته فرنسية لا عربية ، وقد خلط الكاتب في شخص بطلته بين «فانتين» بطلّة «البؤساء» لهوغو ، التي اضطرت لاحتراق تلك المهنة لتربية ابنتها ، وبين مرغريت جوتييه التي اختارت البغاء بدافع الضغط الاجتماعي وحب البذخ والترف ، ولذا جاءت شخصيتها متفككة غير مقنعة وغير مثيرة للشفقة كما قال جورجي زيدان في تعليقه على قصة الحداد .

ونحذر الإشارة إلى أنّ رواية «غادة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم ، إلى درجة أنها ظهرت في مصر وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٨٥ (فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى الذي ظهر عام ١٩٨٥) .

وغادة الكاميليا في هذه الأفلام حكاية وردية دامية بلا أمل عن

غانية جميلة يخطب بعض رجال المجتمع ودّها ، فيحبها شاب من أسرة نبيلة ما يشكل تهديداً لسمعة هذه الأسرة ، ويدفع بها إلى اللجوء إلى المرأة ، وأن تحطم حبها له فوق مذبح السمعة المهتدة ، فيقتلها الحب والتضحية ومرض السل . وهذه الحكاية هي إحدى «الحواديت» المحبّة بشكل غريب لدى صنّاع السينما في العالم ، وفي مصر ، حيث تم إخراجها خمس مرات لتصبح مرغريت جوتييه فتاة عربية تنطق بلغة الضاد ... وفي «ليلي» لتوجو مزرّاحي و«عهد الهوى» لبدرخان تصبح الغانية امرأة رقيقة يقع في غرامها طالب قادم من الريف ينتمي إلى أسرة إقطاعية ثرية ، وعلى الأب أن يأتي خصيصاً من الريف حيث يعيش كي يقابل الفتاة ويخطب ودّها من أجل أن تهجر ابنه . وقد اعتمد كلا الفيلمين على الغناء ، سواء من قبل ليلي مراد التي قامت بالدور في فيلم توجو مزرّاحي عام ١٩٤٢ ، ثم من قبل فريد الأطرش الذي جسّد دور الشاب الذي يرسل زهور الحب دائماً إلى حبيبته ويغني لها في عام ١٩٥٤ .

في هذه الأفلام تموت الغانية بمرض السل ، وهي أداة طيّعة لدى المجتمع الذي يتعامل معها ، وتهب الأثرياء جسدها لمن يدفع ويقدر ، وتهب واحداً منهم التضحية . ولأنها غانية فهي خاطئة في نظر أبناء هذا المجتمع ، ولذا عليها أن تموت بشكل دام مأساوي ما يزيد في حدة الإعجاب بها ، فهي الضحية دوماً ، وإذا كان السل لم يعد مرض العصر القاتل ، فإنّ تعاظمي المخدرات آفة تقتل «مرغريت جوتييه» في فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى عام ١٩٨٥ . أما أحمد ضياء الدين مخرج فيلم «عاشق الروح» عام ١٩٧٢ المقتبس عن «غادة الكاميليا» فيقول : «ليست كل الأعمال صالحة

الفصل الأول

من يوم امتشقت القلم لأكتب كان الرأي عندي أنَّ على الإنسان ، لكي يتبكر شخصيات خيالية ، أن يتوقّر على دراسة طبائع البشر ، كما أنَّ عليه ، لكي يتكلم إحدى اللغات ، أن يفقه أصول هذه اللغة وقواعدها .

ولمّا لم يكن لي من السن والتجارب ما يجعل في طوقي أن أبتكر الشخصيات الخيالية ، فإني أقتع هنا بأن أكون مجرد راوية لا أكثر ، وأرجو القارئ أن يتصوّر بأن القصة التي أسردها فيما يلي حقيقية ، لا أثر فيها للصناعة والخيال ، وجميع شخصياتها - فيما عدا البطلة - لا يزالون على قيد الحياة ، وفي باريس شهود عديدون على أكثر الحوادث التي أسجلها هنا ، وعند هؤلاء الشهود ما يثبت القصة ويوضحها ، فيما إذا افتقرت روايتي حقاً إلى الإثبات والإيضاح .

وقد شاءت بعض المصادفات ، والظروف الخاصة ، أن أكون الشخص الوحيد الذي يملك جميع المقومات اللازمة لتسجيل هذه القصة ، لأني الوحيد الذي عرف من التفاصيل النهائية ما يستحيل من دونه أن تكون القصة تامة ومثيرة للاهتمام . وأمّا كيف وقفت أنا إلى هذه التفاصيل فإليكم ما يلي :

حدث ذات يوم أنني كنت أسير في شارع لافيت فوقع نظري على لوحة كبيرة تحمل إعلاتاً عن بيع أثاث ثمين نادر بالمزاد العلني ، ولم يرد في الإعلان اسم صاحب الأثاث ، وإنما ذكر أن البيع سيبدأ في يوم ١٦ من ذلك الشهر ، بالمنزل رقم ٩ بشارع دانتان ، وأن في استطاعة الراغب في الشراء مشاهدة الأثاث في المنزل المذكور في

للاقتباس ، فالقصص الإنسانية قصص عالمية من الممكن اقتباسها في أي بيئة وأي عصر ، أمّا القصص التي تعتمد على الأحداث فتكون على العكس من ذلك مقتصرة على العصر والظروف التي حدثت فيها وبالنسبة إلى رواية «غادة الكاميليا» فلا يمكن اقتباسها كما سبق القول كاملاً .

قائمة بالأفلام المقتبسة عن «غادة الكاميليا» :

١٩٣٥ : «الغندورة»

(ماريو فولبي - عهد

السلام النابلسي) .

١٩٤٢ : «ليلي» توجو

مزارحي .

١٩٥٥ : «عهد الهوى»

علي بدرخان .

١٩٧٢ : «رجال بلا

ملاح» محمود ذو

الفقار .

١٩٧٣ : «عاشق

الروح» أحمد ضياء

الدين .

١٩٨٥ : «السكاكيني»

حسام الدين مصطفى .



غادة الكاميليا

بين غريتا غاربو وروبرت تايلور



«عاشق الروح» للمخرج أحمد ضياء الدين

بين عماد حمدي وحسين فهمي

يومي ١٣ و ١٤ .

ولسأ كنت من هواة جمع الأثاث الثمين النادر ، فقد حزمت رأبي على انتهاز هذه الفرصة ، إن لم يكن للشراء ، فللمشاهدة على أقل تقدير . . وهكذا قصدت في صباح اليوم التالي المنزل رقم ٩ بشارع دانتان المذكور .

وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكراً . . فإنني وجدت المنزل عامراً بالزائرين والزائرات . .

كانت ثيابهم الفعلية الثمينة ، ومظاهر التجمعة التي تبدو عليهم ، والمركبات الفخمة التي تنتظرهم في الخارج . . كل ذلك كان يدل على أنهم من ذوي اليسار ، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون في كثير من الدهشة والإعجاب والاهتمام إلى ما يحيط بهم في ذلك المنزل من أثاث فخيم ومن أسباب الرفاهة ومظاهر الترف .

ولم أعظم أن اكتشفت سر هذه الدهشة وهذا الاهتمام ، فقد فطنت بعد جولة قصيرة بين الغرف إلى أن المنزل كان لإحدى الغانيات الغنيات ، ذوات المكاثة البارزة في عالم اللهو والعبث ، بمن يعيش في كنف واحد ، أو أكثر ، من النبلاء الأثرياء الذين ليست لهم صلة الزوج أو الأب أو الأخ بأولئك الغنيات .

ولا شك في أنه إذا كان في الوجود شيء تتحرق نساء الطبقة الراقية شوقاً إلى معرفته ، ومعانيته ، فهو ذلك الجو الخاص والنظام الداخلي في منازل أولئك الغنيات اللاتي ينافسن في مظاهر الترف والرفاهية ، ويتنازعنهن الأسبقية في ميدان الأزياء ، والأولوية في صدر المجتمع ، ويشغلن مثلهن المقصورات البارزة في دار الأوبرا وسائر

المسارح ، ويبهرن باريس بجمالهن الجريء ، وحديث فتنهن ومكائدهن ومغامراتهن .

وكانت الغاية التي نحن في منزلها الآن قد توفيت ، فلا جناح إذاً على المرأة الشريفة أن تدخل بيتها ، وتنفذ من ثم إلى صميم مخدعها دون خوف أو وجل ، لأن الموت طهر ذلك الخدع الذي كان عساً للغرام ووكراً للرزيلة والإثم . وإذا كان لا بد من مسوغ آخر لوجود التيللات الشريقات في ذلك الوكر فهو ذلك الأثاث الثمين الذي يباع بالزاد العلني ، والذي يستطيع كل إنسان أن يراه ويشتاعه دون أن يكون لزاماً عليه أن يعرف صاحبه .

وهكذا لم يكن عجباً أن تقتل غرف المنزل بسيدات الطبقة الراقية ، فدهي أنهن قرآن الإعلان ، وطبيعي أنهن أردن شهود قطع الأثاث واختيار ما يروقهن منها ثمهيداً لاتباعها . كل ذلك في الواقع طبيعي لا بدع فيه ، ولكن ليس ثمة ما يمنع أولئك التيللات الشريقات من إشباع غريزة الفضول التي تعتمل في نفوسهن ، والبحث هنا وهناك ، وسط مظاهر الشرف والتعظيم التي يريتها حولهن ، عن سر من أسرار فتنة تلك الغانية التي سمعن عنها كثيراً وتخيلن عنها أكثر مما سمعن .

ولكن من سوء حظهن أن هذه الأسرار قد ذهبت بذهاب ربة الهيكل ، ولم يبق ماثلاً إلا ما قضى الموت بعرضه للبيع والشراء ! وما أندر وما أئمن ما كان معروضاً من أثاث وثير منقطع النظير ، وأنية من أبدع ما صنع الصانعون ، وقنابل صغيرة وملابس وحلي .

رُحْتُ أَتَقَلُّ بَيْنَ الْغُرَفِ فِي أَثَرِ النِّبِيلَاتِ الْفَضُولِيَّاتِ اللَّائِي
سَبَقَتْنِي إِلَيْهَا .

وَدَخَلْتُ السِّدَاتِ إِلَى غُرْفَةٍ يَسْدُلُ عَلَى بَابِهَا سِتَارٌ ثَمِينٌ ،
فَهَمَمْتُ بِالْدُخُولِ فِي أَثَرِهِنَّ ، وَلَكِنَّهُنَّ خَرَجْنَ فَجَاءَ وَعَلَى شَفَاهِهِنَّ
إِسْمَاءٌ غَامِضَةٌ ، وَكَأَنَّ مَا شَهِدْنَهُ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ قَدْ خَدَشَ مَا
يَزْعَمُنَّ لِأَفْضِهِنَّ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْإِحْتِشَامِ .
وَأَثَارَ ذَلِكَ فَضُولِي ، فَدَخَلْتُ الْغُرْفَةَ .

*

كَانَتْ غُرْفَةُ ثِيَابِ الْغَانِيَةِ الَّتِي اخْتَرَمَهَا الْمَوْتُ . . وَكُلُّ مَا فِيهَا
يَشْهَدُ بِالنِّعَمِ الَّذِي كَانَتْ تَرْفُلُ فِيهِ صَاحِبَتِهَا .

رَأَيْتُ بِالْقُرْبِ مِنْ أَحَدِ الْجِدْرَانِ مَتَضَّةَ كَبِيرَةٍ قَدْ رَتَّبَ فَوْقَهَا كَثْرَ
مِنْ أَدَوَاتِ الزَّيْنَةِ . . وَكُلَّهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ قَدْ جُمِعَتْ تَدْرِيجاً ، فَهِيَ
لَيْسَتْ هَدِيَّةَ عَاشِقٍ وَاحِدٍ دُونَ رَبِّهِ . وَلِمَا لَمْ يَكُنْ ثِمَةً غَضَاضَةً فِي
أَنْ أَفْحَصَ أَدَوَاتِ امْرَأَةٍ ذَاتِ سَمْعَةٍ مَعِينَةٍ ، لِإِنِّي مَا لَبِثْتُ أَنْ
اِكْتَشَفْتُ أَنَّ كُلَّ أَدَاةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ الْفِيضَةِ تَحْمِلُ اسْماً وَشِعَاراً
مُخْتَلِفِينَ .

*

نَظَرْتُ إِلَى هَذِهِ الْأَدَوَاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ كُلَّ مِمَّا مِنْهَا إِحْدَى مَغْلُفَاتِ تِلْكَ
الْغَانِيَةِ الْمُنْكَودَةِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي إِنَّ السَّمَاءَ وَلَا شَيْءَ قَدْ تَرَفَّقَتْ بِهَذِهِ
الْفَتَاةِ الْمُسْكِينَةِ ، فَلَمْ تَقَدْ فِي أَجْلِهَا وَتَبَسُّطَ فِي أَيَّامِهَا حَتَّى تَسْتَوْفِيَ
الْعَقُوبَةَ الْعَادِيَةَ الَّتِي يَفْرَضُهَا الْإِثْمُ عَلَى الْخَاطِئَاتِ أَمْثَالِهَا . . بَلْ هِيَ
سَمَحَتْ لَهَا أَنْ تَمُوتَ وَسَطَ مَظَاهِرِ التَّعْمِيمِ ، وَفِي ذُرْوَةِ مَجْدِهَا

وَجَمَالِهَا وَشَبَابِهَا . . قَبْلَ أَنْ تَذَرَكَهَا الشَّيْخُوخَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوْتَةُ الْمَرِيرَةُ
الْأُولَى لِجَمِيعِ الْغَانِيَّاتِ .

وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدْعُو إِلَى الرِّثَاءِ وَالْإِسْفَاقِ كَشَيْخُوخَةِ
الْإِثْمِ . . وَلَا سِيَعَا فِي النَّسَاءِ . . فَالْخَاطِنَةُ الْمُنْقَدِمَةُ فِي السَّنِّ لَا تَضْفَرُ
بِكِرَامَةٍ . . وَلَا تُثِيرُ اِهْتِمَاماً . . فَهِيَ فِيمَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِهَا نَهْيَةً الْخَسْرَةِ
وَالْتَدَمِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْ اِعْوِجَاجِهَا وَفَسَادِ تَقْدِيرِهَا وَسُوءِ تَصَرُّفِهَا
فِيمَا انْتَهَى إِلَيْهَا مِنْ مَالٍ مِنْ طَرِيقِ الْإِثْمِ وَالْخَطِيئَةِ .

*

وَقَدْ عَرَفْتُ فِي وَقْتٍ مَضَى عَجُوزاً مِنْ هَذَا الطَّرَازِ لَمْ يَبْقَ لَهَا مِنْ
مَاضِيهَا غَيْرُ ابْنَةٍ تَسْتَمْتِعُ بِمِثْلِ مَا كَانَ لَهَا مِنْ جَمَالٍ وَفَنَّةٍ وَاعْرَافٍ .

وَلَمْ تَقُلْ الْعَجُوزُ لِلْفَتَاةِ «أَنْتِ ابْنَتِي» إِلَّا لَتَلْتَمِسَ لَشَيْخُوخَتِهَا مِثْلَ
الْمُسَاعَدَةِ الَّتِي بَدَلَتْهَا لِلْفَتَاةِ فِي طِفْلَتِهَا . .

وَكَانَتْ الْفَتَاةُ الْمُسْكِينَةُ - وَاسْمُهَا لَوَيْزَا - طَبِيعَةً لَأَمَهَا ، فَانْقَادَتْ
لِحَيَاةِ الْبَغَاءِ الَّتِي رَاضَتْهَا عَلَيْهَا ، كَمَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَنْقَادَ لَوْ رَوَّضَتْ
عَلَى آيَةِ حَيَاةٍ أُخْرَى .

وَاعْتَاطَتْ حَيَاةَ الْإِثْمِ فِي نَفْسِ الْفَتَاةِ فَضِيلَةَ التَّجْيِيزِ بَيْنَ الطَّيِّبِ
وَالْخَائِثِ ، وَلَسْتُ أَنْسَى مَا حَيَّيْتُ مِنْظَرَ هَذِهِ الْمُسْكِينَةِ وَهِيَ تَتَجَوَّكُ فِي
الشَّوَارِعِ فِي سَاعَاتٍ مَعِينَةٍ ، وَأَمَّا تَرَاثُفُهَا . . كَمَا تَرَاثُفُ الْأُمُّ الشَّرِيفَةُ
ابْنَتَهَا . . وَلَكِنْ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْغُرُصِ .

*

كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ فِي رِيْعَانِ الصَّبَا ، وَعَلَى اسْتِعْدَادٍ لِقَبُولِ
نَوَامِيسِ الْجُمُعَةِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنِّي أَذْكَرُ أَنَّي لَمْ أَتِمَّكَ مِنْ
الشُّعُورِ بِالْاِمْتِنَاعِ وَالْاِسْتِمْنَازِ لِهَذَا الِاسْتِغْلَالِ الْأَثِيمِ لِأَقْدَسِ الصَّلَاتِ

الإنسانية .

أضف إلى ذلك أنني لم أر قط على وجه أظهر فتاة عذراء ما كنت أرى على وجه هذه الفتاة التمسع من مظاهر السذاجة والبساطة وشدة الاحتمال والجَلَد .

ويبدو أن العناية الإلهية كانت لا تزال تضمر لهذه الحافظة المسكينة نوعاً من السعادة ، فقد اكتشفت الفتاة في أحد الأيام أنها تصبح أما . . واستحال كل ما بقي نبيلاً وطاهراً في طبيعتها إلى غبطة لا توصف ، وأصبح الجنين الذي يتحرك في أحشائها الملجأ الوحيد الذي تفرغ إليه روحها المعذبة ، وتجد فيه السلوى والعزاء .

وكشفت الفتاة عن سرها لأُمها .

*

والذي حدث بعد ذلك يجعل سرده ، وربما كان من الأفضل ألا نسرده ، لولا أننا نعتقد بأنه من الخير في بعض الأحيان أن نغط اللثام عن ضروب الشقاء والتعاسة التي تعانيها هذه المخلوقات البائسات ، اللاتي نحكم عليهنّ دون أن نسمع دفاعهنّ ، ونحتقرهنّ دون أن نتغلغل في شؤون وشجون حياتهنّ .

قالت الأم لابنتها مُعْتَقَةً كلاماً يحمرّ له وجه الأمومة ، قالت لها إنهما لا يجدان قوت يومهما ، فكيف إذا جاءهما ثالث؟ وبعد ، فما فائدة الأطفال؟ أفليس الاحتفاظ بالجنين مضيعة للوقت؟

وفي اليوم التالي جاءت بها عجوز تعرفها ، فقضت العجوز مع لويزا ساعة أو بعض ساعة .

ولزمت لويزا بعد ذلك فراشها بضعة أيام . . ثم عادت تجوب الشوارع ضعيفة شاحبة . .

وبعد ثلاثة شهور على وجه التقريب ، عرف بعض الخيرين بهذه القصة المحرّنة ، فأخذته الشفقة بالفتاة ، وقرّر أن يُعنى بها وأن يعيد إليها الصحة ، ويردّها إلى سراء السبيل ، ولكنّ ما استهدفت له الفتاة قبل ثلاثة شهور كان قد أثر في صحتها . . فلزمت الفراش لأسابيع ، ثم قضت نحبها .

أما الأم فلا تزال حية ترزق ! ولكن كيف تحيا وترزق؟
ذلك ما لا يعلمه إلا الله خالقها .

*

عادت هذه القصة إلى ذاكرتي وأنا أتأمل أدوات الزينة . . ولا بد أنني استغرقت في التفكير وقتاً طويلاً . . لأنني عندما أفقت من ذهولي وجددتني وحيداً في الغرفة . . وليس معي إلا أحد الرجال المكلفين بحراسة الأثاث النفيس .

وكان الرجل ينظر إليّ خلسة . . ويرمقني بين الغيبة والغيبة بعين الحذر والريبة . . فدنوت منه وسألته :

- هل لك يا سيدي أن تذكر لي اسم الشخص الذي كان يقيم في هذا المنزل؟

فأجاب :

- هذا بيت الأسة مرغريت جوتييه .

وكننت قد رأيت هذه الفتاة مراراً فهتفت :

- ماذا تقول؟ هل ماتت مرغريت جوتييه؟

- نعم . . منذ ثلاثة أسابيع .

- ولماذا فتح بيتها لكل عابر سبيل؟

- ذلك أنّ الدائتين يعتقدون أن هذه هي أفضل وسيلة للحصول

على أعلى ثمن لأمتعتها ومخلفاتها . والواقع أن عرض الأمتعة في
مكانها الطبيعي ، وسط هذه المظاهر الخلابية ، من شأنه أن يضاعف
إقبال المشتريين .

- الدانتون؟ إذا فقد كانت مدينة؟

- نعم . . كانت مدينة بمبالغ طائلة .

- وهل يكفي ثمن أمتعتها لسداد ديونها؟

- بل يكفي ويرى على قيمة الديون جميعها .

- وإلى من تؤول الزيادة؟

- إلى أسرتها .

- فلها أسرة إذا؟

- أظن ذلك .

فشكرت الرجل لمعلوماته وأدبه . . وزالت شكوكه في نواياي
فحياتي باحترام وانضرفت .

مكبنة تلك الفتاة!! لا بد أنها ماتت ميتة محزنة . . فإن مشايخها
لا يستمتعون بصداقة الأصدقاء إلا بشروط أهمها وفرة الضحكة
والجمال!

ولم أقالك من الشعور بالشفقة على مرغريت جوتييه . وقد يبدو
ذلك غريباً وشاذاً في نظر الكثيرين ، ولكني في الواقع أشفق على
هذا الطراز من النساء ، ولا أحاول كتمان هذا الإشفاق .

حدث ذات يوم أنني رأيت شرطيّين يقودان فتاة إلى دائرة
الشرطة .

لم أعلم ماذا جنت هذه الفتاة . . كل ما أعلمه أنني رأيتهما نكبي

بدموع غزيرة . . وتقبل طفلة صغيرة يوشك اعتقالها أن يفرق بينهما .
ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة اقترفت إثماً . . ولكن بما لا شك
فيه أنها كانت تعتمل في أعناق نفسها أنبل عواطف الأمومة .

ومن ذلك اليوم وأنا أربأ بنفسي عن أن أصدر حكمي على أولئك
النساء بمجرد الظواهر دون معرفة الجواهر .

الفصل الثاني

عَينَ يوم ١٦ آذار/ مارس لبيع الأثاث .

وحدث في ذلك العهد أنني كنت قد عدت للتو من رحلة
طويلة ، فلم أعلم بموت مرغريت جوتييه ، وكان من الطبيعي ألا
يذكر لي أصدقائي نبأ موتها ضمن الألياء الهامة التي يسارع الأصدقاء
إلى ذكرها للإنسان بعد عودته من سفرة طويلة الأمد .

كانت مرغريت جميلة حقاً . . ولكن على الرغم من الشهرة التي
يستمتع بها أولئك النساء في حياتهن . . فإن الإنسان لا يسمع عنهن
إلا النذر اليسير بعد موتهن . . فهن في الواقع شמוש تغيب كلما
تشرق . . فلا يفتن إليهن أحد . . إلا وهن في كبد السماء .

ولو ماتت إحدى أولئك النسوة في مقتبل العمر لذاع نبأ موتها
بين عشاقها جميعاً في وقت واحد . . لأن نوعاً من الصداقة ينشأ
عادة بين عشاق المرأة الواحدة . . وهم عندئذ يتبادلون عنها بعض
الذكريات . . ثم يستأنفون حياة لا تنغصها عبء واحدة . . على المرأة
التعة التي كانت تربطهم بها تلك الصلة الوثيقة .

والواقع .. أنه في مدينة لاهية كيارس تصبح الدعوى عزيزة على أصحابها ، فلا يسكنونها في كل مناسبة .. إذ يكفي أباءنا - الذين يدفعون ثمن حزننا - أن يتألموا من دموعنا ما يعادل الثمن الذي يدفعونه إلينا في شكل تركة موروثة .

أما أنا شخصياً .. فعلى الرغم من أن الحروف الأولى من اسمي لم تكن منقوشة على شيء من أدوات الزينة في غرفة مرغريت جوتييه .. فإن شفقتي الغريزية على هذا الطراز من النساء دفعني إلى التفكير في أمرها أكثر مما تستحق .

تذكرت أنني رأيتها مراراً في حدائق الشانزليزيه ، حيث كانت تذهب كل يوم في مركبة فخمة يجرها جوادان بديعان .. وتذكرت أنني كنت أميزها بمسحة من الأناقة والنبيل تفردت بها عن نساء طبقته .

وقد جرت عادة أولئك النساء أنهن .. إذا خرجن للترفة .. اصطحن معهن كائنات من كان .

ولسأ كان كل رجل يضمن بكرامته أن تلوكنها الألسنة .. وغمايراته الليلية أن تصبح مدار حديث الناس في كل مجتمع .. وكانت أولئك النسوة يفرعن من الوحدة .. فانهن اعتدن أن يصطحبن في مركباتهن زميلة من طبقتهم لا تقلك مركبة مثلهن .. أو عجوزاً شبعاء لا تخشى منافستها ويستطيع المتبذكون من الرجال أن يلجأوا إليها في طلب المعلومات من كل نوع .. عن الحسنة صاحبة الفركية .

ولكن مرغريت شذت على هذه القاعدة .. فكانت تذهب إلى الشانزليزيه بمفردها .. وتكتمش في ركن مركبتها .. كانت وكأنها لا

تريد أن يشعر بوجودها أحد .. فإذا حل الشتاء التفت في معطف كبير يحجب فتنتها ، وإذا أقبل الصيف برزت في ثوب بسيط لا يلتفت إليها الأ نظار .. وإذا وقع بصرها على واحد من أصدقائها العديدين ابتمت له ابتسامة لا يراها أحد سواه .. كابتسامة أبة امرأة شريفة نبيلة في مثل هذه الظروف .

كذلك لم تكن مرغريت تتلصق بمركبتها في ميدان الشانزليزيه كما تفعل مثيلاتها .. بل كانت تقصد نواً إلى الغابة .. وهناك تهبط من مركبتها .. وتسير بين الأشجار تترقب ساعة أو بعض ساعة .. ثم تعود إلى بيتها بأقصى سرعة جوادها الكرمين .

•

تذكرت كل ذلك عن مرغريت جوتييه .. وأسفت لموتها كما يأسف الإنسان على فناء عمل فني منقطع النطير .

والواقع أنه يصعب .. بل يكاد يستحيل .. أن يصادف الإنسان امرأة أكثر جمالاً من مرغريت ..

كانت عمشوقة القامة صغيرة الجسم .. تعرف إلى درجة الإثقان كيف تخفي نحافتها البارزة .. بل وتعرف - بمهارتها في اختيار ثيابها - كيف تجعل من هذه النحافة جسداً فناناً تحسدها عليه أترابها .

وكان رأسها أعجوبة في ذاته .. فهو صغير جداً بقدر ما هو متناسب التقاطيع ..

وإذا أردت الاحتفاظ بصورة وجهها فتناول القلم وأرسم وجهها بيضياً منتظماً .. وخطاً فيه عيبه تألفان نالفاً غير عادي .. ثم أرسم بالقلم فوق العينين قوسين رقيقين .. وتلك العينين ماهرات طويلة يترامى ظلها إلى الخدين .. وأرسم بعد ذلك ناعماً دقيقاً مستقيماً وقمماً

رقيقاً يفتّر عن أسنان يصفاء كاللّج . . واصبغ الحديد بلون ناعم
كلون الخوخة الناضجة التي لم تمسها يد إنسان . . فترى أمام
باصريك وجه مرغريت جوتييه .

أما كيف احتفظ هذا الوجه - رغم إصراف صاحبه في اللهو
والعبث - بتلك النضارة والدعة اللتين تحتكرهما وجوه العذارى
والأطفال فذلك ما أسجّله هنا . . دون أن أحاول تعليقه وتحليله .

كانت مرغريت شديدة الحرص على حضور العرض الأول في
جميع المسارح ، فهي تقضي معظم أمسياتها تقريباً في المسارح
والمراقص . . وحيشما تعرض إحدى المسرحيات ، للمرة الأولى ، تجد
مرغريت جوتييه صحة ثلاثة أشياء لا تفارقها : المنظر المكبر ، وحزمة
من الحلوى ، وبقعة من زهور الكاميليا .

ولم يعرف عن مرغريت أنها استعاضت يوماً عن الكاميليا بزهور
أخرى . . فكان أن اشتهرت في كل باريس باسم «غادة الكاميليا» .
وقد علمت عنها حقائق أخرى يعرفها سائر المترددين على
مجالس معروفة .

علمت . . مثلاً . . أنها كانت في وقت ما عشيقه شاب في مقتبل
العمر من شباب الأوساط الراقية ، وأنها كانت تعترف بذلك في
صراحة .

وعلمت أنها رحلت إلى بانير منذ ثلاثة أعوام . . وقيل وقتئذ إنها
تعاصر هناك دوقاً أجنبياً متقدماً في السن ولكنه واسع الثراء . . وإن
هذا الدوق حاول أن يردّها عن حياة اللهو والعبث وإنه آسن فيها
ميلةً وارتياحاً إلى تحقيق هذه الرغبة .

وفيما يلي خلاصة ما أُنشِيع في هذا الصدد :

حدث في ذاك الربيع - منذ ثلاثة أعوام - أن طراً على سحنة
مرغريت من الانقلاب ، وعلى صحتها من الضعف ، ما حمل الأطباء
على أن ينصحوا لها بالاستشفاء في بانير .

وكانت ابنة الدوق الذي أشرت إليه تستشفّي في ذلك المكان . .
ولم تكن مصابة بمثل داء مرغريت فحسب . . بل كان لها كذلك
مثل قوامها وسحتها . . ويلغ من دقة الشبه بينهما أن كان الناظر
إليهما يتوهم أنهما توأمان !

وكانت ابنة الدوق مصابة بالسل في طوره الأخير فما لبثت أن
توفيت عقب وصول مرغريت إلى بانير .

وقضى الدوق المعجوز بضعة أيام متسكّماً في بانير كما يتسكّع
الإنسان حول القبر الذي يضم أعز أحلامه وآماله . وحدث ذات يوم
أن صادف الدوق مرغريت . . فنشبه إليه أنه رأى ابنته التي انتزعها
الموت من أحضانه . . فذهب إليها والدموع تترقب في عييه . .
وضم يدها بين يديه . . وطبع قبلة على جبينها . . وتوسّل إليها -
دون أن يعرف شيئاً عنها - أن تسمح له بزيارتها وأن يحبها كما
يحب أمّودجاً حياً لابنته العزيزة المتوفاة .

وكانت مرغريت وحيدة في بانير . . ولم يكن هناك ما يهدد
سمعتها إذا صادفت ذلك الدوق المسن . . فلم تتردد في إجابة
المسكين إلى رجائه .

ولكن كان في بانير أناس يعرفون مرغريت . . فجعل هؤلاء
همهم أن يكشفوا للدوق عن حقيقتها . . وكانت صدمة محزنة
للشيخ المسكين . . فقد أمّحت عند ذلك وجوه الشبه بين ابنته
ومرغريت . .

ولكن تحذير الناس جاء متأخراً بعد أن عرف الدوق التعيس في
صحبة مرغريت راحة النفس وهناء القلب . . . وأصبحت الفتاة
بالنسبة إليه من ضروريات الحياة . .

لم يعتب عليها . . . إذ لم يكن من حقه أن يعتب . . ولكنه
سألها إن كانت ترضى عن حياتها الأولى بديلاً . . وعرض عليها ما
تشاء لقاء هذه التضحية . . فوعدت بتحقيق رغبته .

وتجدر الملاحظة هنا أن مرغريت كانت في هذه الفترة عذبة
سفيمة وكانت قد بدأت تشعر بأن حياة اللهو والعبث والرذيلة هي
أساس علتها وسقمها .

واستولى عليها مع هذا العرض نوع من الوهم جعلها ترجو أن
ترد العناية الإلهية صحتها عليها . . وأن تحفظ لها جمالها . . جزاء
ندمها وتوبتها . . إذا هي ندمت وتابت . .

والواقع . . أن المياه المعدنية في بانير والرياضة المنتظمة . . والحياة
الهادئة الوداعة . . والراحة المستمرة . . كل ذلك ما لبث أن ردَّ عليها
صحتها . . وقوتها .

ثم عادت مرغريت من بعد إلى باريس برفقة الدوق ترفل
بالعافية . . وراح الدوق يزورها كل يوم كما كان يفعل في بانير .

•

ولاحظ الناس الصلة بينهما . . ولم يعرفوا أصلها أو طبيعتها . .
ولكنهم جميعهم لم يختلطوا في تأويلها وتعليلها . . وكان الدوق
مشهوراً بسمة ثروته . . فأصبح مشهوراً بنفسه وبذلكه .

والواقع . . أن الناس فلتوا في هذه القصة كل الظنون . . إلا
الحقيقة . . والحقيقة هي أن شعور الشيخ التاكل نحو الغاية المعشوقة

كان من أظهر المشاعر الأبوية وأنبئها . . فلم يسمعها قط كلمة تخجل
ابنته من سماعها .

وليس في نيّتي أن أجعل من بطله هذه القصة غير من هي ،
فأقول إنها لم تير بورعدها للدوق إلا ريثما انقضت أيام الهدوء
والسكينة والاستجمام في بانير ، فلما عادت إلى باريس أحست .
وهي التي ألقت أجواء العبث واللهو والحياة الطرورية الصاخبة . بأن
الوحدة والسكينة ستقتلنها سامة وملافة . . ثم هبت عليها أنفاس
الحياة السابقة . . فلغحت وجهها وقلبها . . وأيقظت مشاعرها
المكتومة .

أضرب إلى ذلك أنها عادت إلى باريس أكثر جمالاً وأشد فتنة . .
وأنها كانت لا تزال في العشرين من عمرها . . وأن داءها الذي هجع
ولم يتأصل . . كان لا يزال يحرك في أعماقها تلك الغرائز الجامحة
التي تلازم أمراض الرئة فلا تغارقها .

لكل هذا وذلك . . تعلد على مرغريت أن تخلص إلى الوحدة أو
العزلة والسكينة في باريس .

وحدث في أحد الأيام أن علم الدوق المسكين من بعض
أصدقائه . . أو على الأصح . . من أصدقاء ثروته عن يهمهم إقصاؤه
عن مرغريت . . أن الفتاة قد عادت سيرتها الأولى . . وأنها تستقبل
الزائرين في بيتها في ساعات معينة بعد انصرافه . . وأن بعض هؤلاء
الزائرين يطيلون إقامتهم إلى تبشير الصباح .

وسأل الشيخ اللطاع الفتاة . . وكانت هي من الصراحة والشجاعة
بحيث اعترفت له بكل شيء ونصحت له ألا يزعج نفسه من
أجلها . . لأنها لا تقوى على حياة الجحود والعزلة والزهد وإنكار

الذات كما وعدت .. وبالتالي لا تستطيع المضي في قبول الهيات والعطايا التي يسبغها عليها لقاء وعد عجزت عن الوفاء به .
راج الدوق في سبيله .. ومراً أسبوع لم يرها في خلاله .. ولكن هذا الأسبوع كان مبلغ قدرته على إنكار ذاته .. لأنه عاد إليها في الأسبوع الثاني متوسلاً أن تسمح له بزيارتها .. راضياً بها كما هي .. واعداً بالألأ يعود إلى إزعاجها ولومها مهما بدا من أفعالها .

الفصل الثالث

قضدت إلى شارع دانتان في اليوم المحدد للبيع .. وما كدت أعبى الباب الخارجي .. حتى سمعت صوت (الدلاك) واضحاً جلياً .
كان المنزل غاصاً بالناس .. وبينهم بطبيعة الحال الغانيات المبرزات في ميدان الرذيلة (الراقية) .. وعدد كبير من نساء الطليقة الممتازة جئن في الظاهر للشراء .. وفي الحقيقة لانتهاز هذه الفرصة الفريدة والاجتماع عن قرب بأولئك الغانيات اللاتي يتظاهرن باحتقارهن .. وهن في الواقع يحسدنهن سراً على ما هنَّ عليه من ترف .
رأيت الدوقة (فا) تخطو جنباً إلى جنب مع الأتيسة (ا) التي أصبح بيتها موطناً للعشاق .. ورأيت المركيزة (ت) تتردد في ابتياع أداة من أدوات الزينة تتنافسها قبيها مدام (د) .. أشهر الزوجات الحائزات في باريس .

ورأيت الدوق (س) .. الذي يعتقد الناس في باريس أنه يتفق كل ثروته على غانيات مدريد .. ويعتقد الناس في مدريد أنه يبعثر أمواله على غانيات باريس .. وهو في الواقع لا يتفق معشار إيراده

هنا أو هناك .. رأيت هذا الدوق واقفاً يتحدث إلى السيدة (هـ) الكاتبة المشهورة .. ويختلس النظرات في الوقت نفسه إلى السيدة (ن) تلك المرأة الأثيفة التي اختارت لثيابها اللون الأزرق السماوي .
ورأيت الأتيسة (ر) .. الموسيقية المبدعة التي احتلت بمزاميرها مكانة دونها المكانة التي نالتها أولئك النييلات بوفرة أموالهن .. أو نالتهن أولئك الغانيات بكثرة مغامراتهن .. وقد جاءت بدورها - رغم شدة البرد - لابتياع متاع من مخلفات مرغريت جوتييه .

وكان هناك غير هؤلاء وأولئك ممن لا يتسع المقام لذكرهم .. وقد اجتذبتهم جميعاً رغم تباین مراكزهم في الهيئة الاجتماعية شهرة المرأة التي يباع أثنائها اليوم بالزاد العلني .

كانوا جميعاً مريحين محتلين نشاطاً وحيوية .. وعلى الرغم من أن البعض منهم كانوا يعرفون مرغريت حق المعرفة .. فإن أحداً منهم لم يأت على ذكرها بكلمة واحدة .

وارتفع من هنا وهناك رنين الضحكات .. ودوى صوت (الدلاك) فوق جميع الأصوات .. وعبثاً حاول التجار الذين جاءوا يقصد الشراء حمل الحاضرين على التزام الهدوء والسكينة .

وفي الواقع ألني لم أشهد في حياتي اجتماعاً متباين العناصر شديد الجلية كذلك الاجتماع ، لم أقالك معه من الشعور بالأسى والحزن عندما سمعت صخب الضحكات في الغرفة عينها التي لفظت فيها تلك المخلوقة المسكينة أنفاسها الأخيرة منذ أيام معدودة .

•

كان غرضي من الحضور مجرد التسلية لا الشراء .. فذهبت أقامل وجوه الدائنين الذين يباع الأثاث لحسابهم .. والذين كانت أسارىهم

تبسط كلما بيعت إحدى القطع بثمن أعلى من الثمن الذي ختمته لها .

كانوا جميعاً من التجار الشرفاء الذين استثمروا أموالهم في بغاء تلك المرأة النعسة . . وربحوا من التعامل معها أكثر من مائة في المائة . . ثم أزعجوها في ساعاتها الأخيرة بالمطالبة بديونهم المرصومة . . وقد جاءوا الساعة بعد موتها لجني ثمار مضاربتهم الشريفة وتحصيل فائدة أموالهم التي استردوا قيمتها مراراً وتكراراً ! فما أحكم أولئك الأقدمين الذين كانوا ينسبون طغمة التجار إلى فصيلة اللصوص !!

بيعت الثياب والحلي وأدوات الزيت بسرعة مذهشة . . ولم يكن في هذه الأشياء ما يهمني الحصول عليه . . فانتظرت صابراً . . إلى أن صاح الدلال :

.. ها هي نسخة من كتاب «ماتون ليسكو» مجلدة تجليداً فاخراً أيضاً . . وفي صفحته الأولى بضع كلمات . . والثمن الأساسي المحدد عشرة فرنكات . .

فقال قائل بعد صمت طويل :

.. اثنا عشر فرنكاً .

فقلت :

.. خمسة عشر فرنكاً .

ولا أدري لماذا أردت الحصول على هذا الكتاب . . ربما كانت الكلمات التي في صفحته الأولى هي ما أغرائني بشراؤه .
وصاح الدلال :

.. خمسة عشر فرنكاً . .

فقال الرجل الذي تقدم أولاً لشراؤه :

.. ثلاثون فرنكاً .

وكان صوته يتم عن التحدي فصاحت :

.. أربعون . .

.. خمسون .

.. ستون . .

.. سبعون .

فصرخت بعزم :

.. مائة فرنك .

وساد صمت عميق . . ونظر إليّ القوم في فضول . . ولا ريب أن لهجتي قد أفتت منافسي بأنني عازم على الحصول على هذا الكتاب مهما كان الثمن . . فأحس قامة باحترام وقال :

.. إنه لك يا سيدي .

وهكذا أصبح الكتاب من حقي .

ثم أشققت أن تسوقني حرارة المنافسة على شراء سواء إلى مثل هذا الإسراف . . فتركت عنواني للدلال وانصرفت . . دون أن ألقى نظرة أخرى على القوم لمعرفة مدى التأثير الذي تركه في نفوسهم إقدامي على دفع مائة فرنك ثمناً لكتاب أستطيع إتياعه من أية مكتبة يمشي هذا الثمن الباهظ .

وبعد ساعتين أرسلت في طلب الكتاب . . وتصفحته . . ووقع بصري في الصفحة الأولى على هذا الإهداء مكتوباً بخط أتيق :

«مانون تقدم خضوعها لمرغريت»

التوقيع

أرمان ديغال

وسألت نفسي .. ما معنى كلمة «خضوعها» !!

هل رأى السيد أرمان ديغال أن مرغريت تفوق مانون في وجوه
الغواية والعبث حتى لتقدم إليها مانون فروض الخضوع؟!
أم رأى أنها تفوقها في شدة الحساسية .. وتبل العاطفة ..
فاستحقت منها هذا الخضوع تقدمه إليها؟

كان الافتراض الثاني أقرب إلى الاحتمال .. أما الافتراض الأول
فإنه لزم لا يمكن أن تكون مرغريت قد سمحت به .

وشغلتني شؤوني الخاصة بعد ذلك عن الخوض في هذا
الموضوع .. ورحلت عن باريس .

ولكنني قرأت كتاب «مانون ليسكو» للمرة الثانية ، حتى صار
يخيّل إلي أنني قابلت هذه المرأة شخصياً ، وعرفتها حق المعرفة ،
وشعرت بما هنالك من وجوه الشبه بين مصير مانون وخاتمة
مرغريت ، وأحسّت عندها بالشغقة ، بل وبالعطف على الفتاة
التي أخذت هذا الكتاب من مخطّاتها .

وقصة مانون - كما وصفها الأب بريفو - هي قصة خالدة لفتاة
حسناء أحببت شاباً يدعى الشيفالييه دي جريو ، ثم كان من ولع
الفتاة بمظاهر الشرف والتعظيم ، وإدقاق الشاب وفقره ، ما حمل
العاشقين على ابتزاز المال من نبيل فاسق وقع في حبال مانون ، ثم

شعر النبيل بما دبراه فاستخدم نفوذه حتى أبعده مانون إلى أميركا ،
حيث كانت ترسل البغايا والساقطات ، وهناك ماتت الفتاة النعسة في
الصحراء من شدة البرد والتعب ..

قرأت هذه القصة مراراً كما أسلفت .. ولم أقالك من المقارنة بين
مصير مانون تلك ونهاية مرغريت هذه .

لقد ماتت مانون في الصحراء حقاً .. غير أنها ماتت بين ذراعي
الرجل الذي أحبها بكل جوارحه .. فحفر يوم قفص قبرها بيديه ..
وأرواه بدموعه .. ثم دفنها .. ودفن قلبه معها .

أما مرغريت .. وهي خاطئة ضالة مثل مانون - ولعلها اعتدت
أخيراً كما اعتدت مانون - فإنها ماتت وسط التعظيم .. وفي مثل
الغرفة نفسها التي كانت هيكلًا لفجورها .. ولكنها ماتت وقلبيها في
صحراء أشد خواءً وإجذاباً من الصحراء التي ضمت جثمان مانون .

والواقع أن مرغريت - كما علمت نحن يعرفونها - لم نجد من
يسمعها كلمة عزاء أو سلوان طيلة الشهرين اللذين قضتهما في
فراش المرض قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

وتحوّلت أفكارى وتأملائي عن مانون .. وعن مرغريت .. إلى
فتيات أعرفهن .. وما زلت أراهن سرعات دون اكتشافات .. وعن
مغمضات العيون .. وعلى شفاههن ابتسامة - أو أغنية - في الطريق
إلى موت محقق محفوف بالنعامة والوحدة .

فما أشقى أولئك المخلوقات؟! إنهن محرومات من الحب والعطف
على السواء .

إننا نشفق على الأعمى الذي لم ير ضوء النهار قط . . ونشفق على الأصم الذي لم يسمع أنغام الطبيعة مطلقاً . . ونشفق على الأبله الذي لم يعبر عن إحساساته ومشاعره لحظة . . ولكننا ممنوعون - بحكم التقاليد الجائرة الجوفاء - من أن نشفق على عمى القلب . . وصمم الروح . . وجمود الضمير . . تلك العاهات التي تذهب بألياب هذه المخلوقات النعمة . . وتعمي بصائرهم عن الفضائل الإنسانية . . وتصم آذانهم عن سماع كلام الله . . وتعمق الستن عن النطق باللغة الطاهرة النقية . . لغة الإيمان والحب الصحيح .

لقد ابتكر فكتور هوغو شخصية «ماريون ديلورم» . . وصور دوماً شخصية بورتريت . . وتكلم دوماً عن «فرناندا» . . ولم يبخل المفكرون والشعراء في الأجيال السابقة بالعطف على هذه الطبقة النعمة من النساء . وحدث في كل زمان ومكان أن بعض العظماء ردوا بعضهم إلى سواء السبيل . . وذلك بأن أوقفوا عليهم عطفهم ورعايتهم . . بل وأعطوهم كذلك أسماءهم وألقابهم .

وإذا كنت أطيل الكتابة في هذا الموضوع . . فلأن كثيرين . . ممن سيقع هذا الكتاب بين أيديهم . . سوف يقرأون صفحاته الأولى ثم لا يترددون في إلقائه بعيداً على اعتبار أنه كتاب يشجع على الرذيلة . . ويسوء البغاء . . ولكن ما أبعد ظنوتهم عن الصواب . . فليتمسك هؤلاء في القراءة دون خوف أو وجل .

إنني على اعتقاد تام بأن المرأة التي لا يفتح التعليم عينها إلى

الطريق القويم . . تدفع بها الأقدار في غالب الأحيان إلى طريقين . . طريق الحب وطريق الألم . . وهما طريقان شديداً الوعرة تسلكهما السالكات بأقدام دامية . . وأبد جريحة . . ولكنهن يتركن أوسمة الرذيلة على أشواك الطريق . . ويصلن إلى نهاية الرحلة في حالة من الغري لا تخجلهن في نظر خالق الأنوان .

فعلى الذين يصادفون أولئك السالكات المقدمات أن يسطوا إليهن يد المساعدة . . وأن يذيعوا على الملأ أنهم صادفوهن . . فإنهم بإذاعة هذه الحقيقة يرشدون الأخريات إلى الصراط المستقيم .

وهل يكفي أن تضع على طريقي الحياة لوحتين مكتوب عليهما «هذا طريق الخير» و«هذا طريق الشر» . . ثم نقول لعابر السبيل «اختر لنفسك ما يحلو لك» ؟ لا . . بل يجب أن تهدي العابرين الذين ضلوا وانخدعوا إلى المسالك التي توصل من الطريق الثاني إلى الطريق الأول . . وأن تعمل خصيصاً على تيسير هذه المسالك وإزالة العقبات منها وإليها .

لقد كان السيد المسيح ينفذ أشد العطف على النفوس التي أدمتها الشهوات الدنيوية . . وكان يشفي هذه الجروح بيلم من صديدها . . أفلم يقل لمريم المجدلية «سيفر لك الكثير لأنك أحبيت كثيراً» ؟ فلماذا نأخذ بتقاليد هذا المجتمع الذي يشتد ويقسو لكي يبدو قوياً ؟ ولماذا نتنكر لهذه النفوس الدامية التي يمكن تطهيرها من صديد الماضي ولا تحتاج جراحتها إلا إلى لمسة واحدة من يد كريمة فترا وتندمل ؟ !

إن جهود المفكرين جميعاً تقضي إلى هدف واحد . . وأقذاذ العقول جميعاً يهتدون بمبدأ واحد . . ويسعون إلى غرض واحد . .

فهم يقولون : فلنأخذ بأسباب الفضيلة .. ولكن صادقين .. وأهم من ذلك كله .. يجب ألا نياس من النوع البشري .. ولنكف عن احتقار المرأة التي ليست أمًا ولا أختًا .. ولا ابنة ولا زوجة .. ثم دعونا لا نوقف كل احترامنا على عائلتنا .. أو نتمد عطفنا من أنانيتنا .. ولنترك في طريق الحياة آثار رفقا بأولئك الذين ضلوا سواء السبيل .

ولا شك أنه من الجراءة أن أنتظر من هذا الكتاب الصغير أن يحيي كل هذه الفضائل .. ولكنتي من أولئك الذين يعتقدون بأن الشيء الصغير يحمل نطفة الشيء الكبير : فالطفل صغير .. ولكنه نواة الرجل .. والعين كرة صغيرة .. ولكنها تحيط بقضاء الكون الشاسع .

الفصل الرابع

دام البيع يومين وحصل مبلغاً لا يقل عن مائة وخمسين ألف فرنك لقتسم الدائون ثلثيها .. وانتهى الثلث الباقي إلى أخت مرغريت بصفتها وريثتها الوحيدة .

وقد فتحت الأخت عينها في دهشة حين كتب إليها مسجل العقود ينبتها بأنها ورثت خمسين ألف فرنك .

وكانت مضت سبعة أعوام لم تسمع هذه الأخت شيئاً عن مرغريت التي اختفت فجأة في أحد الأيام وانقطعت أخبارها عن أهلها وعن سائر معارفها فلم يلبثهم شيء عن حياتها منذ اختفت .

ودُعيت الأخت إلى باريس لتسلم الميراث ، ولشد ما كانت دهشة أصدقائه مرغريت حين أبصروا في أختها فتاة ريفية ساذجة يديّة

الجسم موزدة الوجنتين .. لم يسبق لها قط أن برحت مسقط رأسها . وقد عادت هذه الأخت إلى قريتها على الأمر .. ولم يخف من حزنها على شقيقتها إلا شعورها بالمبلغ العاطل الذي يملأ جيوبها .

ورددت باريس - عاصمة الفضايح - هذه الحقائق الأخيرة عن مرغريت وأختها .. ثم بدأت تسدل ستار النسيان على الغاية التي كانت في وقت ما ملء العيون .. وكان اسمها ملء الأفواه .. وسمعتها ملء الأسماع .

وأوشكت بدوري أن أنسى .. ولكن حدث فجأة حادث جديد حمل إليّ تاريخ مرغريت كله .. بما فيه من تفصيلات مؤثرة أوحى إليّ أن أسجل قصتها المؤلمة بتمامها ف سجلتها .

في صباح أحد الأيام .. سمعت طرقاتاً على باب شقتي .. فذهبت الخادم إلى الباب .. وعاد يحمل إليّ بطاقة ويقول إن صاحبها يرغب في التحدث إليّ .

نظرت إلى البطاقة فوجدت فيها هذا الاسم :

أرمان ديفال

وحاولت أن أذكر أين قرأت هذا الاسم من قبل .. وسرعان ما تذكرت الصفحة الأولى من كتاب «ماتون ليكو» .

وتساءلت .. ترى ماذا يريد مني هذا الرجل الذي أهدى نسخة الكتاب إلى مرغريت ؟

وأمرت الخادم أن يدعوه للدخول .

وما هي إلا لحظة حتى دخل عليّ شاب طويل القامة شديد

امتقاع الوجه ، يرتدي ثوب سفر أدركت من الغبار الذي يعلوه أن صاحبه لم يستبدله منذ بضعة أيام ، بل ولم يفكر في رفع الغبار عنه منذ وصوله إلى باريس .

ولم يحاول السيد ديهال إخفاء تأثره وانفعاله ، فقال والدعوى تحلاً عينه :

- سيدي .. أرجو المعذرة عن تطفلي بزيارتك في هذه الثياب الرثة .. فإن رغبتي في مقابلتك بأسرع ما يمكن جعلتني أضن بقضاء بعض الوقت في الفندق الذي احتجزت فيه غرفة لإقامتي في باريس .. وقد جئت إلى هنا مباشرة .. لألحق بك قبل أن تبرح بيتك .

فخرجته أن يجلس بالقرب من الموقد .. فجلس . وأخرج من جيبه متديلاً جفّف به عينه .

قال وهو يتشم بأسي :

- لا شك أنك لا تستطيع أن تدرك لماذا يأتي رجل غريب فيطلب مقابلتك في مثل هذه الساعة المبكرة .. وهو يرتدي مثل هذا الثوب .. ويكي بكاء الأطفال . ولكنني رجل مسحوق الحزن يا سيدي .. وقد جئت أطلب خدمة عظيمة على يديك .

- تكلم بحق السماء يا سيدي ! واعلم أنني سأكون سعيداً إذا استطعت أن أخدمك .

- أعتقد أنك شهدت بيع مخلفات مرغريت جوتييه .

واشتدّ به التأثر والانفعال عندما ذكر هذا الاسم .. فأخفى وجهه بين كفيه وانفجر باكياً .

ثم استطرّد :

- أخشى أن يبدو سلوكي في عينيك مدعاة للسخرية .. ولكنني أرجو مغفرتك .. وأؤكد لك أنني لن أنسى ما حييت سعة صدرك وعنايتك بالإصغاء إليّ .

فأجبت وأنا أشعر بإشفاق حقيقي على هذا الشاب الحزين :

- سيدي .. إذا كان من شأن الخدمة التي تعتقد أنني أستطيع تقديمها أن تخفّف من حزنك وألمك .. فأرجو أن تذكرها في الحال .. وسيكون من دواعي سروري أن أجيبك إلى ما تطلب .

فسأل :

- هل ابتعت شيئاً من مخلفات مرغريت جوتييه؟

- نعم .. لقد ابتعت كتاباً .

- كتاب «مانون ليسكو»؟

- هو ذاك .

- وهل ما زلت تحتفظ بهذا الكتاب؟

- إنه في غرفة نومي .

فبذت على وجهه أمارات الارتياح .. وراح يشكرني كما لو كان احتفاظي بهذا الكتاب هو الخدمة التي جاء يطلبها .

ونَهَضْتُ إلى مخدعي .. وجئت بالكتاب ووضعت بين يديه . فقال بعد أن ألقى نظرة على الصفحة الأولى :

- نعم .. نعم هذا هو الكتاب .

وانحدرت من عينه دمعان كبيرتان سقطتا على تلك الصفحة . ثم رفع رأسه .. وقال دون أن يحاول إخفاء الدمع الذي يترقرق في عينه :

- أرجو أن تبني يا سيدي .. هل تعلق أهمية خاصة على هذا الكتاب؟ !

- ولم هذا السؤال؟

- لأنني أريد أن أرجوك في أن تسمح لي به .

فأجبت بدهش :

- معذرة عن فضولي يا سيدي .. ولكن هل أنت الذي أعدت هذا الكتاب إلى مرغريت جوتييه؟

- نعم .

- إذًا فالكتاب لك يا سيدي .. فخذ وأنا سعيد بأن أردّه إليك .

فقال في شيء من الحيرة :

- ولكن يجب أن تسمح لي على الأقل بأن أرد إليك الثمن الذي دفعته للحصول عليه .

- أرجوك أن تقبل الكتاب مني يا سيدي .. أمّا ثمنه فكان من النفاة بحيث لا أستطيع الآن أن أذكره .

- إنك دفعت مائة من الفرنكات ثمنًا يا سيدي .

فملكنتي الحيرة بدوري وأجبت :

- هذا صحيح .. ولكن كيف علمت؟!

- الأمر بسيط ، فإني كنت أرجو الوصول إلى باريس في الوقت المناسب قبل المزداد العلني .. ولكنني في الواقع لم أصل إلا هذا الصباح .. ولما كنت مصممًا على الحصول على شيء من مخلفاتها .. فإني أسرعرت إلى الدلائل وطلبت إليه أن يسمح لي بالأطلاع على قائمة الأشياء التي بيعت وأسماء الأشخاص التي ابتاعوها .. ووجدت أنك الذي اشتريت هذا الكتاب . فقررت أن أرجوك في النزول عنه لي .. وإن يكن الثمن الذي دفعته قد أوقع في روعي أنك لا بد تعلق على الكتاب أهمية شخصية قد يمنعك

من التخليط فيه .

وفهمت من هذه العبارة الأخيرة أنه يخشى أن أكون قد عرفت مرغريت كما كان هو يعرفها . فأجبت لكي أزيل شكوكه :

- أنا لم أعرف الآنسة جوتييه إلا شكلاً .. واسمًا .. وقد ترك موتها في نفسي الأثر الذي يتركه عادة موت الصبية الحسنة في نفس شاب اعتاد أن يعجب بجمالها وقتتها .. ولذلك رغبت في شراء شيء من أمتعتها .. ووقع اختياري .. ولا أعلم السبب .. على هذا الكتاب .. ودفعت فيه هذا الثمن على سبيل العناد تحديًا لمنافس كان يريد الحصول عليه أيضًا .

والكتاب .. كما قلت .. تحت تصرفك .. فأرجوك في قبوله عربونًا لصداقة أتمنى أن تتوثق أواصرها بيننا في المستقبل .

فأجاب أرمان وهو يشد على يدي :

- فليكن ذلك يا سيدي .. إنني أقبل هذا العربون .. وسأذكر

فضلك وكرمك ما حيت .

وكنت وددت لو ألقي عليه بضعة أسئلة عن مرغريت .. لأن الكتاب الذي أهداه إليها .. واهتمامه بالحصول على شيء من مخلفاتها .. كل ذلك أثار فضولي . ولكنني خفت أن ألحف عليه في السؤال فيعتقد أنني رفضت ثمن الكتاب لاستيبح لنفسني الحق في التطفل على شؤونه اعتمادًا على وفاته وامتنانه لي .

وأكبر ظني أنه أدرك ما يدور بخلفي ، لأنه قال :

- هل قرأت هذا الكتاب يا سيدي؟

- بل قرأته أكثر من مرة .

- وما قولك حقاً في الكلمات التي كتبها في الصفحة الأولى؟

- إنني فهمت لأول وهلة أنك لمست في تلك الفتاة التعسة ما يرقى بها فوق مستوى طبقتها .. ولم يخطر ببالني قط أنك قصدت بهذه العبارة شيئاً من الهزم والسخرية بها .

- أصبت يا سيدي .. هو ذاك .. فقد كانت هذه الفتاة ملاكاً كريماً .. إليك هذه الرسالة فافرحها .

وقدم إليّ رسالة تدل أطرافها على أنها نشرت وطويت آلاف المرات .. فبسطت الرسالة بين يدي .. وقرأت فيها ما يلي :

«عزيزي أرمان .

تسلمت رسالتك .. وأحمد الله على أنك لا تزال كريماً كمهدي بك من اهتمامك بأمرى .. يرفقه كثيراً من الآلمي .. ولكم أود لو تمتد بي الأجل حتى أسعد مرة أخرى بضغط اليد الكريمة التي كتبت الرسالة التي تسلمتها في التو واللحظة .. وكتبته بلغة تكفي في ذاتها لشغائي .. إن كان لعلمي دواء يشفيها .

«ولكن لا أمل لي في لقائك مرة أخرى .. لأنني أقرب ما أكون إلى حنفي .. وبينك ومئات المراحل .

«يا صديقي المسكين .. إن مرغريت التي عرفتها في ما مضى قد تبدلت تبديلاً محزناً .. وربما كان من الخير ألا تراها أبداً .. فذلك أفضل من أن تراها كما هي عليه الآن .

«تسألني أن أصفح عنك .. واني لأصفح عن طيب خاطر .. فإنّ ما أصابني من عصفك لم يكن إلاّ دليلاً على فوط حيك .

«إنني الأزم الغراش منذ شهر .. وأستقطع بعض الوقت في كل يوم على كتابة يومياتي منذ افترقا ، وسأواصل الكتابة حتى أعجز

عن حمل القلم .

«فإذا كان يهيك أمرى حقاً يا أرمان ، فاقصد إلى جوليا ديبار عقب عودتك إلى باريس .. فتقدّم إليك هذه اليوميات ومنها تعلم سرّ تحوّلتي عنك وأسبابه .

«ومنى انتهت إليك يومياتي فلا تشكرني عليها .. فإنّ كتابتها كانت تذكّرني يوماً ياهنا ساعات حياتي ، فترفع الذكري من آلمي ، وبحسبك أن تجد فيها ما يسوّغ سلوكي ، وبحسبي أنني وجدت في كتابتها ترفيحاً وسلوى .

«ولقد كنت أود أن أترك لك شيئاً من متاعي تذكّرني به .. ولكن كل أمتعتي قد حجزت .. وأصبحت لا أملك شيئاً حتى الثياب التي أرتديها .

«هل تفهمني يا صديقي؟؟

«إنني أدنو من الموت ، وأسمع وأنا طريحة الفراش وقع خطوات الرجل الذي أقامه الدائنون في بيتي لحراسة أمتعتي حتى لا يُنقل منها شيء ، وحتى لا يبقى لي شيء إذا حدث ونجوت من الموت .

«على أنّ كل ما أرجوه هو أن يرجئوا البيع قليلاً حتى يقضي الله فيّ بقضائه ..

«إنّ هؤلاء الناس لا رحمة في قلوبهم .. ولكن لا .. هذه عدالة السماء التي لا تُمهّل ولا تهمل ..

«وإذا ، لم يبق لك يا صديقي ، إلاّ أن تشهد البيع وتشتري بنفسك شيئاً من متاعي .. فإنني إذا خيأت لك شيئاً مهما كان تافهاً ثم اكتشف فقد لا يتردد القوم في اتهامك بالاستيلاء على شيء محجوز .

«أواه .. ما أتمس هذه الحياة التي أوشك على الخروج منها !

وكم أود لو تترفق السماء فتسمح لي بأن أراك مرة أخرى قبل أن
أموت ! ولكنني أرجح أنه يتوجب عليّ الآن أن أودعك .. فضعوا يا
صديقي إذا كنت لا أظن الكتابة إليك .. فإن المرض هدد قواي ..
وأصابني عاجزة عن توجيه القلم .

مرطريت جوتييه

والواقع .. أن الكلمات الأخيرة من الرسالة كانت مضطربة لا
تكاد تقرأ ..

وردت الرسالة إلى أرماء .. ولا شك أنه كان يستعيد مضمونها
في ذاكرته بينما كنت أقرأها .. لأنه قال وهو يسردّها :
- من ذا الذي يصدق أنّ كاتبة هذه الرسالة تنتمي إلى تلك الطبقة
من النساء ؟؟

وأمضت مرارة الذكرى .. فنظر إلى الرسالة طويلاً .. ثم رفعها
إلى شفتيه .

واستطرد :

- كلما فكرت في أنها ماتت دون أن أراها .. وفي أنني لن أراها
أبداً مرة أخرى .. وكلما فكرت في أنها قد فعلت من أجلي أكثر مما
تفعل الأخت من أجل أخيها .. كلما فكرت في ذلك شعرت بأنني
لن أغفر لنفسي أنني تركتها يموت هكذا ..

نعم .. لقد ماتت .. ماتت وهي تفكر في .. وتكتب إلي ..
وتردد اسمي .. فيا لها من فتاة مسكينة !

ودفن وجهه بين يديه وبقي كذلك لحظة ثم استطرد :

- قد يعيب عليّ الناس أن أندب موت فتاة كمرطريت .. ولكن
الناس لا يعلمون كم تألمت لأجلي .. وكم قسوت عليها
فصفت .. وظلمتها فأذهنت ..

كنت أظن أنني الذي يجب أن يغفر ويصفح .. أمّا الآن فأرى
أنني لست جديراً بعفوها وصفحها .

أولاً .. إنني أنزل عن عشرة أعوام من حياتي لأبكي ساعة تحت
قدميها .

شعرت بالشفقة والعطف على هذا الشاب الذي كشف لي آلامه
وأحزانه بهذه الصراحة .. فقلت له :

- أليس لك أقارب أو أصدقاء؟ اذهب لزيارتهم يا صديقي فقد
يلطف لقاءهم بعض ما بك .. أمّا أنا فلا أستطيع إلا الرثاء لك
والإشفاق عليك لما أنت فيه .

فقال وهو ينهض واقفاً ويسير في الغرفة جيئة وذهاباً :

- صدقت .. إنني أضايقك .. فمعذرة إذا كنت قد تسببت أن
آلامي وأحزاني لا تهلك إلا قليلاً يا سيدي .

- أنت تسيء فهم كلامي .. فما أردت منه إلا التعبير عن أسفي
لعجزتي عن تلطيف حزنك ومواساتك .

ولكن إذا كانت صحتي .. أو صحة أصدقائي .. ترقه من
آلامك .. أو كان في استطاعتي أن أقدم إليك أية خدمة من أي
نوع .. فثق أنه يسرني أن أفعل من أجلك ما تريد .

فأجاب بعينين حزينتين :

- إن الحزن المبرح يرهف الشعور ويضاعف الحساسية .. فاسمح

الفصل الخامس

انقضت فترة من الزمن لم أسمع في خلالها شيئاً عن أرميا . .
في حين سمعت الكثير عن مرغريت . . والواقع أنه يحدث في
بعض الأحيان أنك لا تكاد تسمع اسم شخص لا تعرفه أو لا يهمك
أمره حتى تبدأ المعلومات تتجمع من تلقاء نفسها حول هذا الاسم . .
وحتى تجد فجأة أن أصدقاءك يرددون هذا الاسم ويتحدثون عن
صاحبه . . وهم الذين لم يتحدثوا عنه ولم يذكروه على مسمع منك
من قبل . . وحينئذ تدرك أنه سبق لك أن رأيت صاحب الاسم
واجتمعت به مراراً دون أن تلاحظ ذلك .

على أن ذلك لم يكن شأني فيما يختص بمرغريت . . فقد سبق
أن رأيت هذه الفتاة وقابلتها . . غير أن اسمها طرق مسمعي مراراً منذ
يوم بيع أثاث بيتها . . وكان في بعض الأحيان - كما حدث في
المناسبة التي سردتها في الفصل السابق - ممزوجاً بكثير من اللوعة
والأسى ، فثارت دهشتي . . وشعرت بفضول شديد إلى معرفة المزيد
من أمر هذه المرأة التي خُيِّلَ إليَّ أنها ليست كسائر النساء في
طبيعتها .

وكانت النتيجة أنني قابلت واحداً من أصدقائي الذين لم أتحدث
إليهم قط عن مرغريت . . وفار بيني وبينه الحديث التالي :

- هل كنت تعرف مرغريت جوتيه؟

- عادة الكاميليا؟

- نعم هي من أفصد .

- كنت أعرفها حتى المعرفة .

لي بالبقاء هنا بضع دقائق حتى تحفّ ذموعي . . لكيلا يقول
الفضوليون في الطريق إنهم شاهدوا طفلاً كبيراً يبكي .

لقد أدبت لي خدمة جلييلة بإعطائي هذا الكتاب . . ولست أعرف
كيف أستطيع أن أعبر لك عن خالص شكري وامتناني .
فأجبت :

- بل تستطيع ذلك ، بأن تشرّفني بصدافتك وتحديثي بأسباب
حزنك والملك . . فالإنسان يجد كثيراً من العزاء في البوح بالآلامه
ومتاعيه .

قال :

- هذا صحيح . . ولكني الآن متعب شاعر القوى . . وأخشى ألا
تسمع مني كلاماً مفهوماً . . على أنك ستعرف قصتي في أحد
الأيام . . وترى إن كان يحق لي أن أحزن على تلك الفتاة المسكينة .
أما الآن . . فأرجوك أن تقول لي إنني لم أثقل عليك . . وإنك
تسمح لي بزيارتك مرة ثانية .

قال ذلك وفي عينيه نظرة رقيقة حيته إليّ .

ثم تلبّدت عيناه بسحب الدموع وأشاح بوجهه .

قلت له بصوت خافت :

- تشجّع يا صديقي . . وخفّف عنك .

فودّعني ومشى إلى الباب . . وانسلّ منه على عجل .

وحركت ستار نافذتي . . ونظرت إلى الشارع . . فرأيتني يمشي إلى
مركبة كانت في انتظاره . . وما كادت المركبة تتحرك به . . حتى دفن
وجهه في منديله . . وانفجر باكياً .

وكانت عبارة «حق المعرفة» تقترون دائماً بابتسامة لا يخفى مغزاها . .

- حسناً . . وماذا تعرف عنها؟

- كانت من بنات الهوى

- هل هذا كل ما تعرفه؟!

- يا إلهي . . نعم . . وأعرف كذلك أنها تختلف عن مثيلاتها بخفة روحها وشدّة حساسيتها .

- ألا تعرف عنها شيئاً تختصّ به عن غيرها؟

- نعم . . أعرف أنها كانت سبياً في إفلاس البارون دي جـ . . .

- فقط؟!

- وكانت عشيقّة شيخ هرم هو الدوق دي بـ . . .

- هل كانت عشيقته حقاً؟

- قيل هذا . . ومهما يكن من أمر فقد نفحها مبالغ جسيمة .

وهكذا لم أكن أسمع دائماً غير الحقائق المطلقة بصفة خاصة . . والمعلومات الشائعة التي تلوّكها الألسن عن المستهترات بصفة عامة . بيد أنني كنت أتوق إلى معرفة شيء متحقق عن الفصلة بين مرغريت وأرمان ديغال . وذات يوم قابلت رجلاً يعرف الكثير من أمور النساء ذوات المكانة البارزة في أوساط اللهو والعبث . . فسألته إن كان قد عرف مرغريت جنوبيه فأجاب «حق المعرفة» .

وسألته :

- من أي نوع من النساء كانت مرغريت؟

أجاب :

- كانت حسنة طيبة القلب . . وقد أسفت لموتها أشد الأسف .

- هل كان لها عشيق يدعى أرمان ديغال؟

- أهو شاب طويل أشقر؟

- نعم .

- كان عشيقها حقاً .

- وماذا تعرف عن هذا الشاب؟

- أظن أن هذا الشاب قد أتفق على مرغريت كل ثروته الضئيلة ثم اضطر إلى هجرها . . ويقال إنه كان يحبها حب جنون .

- وهي . . هل كانت تحبه؟

- الظاهر أنها كانت تعطف عليه . . ولكنك تعرف معنى العطف عند هذا الطراز من النساء .

- وماذا صار إليه أمر أرمان؟

- لا أعلم بالضبط . . فقد كانت معرفتي به محدودة . . واعتقد أنه قضى مع مرغريت خمسة أو ستة شهور في الضواحي . .

ولكنهما افترقا عندما عادت إلى باريس .

- ألم تره منذ ذلك العهد؟

- كلا .

وأنا بدوري لم أر هذا الشاب بعد زيارته لي . . فقلت لنفسي إنه جاء لزيارتي مباشرة بعد أن علم بنيا موت مرغريت . . أفلا يمكن أن يكون هذا النيا قد أحيا غرامه القديم . . وأثار بالتالي حزنه ويأسه؟! فلما مرّت الفورة الأولى غمد غرامه وتلاشى حزنه وانمحت صورة مرغريت من قلبه فسيها ونسي تبعاً لذلك وعده بأن يأتي لزيارتي مرة ثانية!؟

كان هذا الافتراض محتملاً بصفة عامة .. ولكنني لم أستطع أن أنكر أنني لمست في حزنه شيئاً كثيراً من الإخلاص والصدق .. حتى خطر لي أن يأسه وحزنه ربما انقلباً إلى مرض .. وأن انقطاع أخباره ربما كان دليلاً على شدة مرضه .. أو هلاكه .

•

وشعرت على الرغم مني بأن أمر هذا الشاب يهمني .. ولعله اهتمام لا يخلو من الخشيرة والفضول إلى معرفة سرّ صمته واختفائه .

وأخيراً .. ولما لم يأت أرمان ديفال لزيارتي .. قرّرت أن أذهب أنا لزيارته .. ولم يكن من المتعذر عليّ التماس سبب لهذه الزيارة .. ولكن من سوء حظي أنني لم أكن أعرف عنوانه ولم أجده بين أصدقائي من يرشدني إلى مكان إقامته .

قصدت إلى بيت مرغريت في شارع دانتان .. فقد يعرف بواب البيت هناك عنوان أرمان ... ولكنني وجدت هناك بواباً جديداً لم يسمع قط باسم أرمان ديفال .

واستفسرت عن المكان الذي يوجد فيه قبر مرغريت .. فعلمت أنها دفنت في مونغارتر .

كنا وقتئذ في شهر نيسان/ أبريل .. والجو بديع .. وقد خلعت المقابر عنها وحشة الشتاء .. وصار الدفن يفرى الأحياء بزيارة الأموات . فقصدت إلى مدافن مونغارتر وأنا مقتنع بأن نظرة واحدة إلى قبر مرغريت تكفي للدلالة على مبلغ آسى أرمان .. لأنني قد أعرف من حارس المقبرة ما صار إليه أمر هذا الشاب .

ودخلت غرفة الحارس وسألته عما إذا كانت فتاة تدعى مرغريت

جوتتييه قد دفنت في تلك المقبرة في يوم ٢٢ شباط/ فبراير .. فبحث الحارس في دفتر كبير يتضمن أسماء أولئك الذين انتهى بهم المطاف إلى مدافن مونغارتر .. ثم أجابني بأن هناك حقاً صبية بهذا الاسم قد ووريت الثرى في مونغارتر في ذلك اليوم .

ورجوته أن يرشدني إلى قبرها .. لأن الإنسان لا يستطيع بغير دليل أن يعرف طريقه في مدينة الموتى .. وإن تكن لها مسالك وشوارع كمدن الأحياء .

دعا الحارس بستاني المدفن .. وذكر له مكان القبر .. وأمره أن يذهب بي إليه ..

قال البستاني وهو يرافقني :

- ليس أسهل من الاعتناء إلى هذا القبر ..

- لماذا؟

- لأنه مزين بأزهار تختلف عن أزهار سائر القبور .

- لعلك أنت الذي تعنى بأزهاره؟

- نعم يا سيدي .. وكم أود أن يعنى الناس بموتاهم كما يعنى

الشاب الذي عهد إليّ العناية بهذا القبر .

ويعد أن اجتاز بي بعض المسالك .. وقف وقال :

- هو ذا القبر يا سيدي .

ورأيت أمامي تلاً من الزهور البيضاء لا يظنه الإنسان قبراً لولا الشاهد الرخامي الذي يحمل اسم صاحبة القبر .

كانت جميع الزهور من نوع الكاميليا .

قال البستاني :

- ما قولك في هذه الزهور؟

- هذا بديع حقاً .

- وقد صدرت إليّ الأوامر بأن أستبدل زهور الكاميليا بسواها
كلما ذبلت . .

- ومن ذا الذي أصدر إليك هذه الأوامر؟

- شاب بكى بكاء مرّاً عندما جاء إلى هنا لأول مرة . . ولعله كان
من عشاق صاحبة القبر . . فقد قبل لي إنها كانت من بنات
الهمى . . وكانت عليّ جانب عظيم من الجمال والفتنة .

هل كنت تعرفها يا سيدي؟

- نعم . .

- هل كانت لك بها صلة مثل صلة ذلك الشاب؟

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى .

أجبت :

- كلا . . إنني لم أتحدث إليها قط .

- ومع ذلك تزور قبرها؟ ! ذلك منك غاية الكرم ونبل الخلق . .

فإن زائري قبر هذه المخلوقة المسكينة لا يملأون المدفن !

- هل تعني أن أحداً لا يزور هذا القبر؟

- لا أحد غير ذلك الشاب الذي حدثتك عنه ! وقد زاره مرة
واحدة لا غير .

- مرة واحدة فقط؟ !

- مرة واحدة فقط .

- ألم يأت بعد ذلك؟ !

- كلا . . ولكنني واثق أنه سيأتي متى عاد .

- لقد سافر إذاً؟ ! هل تعلم إلى أين ذهب؟

- أعتقد أنه ذهب لزيارة شقيقة الأتة مرغريت جوتيه .

- ولماذا بحق السماء؟ !

- ليرجوها أن ترخص له في إخراج الجثة ونقلها من هذا القبر .

- ولماذا يريد أن يفعل ذلك؟ !

- آه . . أنت تعلم يا سيدي أن للناس في الموتى عقائد عجيبة

غريبة . . ونحن هنا نشهد ذلك كل يوم . . وهذا القبر هنا استوجز
لمدة خمسة أعوام فقط . . ولكن الشاب الذي حدثتك عنه يريد
لصاحبه قبراً يخلد فيه جثمانها . . ويريد أن يكون القبر في مكان
فيح بالمدفن الجديد .

- أي مدفن جديد تعني؟

- ذاك الذي يُبنى الآن لصق هذا المدفن . . أصف إلى ذلك أن

لبعض الناس عقائد شاذة تحفز مثل هذا الشاب إلى نقل جثمان
صاحبه من هذا المكان . .

- ماذا تعني؟ !

- أعني أن بعض الناس لا يتركون صلفهم وكبرياءهم يباب

المدفن . . ولعلك تعلم أن هذه الأتة مرغريت جوتيه كانت من
أولئك النسوة اللاتي يعشن عيشة سريعة . . ويفترفن أكبر قدر من
لذات الحياة في أقل فشرة من الوقت . . والآن ، ها قد ماتت هذه
المسكينة . . ولم يبق منها غير ما بقي من سواها ممن لا تنالهم الألسنة
بالقيل والقال . . ولكن بعض الناس بل أكثر الناس يبرمون بوجود
جديتها بمقبرة من موتاهم . . ويقولون إن من عاش عيشتها يجب أن
يدفن بمقبرة خاصة . . بعيداً عن مقابر الشرفاء . فهل سمعت في
حياتك بمثل هذا يا سيدي؟ ! غير أنني أقيت عليهم درساً لن

ينسوه . . أولئك المنافقون الذين يسجلون على قبور موتاهم دموعاً لم يذرفوها . . ويزعمون العطف على موتاهم وهم لا يزورون قبورهم إلا مرة واحدة في كل عام .

صدقني يا سيدي أنني لم أعرف هذه الفتاة . . ولا أعرف ماذا فعلت في حياتها . . ولكنني مع ذلك أحبها وأعطف عليها وأعني بقبرها وأجلب لها أبداع زهور الكاميليا بأكل لمن يمكن .

إنَّ قبرها أحب القبور إلي . . ونحن خدام المدافن مرغمون على أن نحب الموتى لأنهم يملأون فراغنا . . وليس لدينا متسع من الوقت لكي نحب أحداً آخر .

•

وأحب أنني لست بحاجة إلى وصف الشعور الذي كان يعتمل في نفسي وأنا أصغي إلى حديث هذا البستاني المحبِّ الأمين . . ولا شك أن الرجل لاحظ انفعالي لأنه مضى يقول :

- يقولون إن كثيرين من الشباب جلبوا على أنفسهم العار والدمار من أجل هذه الفتاة ، وإنَّ بعض عشاقها كانوا يحيونها حب جنون ، ولكنني لا أقالك من الشعور بالأسى والإشفاق كلما فكرت في أن أحداً من هؤلاء العشاق الكثيرين لم يأت لزيارتها . . أو ليضع على قبرها زهرة واحدة !

ولكن لا . . إنها ليست بحاجة إلى الشفقة والرثاء من أحد . . بحسبها ذلك الشاب ، فإنَّ حزنه عليها يزيد على حزن سائر عشاقها مجتمعين ، وأجدر منها بالشفقة والرثاء فتيات على شاكلتها وفي مثل سنّها يُلقين هنا في المقبرة العامة مع المجهولين والمجرمين ولا يفكر فيهنَّ إنسان بعد دفنهنَّ .

لنَّ مهنتنا ليست من المهن السارة يا سيدي . . ولا سيما لرجل مثلي يعرف معنى الحزن .

إنَّ لي ابنة حستان في العشرين من عمرها . . وكلَّما جيء بفنّانة ميتة في مثل منها كلما انصرف ذهني إلى ابنتي وحزنت على الميتة مهما تكن مكانتها في المجتمع .

وصمعت الرجل لحظة ثم استطرد :

- أرى أنني أدخلت السأم على نفسك يا سيدي . . فإنك لم تأت بغير شك لكي تصني إلى حديث رجل مثلي .

لقد طلب إلي أن أرشدك إلى قبر الأتسة مرغريت جوتييه . . ها هوذا القبر . . فهل أستطيع أن أقدم إليك خدمة أخرى ؟ فسألته :

- هل تعرف عنوان السيد أرمان ديغال الشاب الذي زار قبر مرغريت ؟

- نعم يا سيدي . . إنني أعرف بيته . . أو على الأقل البيت الذي أذهب إليه للحصول على ثمن هذه الزهور التي تراها .

وذكر لي العنوان فشكرته . . وألقيت نظرة أخيرة على ذلك القبر الصغير المغلف بالزهور البيضاء . . ووددت لو أستطيع أن أفند ببصري إلى أعماقه لأرى ماذا فعل القبر البارد بالخلوقة الحسناء التي أودعت جوفه .

سألني البستاني :

- هل يرغب سيدي في مقابلة أرمان ديغال ؟

- نعم .

- لكنني واثق أنه لم يعد . . ولو عاد لبادر إلى مقابلتي .

- أنت مقتنع إذا بأنه لم ينس مرغريت ؟ !

- إنني لست مقتنعاً فحسب . بل إنني واثق كذلك من أنه لا يريد تغيير مكان قبرها إلا لأنه يريد أن يراها للمرة الأخيرة .
- وكيف ذلك ؟

- لقد كانت أول عبارة قالها لي عندما دخل هذا المدفن أنه سألني « كيف أستطيع أن أراها مرة أخرى ؟ ! » والإنسان يا سيدي لا يستطيع أن يرى الميت بعد دفنه إلا إذا نقل جثته من قبر إلى آخر . . . وقد قلت له ذلك . . . وأرشدته إلى ما يجب عمله . . . ولما كان من الضروري التحقق من الجثة قبل نقلها ، وكان لأسرة الميت وحدها حق المطالبة بنقل جثته ، فقد قصد السيد ديفال شقيقة الأكنة مرعرت جوتيه لكي يحصل منها على الترخيص اللازم . . . ويرجوها أن تنبيه عنها في الإشراف على نقل الجثة . . . ومنى تم له ذلك فإن أول شيء يفعله دون شك هو أن يأتي إلى هنا .

بلغنا في هذه اللحظة باب المدفن . . . فكررت شكري للبستاني ونفحته قطعة من النقود وقصدت إلى العنوان الذي ذكره لي .

هناك علمت أن أرمان لم يعد من رحلته بعد . فتركت له بطاقة رجوته فيها ألا يتخلف عن زيارتي عند عودته . . . أو أن يذكر لي على الأقل أين أستطيع مقابله . . .

وبعد يومين تسلمت رسالة منه ينيتي فيها يعودته . . . ويرجوني أن أذهب لزيارته لأنه متعب إلى أقصى حد . . . ولا يقوى على مغادرة فراشه .

الفصل السادس

وجدت أرمان كما ذكر لي في فراشه . . . فبسط يده إلي

مصافحاً . . . وشعرت بيده تكاد تثتیب .
قلت له :

- أنت محموم يا صديقي !

فأجاب :

- ليس بي من شيء . . . إلا التعب جراء رحلتي السريعة .

- هل قابلت أخت مرعرت ؟

- نعم . . . ولكن من أنباك بذلك ؟

- إنني أعلم . . . وهل حصلت منها على الترخيص المطلوب ؟

- نعم . . . ولكن أسألك مرة أخرى : من ذا الذي أنباك بأمر

رحلتي والغرض منها ؟

- بستانى المدفن .

- هل رأيت القبر ؟

- فلم أجسر على الإجابة .

كانت نبضات صوته تدل على أنه لا يزال نوبة الحزن الذي رأيت أعراضه عندما قابلته أول مرة . . . فكل حديث في هذا الموضوع الحزن من شأنه أن يزيد ألمه ووجسه . . . لذلك تنعت بأن أحنيت رأسي علامة الإيجاب .

سألني :

- هل اعتنى البستاني بالقبر ؟

- كل العناية .

وهنا اتحدت على عهده دمعتان كبيرتان . . . فأشاح بوجهه ليخفيهما . . . وتظاهرت من ناحيتي بأنني لم أر دمه . . . وحاولت أن أغير مجرى الحديث . . . قلت :

- لقد انقضت ثلاثة أسابيع منذ رحيلك .
فأجاب :

- نعم ثلاثة أسابيع كاملة .

- هل كانت الرحلة طويلة؟

- أنا لم أنقض الوقت كله في السفر . . فقد أتعديني المرض
أسبوعين . . ولولا ذلك لعدت منذ وقت طويل . . ولكنني في الواقع
ما كدت أصل إلى نهاية الرحلة حتى اتابنتي الحتمى فلزمت فراشي .

- وقفت راجعاً قبل أن تبلى من مرضك؟!

- لو أنني مكثت أسبوعاً آخر في ذلك المكان لهلكت دون شك .

- أما وقد عدت الآن فيجب أن تعني بنفسك كل العناية .

- بل سأبرح الفراش بعد ساعتين .

- تلك هي الحماقة بعينها .

- لا بد أن أفعل ذلك .

- وماذا يرغمك؟!

- يجب أن أقابل ضابط الشرطة للاتفاق على موعد نقل الجثة .

- ولماذا لا تتدب شخصاً آخر في هذه المهمة التي قد تضاعف

مرضك؟

- هذه المهمة هي الشفاء الوحيد لسقمي . . إنني أريد أن أراها . .

ويجب أن أراها . .

منذ وصل إليّ نبأ موتها . . أو على الأصح . . منذ رأيت قبرها . .

وأنا لا يغمض لي جفن . . ولا أستطيع أن أصدق أن هذه الصبية

التي تركتها ممثلة جمالاً ونشاطاً قد ماتت . يجب أن أراها لأتحقق

بنفسي . . ويجب أن أرى كيف أصبحت هذه المخلوقة الحسناء التي

أحببتها بكل كياني . . فلعلّ هول منظرها يرفه من آلام الذكرى .

مسترافقني . . أليس كذلك؟ أعني إن لم يكن في ذلك ما
يشمك .

- وماذا قالت أختها؟

- لا شيء . . فقط أدهشها كثيراً أن يهتم غريب مثلي بشراء قطعة

أرض وبناء قبر لمرغريت . . ولكنها أمدتني بالترخيص الذي طلبته
بغير تردد .

- أصغ إلي يا صديقي . . إنني أنصح لك بتأجيل نقل الجثة إلى

أن تبرا من سقمك وتسترد عافيتك .

- صدقتي أنني سأتمكن من إنقاذ هذه المهمة إلى النهاية . . بل

إنني قد أجن إن لم أفرغ منها بأسرع ما يمكن . . وقد قلت لك إنني

لن أهدأ بالاً وأطمئن نفساً حتى أرى مرغريت . . وربما كانت هذه

الرغبة ولبدة الحمى التي تسري في عروقي . . أو ضرباً من الجنون

والهذيان . . ولكنني مصمم على تحقيقها مهما كانت الأعباء .

فقلت :

- إنني أفهم شعورك . . وسأضع نفسي في خدمتك . . هل قابلت

جوليا ديار؟

- نعم . . قابلتها بعد عودتي .

- وهل أعطتك يوميات مرغريت؟

- نعم . . ها هي . .

وأخرج من تحت وسادته حزمة من الأوراق . . ثم ودّها إلى

مكانها في الحال وهو يقول :

- لقد حفظت محتويات هذه الأوراق عن ظهر قلب . . لأنني

قرأتها عشر مرات في كل يوم من أيام الأسابيع الثلاثة الأخيرة . .
وستقرأها أنت كذلك . . ولكن فيما بعد . . عندما أسترده هديتي
وسكيتي . . ويصبح في مقدوري أن أوضح لك ما تضمنته من حب
والم . أمّا الآن . . فإنني أسألك أن تسدي إليّ خدمة .

- أفصح عما تريد .

- هل مركبتك في انتظارك؟

- نعم . .

- هل لك إذاً في أن تأخذ جواز سفري وتنطلق به إلى مكتب
البريد لتأتي بما قد يكون لي فيه من رسائل؟ لقد كنت أنتظر رسائل
من أبي وأختي . . ولكنني رحلت عن باريس فجأة كما تعلم قبل أن
أستفسر عن هذه الرسائل . .

ومتى عدت من مهمتك ذهبنا سوياً إلى مركز الشرطة لتتفق مع
الضابط على موعد نقل الجثة غداً .

قال ذلك وقدم لي جواز سفره . . فانطلقت به إلى مركز البريد
في شارع جان جاك روسو . . وهناك وجدت رسالتين باسمه
فحملتهما إليه .

ولسّا عدت وجدته قد ارتدى ثيابه وتأهب للخروج .

قال وهو يتناول الرسالتين من يدي :

- إنني عاجز عن شكرك .

ونظر إلى الرسالتين وأردف :

- نعم . . إنهما من أبي وأختي . . ولا بد أن يكون صمتي قد
أدهشهما وأقلقهما .

وفضّ الرسالتين . . وألقى عليهما لمحة سريعة . . ألم فيها بالقليل

من مضمونهما . . ثم طوَاهما وقال :

- دعنا نذهب . . سأرد على هاتين الرسالتين غداً .

وقصدنا إلى مركز الشرطة . . ووضع أرمان بين يدي الضابط
التفويض الذي حصل عليه من شقيقة مرغريت .

وأعطاه الضابط بدوره رسالة إلى حارس المقبرة . . وتم الاتفاق
على أن يكون نقل الجثة في الساعة العاشرة من صباح اليوم
التالي . . وطلب إليّ أرمان أن أقبله قبل هذا الموعد لكي أرافقه إلى
المدفن .



أعترف بأنني أمضيت تلك الليلة يتنازعني الفضول والقلق . .
ونقاد الصبر . . فلم أتم إلا شطراً قليلاً . . وقياساً على ما أصابني من
الأرق والانفعال لا بد أن تكون تلك الليلة من أطول الليالي التي
مرّت بأرمان .

ولسّا ذهبنا إلى أرمان في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي
وجدته صاحب الوجه شحوباً مخيفاً . . ولكنه كان يادي الهدوء
والسكينة . . فابتسم لي وشدّ على يدي بحرارة . .

وحانت مني التفاتة فرأيت أثر الشموع الذائبة المحترقة . . فأدركت
أن الشاب لم يغمض له جفن طوال الليل .

وقبل أن تنصرف أرسل أرمان خادمه إلى صندوق البريد برسالة
طويلة إلى أبيه . . ضمنها ولا شك خواطره وتأملاته والانفعالات التي
عصفت بكيانه في تلك الليلة المسهدة الطويلة في باريس .

وبعد نصف ساعة . . كنّا في مونمارتر .

هناك وجدنا ضابط البوليس في انتظارنا . . فمشينا ببطء إلى قبر

مرغريت .. والضابط في المقدمة ونحن في أثره .

كنت أتأبط مساعد أرمان .. فشعرت به يرتجف بشدة من وقت إلى آخر . ولما نظرت إليه في قلق .. فهم مغزى نظراتي .. وابتسم لي مطمئناً ..

ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة .

*

وقبل أن نصل إلى القبر غهل أرمان قليلاً .. ومراً بمنديله على وجهه .. وعندئذ فقط رأيت العرق يتصبب على جبينه غزيراً ..

وانتهزت هذه الفرصة وتفتت ملء رثتي .. فقد خيل إليّ بدوري كأنّ أصابع حديدية تضغط قلبي ..

وإنني لأعجب حقاً .. عن أية عاطفة يصدر الفضول الذي يشعر به الإنسان إلى رؤية أمثال هذه المشاهد .

*

عندما وصلنا إلى القبر .. كان البستاني قد رفع أواني الزهور .. وأزال حاجز القضبان الحديدية التي تحيط بالقبر .. وشرع اثنان من الرجال في حفر التربة .

واستند أرمان إلى إحدى الأشجار .. وراح ينظر أمامه .. وخيل إليّ أن روحه تطل من عينيه ..

وفجأة .. ارتطم معول أحد الرجلين بحجر .. وسمع أرمان صوت الارتطام فانتفض كأنه مس سلكاً مشحوناً بالكهرباء .. وضغط على ساعدي بقوة ألتني ..

وأخذ الرجلان في إزالة الأحجار التي تغطي التابوت .

وهنا اعترف أنني لم أحول بصري عن أرمان .. فقد خفت في

هذه اللحظة أن يغلبه الانفعال الذي ظل يغالبه حتى ذلك الوقت .. ولكنه ظل ينظر نحو القبر بعينين واسعتين ثابتتين لا تتحركان في محجريهما كأنهما عينا مجنون .. ولم أر من دلائل انفعاله وآلامه غير رجفة بسيطة مرّت شفتيه الرقيبتين .

أمّا أنا .. فلا أقول عن نفسي إلا كلمة واحدة : هي أنني وددت في تلك اللحظة لو أنني لم أحضر ..

وما إن أزيلت الأحجار عن التابوت حتى قال الضابط لأحد الرجلين :

- افتح التابوت .

كان التابوت مصنوعاً من خشب السنديان .. فشرع الرجلان في رفع غطاءه .. وكان الصدا قد علا المسامير بفعل الرطوبة .. فوجد الرجلان عتاء شديداً في انتزاعها من مكانها .

ورفع الغطاء .. وانبعشت من التابوت رائحة نثة رغم أريج الأعشاب العطرية التي أحيطت بها الجثة ..

وغمغم أرمان وقد اشتدّ شحوبه :

- يا إلهي .. يا إلهي .

وانقبض الحاضرون جميعاً .. فقد كان الكفن الأبيض الرقيق يكشف أكثر تقاطيع الجثة .. وقد تطرّق العطب والتلف إلى أحد أطراف هذا الكفن فأطلّت منه قدما الميتة .

*

خارت قواي أمام هذا المنظر .. ولا أزال حتى الساعة أرتجف فزعاً وذعراً كلما تذكرت تفاصيله الخفيفة .

وصاح الضابط بالرجلين :

- أسرعاً .

فعدّ أحد الرجلين يده ورفع طرف الكفن . . وكشف عن وجه الميتة المسجاة .

كان منظرأ يهول الإنسان أن يراه . . ويهوله أن يصفه . .

لم يبق من العينين غير تقيين فارغين . . واختفت الشفتان . . وبرزت الأسنان البيضاء بروزاً مخيفاً . . وانسدلت خصل الشعر على عظام الفكين فأخفت بعضها . . وعلى الرغم من كل ذلك . . فلأنني تبينّت في تلك العظام النخرة أثر تكوين ذلك الوجه الوردي الجميل الذي طالما أعجبت به .

■

ورفع أرمان منديله إلى فمه . . وراح يقضمه . . دون أن يتقوى على تحويل عينيه عن ذلك المنظر المقيف .

أما أنا فقد غيّلت إليّ كأن كلاليب من فولاذ تضغط جبهتي . . وأن سحابة قاتمة تظلّل عينيّ . . ودويّاً صاخباً يكاد يصم أذنيّ . . وكل ما استطعته في تلك الحالة أنني وضعت على أنفي قنبلة صغيرة تحتوي على مادة منعشة كنت حملتها معي . .

وفي أثناء هذه الغيبوبة السريعة التي عبرت بي سمعت ضابط الشرطة يسأل أرمان :

- هل تحققت من أن هذه هي الجثة التي تريد نقلها؟

فأجاب الشاب بصوت هامس لا يكاد يسمع :

- نعم .

فقال الضابط للرجلين :

- إذا فأغلقا التابوت . . وانقلاه من هذه الحفرة . .

فأسدل الرجلان الكفن على وجه الميتة . . وأغلقا التابوت . . وحملاه إلى المكان الجديد الذي سيدفن فيه .

لم يتحرك أرمان من مكانه . . ولم تتحرك عيناه عن القبر الفارغ . كان أشد امتقاعاً من الجثة التي رآها في التو واللحظة . . وكان الرعب قد شلّ حركته . . وأمسك أنفاسه . .

وتوقّعت ما سوف يحدث متى بلغ انفعاله غايته فاقتربت من الضابط وسألته :

- هل لا يزال وجود الشاب ضرورياً؟

فأجاب :

- كلاً . . وإني أنصح لك أن تذهب به . . فإن حالته على ما أرى

ليست على ما يرام .

فقلت وأنا أتأبط ساعد أرمان :

- هيا بنا . .

- فهتف وهو يحملني في وجهي كأنه لا يعرفني :

- ماذا؟!

قلت :

- لقد انتهى كل شيء . . ويجب أن تعود إلى منزلك يا صديقي

فإنك محتقن الوجه مثلج الأطراف . . وستقتل نفسك إذا استمررت هذه الانفعالات العنيفة !!

فأجاب بلهجة آلية :

- صدقت . . . هيا بنا . .

ولكنه لم يتزحزح من مكانه فأمسكت بإساعده واجتذبتني معي .

وسمح لي أن أقتاده كما يقاد الطفل . . وهو ينمغم بين القينة

والغينة كمن يتحدث إلى نفسه :

- هل رأيت تينك العيتين؟

ثم أشاح بوجهه .. كأنما ليطرده عن ناظره ذلك المشهد الغيف .

•

وأبطأ في مشيته تدريجاً ... واصطلكت أسنانه .. وعثرته عزة
عصية اضطرب لها كل جسده .

تحدثت إليه ولكنه لم يجب .. وكل ما فعله أنه سمح لي أن
أقتاده بعيداً عن القبر .

كانت المركبة تنتظرنا بباب المدفن .. وقد وصلنا إليها في الوقت
المناسب .. لأنني ما كنت أجلسه فيها حتى اشتد ارتجافه .. ولعله
أشفق عليّ من الانزعاج فغمغم وهو يضغط على يدي :

- ليس بي من شيء .. ليس بي من شيء .. فقط أود لو أستطيع
البكاء .

ورأيت صدره يعلو ويهبط بعنف .. واحمرّت عيناه .. ولكن
دموعه أثبت أن تنهمر .

•

مضت المركبة قدماً ووصلنا أخيراً إلى بيته وهو لا يزال يرتجف
يعنف .. فاستعنت بخادمه على نقله إلى فراشه .. وأمرته أن يشعل
النار في الموقد ثم انطلقت في البحث عن طبيب .. وسردت على
الطبيب في أثناء الطريق ما حدث في المدفن .

ولمّا عدت إلى أرماني وجدته محتقن الوجه .. وهو يهذي بكلام
غير مفهوم .. تبثت فيه مراواً اسم مرغريت .
سألت الطبيب بعد أن فرغ من فحصه .

- ماذا وجدت؟

فأجاب :

- لقد أصيب بحمى مخيئة ... وهذا من حسن حظي .. ولولا
ذلك لفقد عقله .. أمّا الآن فإنّ المرض الجشعاني سوف يستأصل
المرض العقلي ولا ينقضي شهر حتى يبرأ من اللامعين معاً .

الفصل السابع

لهذه الأمراض الشبيهة بمرض أرماني فضيلة واحدة .. وهي أنها
تقتل بسرعة .. أو تمر بسرعة .. فهي لا تمهل .. ولا تتهمّل .

وهكذا لم يمض أسبوعان على الحوادث التي سردتها .. حتى كان
أرماني قد دخل في دور النقاهة .. وحتى كانت عري الصداقة قد
نوثقت بيني وبينه .

ذلك لأنني لم أبرح غرفته طيلة فترة مرضه .

•

وكان الربيع قد بدأ يخطر بأوراقه وزهوره .. وغرفة صديقي تطل
على حديقة بديعة .. ترفل في الورود والزهور .. وتبعث إلينا عبقها
الزكي .. وشذاها العطر .

وقد سمح الطبيب لأرماني بالجلوس .. فأخذنا نقضي أكثر أوقات
الدفء في تجاذب أطراف الحديث بالقرب من النافذة .

وعنيت أشد العناية بالأمر أذكر اسم مرغريت في حديثي .. حتى لا
يشير هذا الاسم في صدر أرماني عاصفة من الحزن والألم يخشى عليه
معها من الانتكاس .. بيد أنه راح يتكلم عنها من تلقاء نفسه ..

ونخيل إليّ أنه كان يجد في ذلك لذة وارثياً.

صار ينطق باسمها نطقاً مقروناً بأهة رقيقة .. بعد أن كان فيما مضى يرويه بدموعه .. ما طمأنني إلى استقرار قواه العقلية .

وقد لاحظت بعد زيارتنا المدفن .. وبعد المنظر الذي أحدث في نفسه تلك الأزمة العاطفية العنيفة .. أن مرضه الجسماني قد رقه من آلامه النفسانية .. وأنه شعر بترويح من العزاء والسكوى بعد أن تحقّق من موت مرغريت كما كان يأمل .. وأنه يحاول ذاتياً أن يطرد ذكرياته الحديثة الحقة بإحياء ذكرى الماضي البعيد .

وقد رفض بإصرار أن ينسج أسرته بالخطر الذي كان يهدّد حياته .. حتى إنه أبّل من مرضه قبل أن يعلم أبوه بأنه كان مريضاً .

*

وذاث يوم طالت جلستنا بقرب النافذة أكثر من المعتاد ..

وكان الجو بديعاً والشمس تنحدر نحو الأفق وسط شفق أزرق موشى بالذهب .. ونحن بفضل أشجار الحديقة كأننا في واد بعيد عن باريس وضجتها وصخبها .. فقال أرمان وهو منصرف إلى أفكاره وتأملاته :

- في مثل هذا الوقت من السنة وفي مساء كهذا المساء عرفت مرغريت لأول مرة .
فلم أجبه ..

ولزم هو الصمت لحظة ثم تحوّل إليّ وقال :

- يجب أن أقصّ عليك ما كان بيني وبين مرغريت .. فسرعاً استطعت أن تسجله في قصة قد لا يصدقها أحد .. ولكنك ستجد لا شك لذة في كتابتها ..

فأجبت :

- حدثني بهذه القصة فيما بعد يا صديقي .. أما الآن فإن ضعفك لا يعينك على بذل هذا الجهد !

فقال وهو يتسم :

- إن الجو دافئ .. وقد أكلت جناح دجاجاً .. ولست محموماً .. وليس لدينا ما نصنعه .. فأسرد عليك القصة .

فأجبت :

- ما دمت مصراً فعلى مهلك .. وهأنذا نصنع إليك .

قال :

- إنها قصة بسيطة .. ولكن يجب أن أسردها عليك بترتيب حوادثها .. ولك أن تصوغها في القالب الذي تريد .

*

وفيما يلي قصته المؤثرة كما سردها عليّ .. دون أن أغير فيها كلمة واحدة ..

*

قال أرمان وهو يضطجع في مقعده :

- نعم إنني عرفتها في مثل هذا المساء ..

كنت قد قضيت النهار في الضواحي مع صديق لي يدعى غاستون .. وفي المساء عدنا معاً إلى باريس .. ولم ندر ماذا نصنع فقصّدت إلى مسرح «ليه فارينيه» .

وبين الفصول .. خرجنا إلى أروقة المسرح .. وهناك مرّت بنا سيدة طويلة القامة حياها صديقي بإحناء قامته .. فسألت :

- لمن أحببت قامتك في هذه اللحظة؟ !

فأجاب :

- لمرغريت جوتييه .

فأجبت بانفعال سأذكر سببه فيما يلي :

- يُخَيَّل إلي أنها تغيّرت كثيراً . . لأنني لم أعرفها !

- لقد كانت مريضة . . مسكينة هذه الفتاة . . إنها لن تعمّر طويلاً .

وما زلت أذكر هذه الكلمات كأنها قلت لي بالأمس القريب .

*

قبل ذلك بعامين كنت إذا قابلت هذه الفتاة انقلبت رأساً على عقب دون أن أعرف السبب . وقد سوغ هذه الظاهرة أحد أصدقائي الذين يزعمون معرفة العلوم الروحانية فقال إنها ضرب من الجاذبية المغنطيسية . . أما أنا فأعتقد بأنه كان مقدراً لي منذ البداية أن أقع في غرام مرغريت . . وأن هذه الظاهرة لم تكن إلا النذير .

ولا شك أن تأثيرها فيّ كان شديداً وواضحاً . . بحيث لاحظته بعض أصدقائي . . فكان مصدراً لضحكاتهم وسخرتهم .

وقد رأيت مرغريت لأول مرة في ميدان البورصة . . إذ وقفت إحدى المركبات الفخمة بباب محل للأزياء هناك . . وهبطت منها غانية ترتدي ثوباً أبيض . . ودخلت المحل تشبعها عبارات الإعجاب من أفواه المارة الذين وقعت أبصارهم عليها .

وكنت بين الذين أبصروا بها . . فبهرتني جمالها . . وجمدت في مكاني ولم أترجح خطوة واحدة حتى رأيتها تخرج من المحل وتعود إلى مركبتها .

كانت ترتدي ثوباً أبيضاً كثير التلافيف . . وتلقي على منكبيها

منديلاً من الحرير الهندي موشى بالفضة والذهب . . وتضع على رأسها قبعة عريضة من القش الإيطالي . . وتزين معصمها بسوار واحد . . صيغ في شكل سلسلة ضخمة من الذهب الخالص . . كانت هي «المروسة» الشائعة في ذلك الوقت .

*

وانطلقت المركبة . . فتبعتها بصري حتى غابت . . ثم حانت مني التفاتة فرأيت أحد عمال محل الأزياء واقفاً ببابه .
دنوت منه وسألته عن اسم عميلك الحناء . فأجاب :
- إنها الأكة مرغريت جوتييه .

واردت أن أسأله عن عنوانها . . ثم ترددت وخجلت . . وانصرفت .

*

ولم يتلاش هذا الحلم الجميل من مخيلتي كما تتلاشى سائر الأحلام المائلة . . فذهبت أبحث في كل مكان عن هذه السيدة البيضاء ذات الجمال الملائكي . . إلى أن ذهبت إلى مسرح «الأوبرا كوميك» في أحد الأيام . . فكان أول شخص استقر عليه بصري في إحدى المقصورات هو مرغريت جوتييه .

كان يرفقتني صديق لي يدعى إرنست . . قرأها بدوره وعرفها . . وقال وهو يومئ نحوها :

- انظر إلى هذه الحناء . . إنها مرغريت جوتييه .

وفي هذه اللحظة . . حركت مرغريت منظرها نحونا ورأت صديقي وابتمت له . . وأشارت إليه تدعوه إلى مقصورتها .

قال :

- سأذهب لتحتيتها .. وأعود في الحال .

فلم أقمالك أن قلت له :

- أنت سعيد الحظ .

- لماذا؟

- لأنك تعرفها .

- هل تحبها؟

- كلا .. طبعاً .

- ولكنني شعرت في تلك اللحظة بالدم يصعد إلى وجهي .

كنت أود لو يقدمني إليها .. ولكنني لم أصرحه بهذه الرغبة .
قال :

- تعال معي فأقدمك إليها .

- ألا يجب أن تستأذنها أولاً؟

- كلا .. كلا .. لا ضرورة لهذه التقاليد مع فتاة من هذا الطراز .. هيّا بنا .

آلتي هذه العبارة واللهجة التي قبلت بها .

نعم .. تألمت على الرغم مني .. فقد كان يشق عليّ أن أسمع ما يؤكد لي أن مرغريت ليست جديرة بالشعور الذي أيقظته في أعماق نفسي .

في قصة من وضع «الفونس كار» - صاحب رواية ماجدولين الشهيرة - أن البطل - وهو شاب في مقتبل العمر - تعقّب ذات مساء فتاة حسناء وقع في غرامها من أول نظرة .. وخيل إلى الفتى وهو

يتبع صاحبته أنه على استعداد لأن يضحي بكل شيء لقاء قبلة واحدة يطبعها على يد الفتاة .. وبلغ من رقة شعوره أن أحس بأن مجرد اختلاس النظرات إلى عقيب الفتاة وهي تسير أمامه وترفع طرف ثوبها انقاء الأرواح هو فسق وانتهاك لطيهاره الفتاة .

وبينا هو يفكر في المستحيلات التي يعتزم الإقدام عليها للحصول على الفتاة .. إذ بالفتاة تقف فجأة في أحد أركان الشارع .. وما إن دنا منها حتى ابتسمت له .. ودعت إلى غرفتها .

واعتذرت دار الفتى على عقيقه .. واجتاز الشارع .. وعاد إلى بيته كاسف البال حزناً .

تذكرت هذه القصة .. ونفت أن تنتهي تحريتي كما انتهت تحيرة ذلك الشاب فتخفّ مرغريت إلى الترحيب بي .. وتعطيني من نفسها في غير تمنع ما كنت على استعداد لبذل كل تضحية في سبيله .

وذلك هو شأننا دائماً نحن الرجال .. وإنه لمن حسن الحظ أن ترقى خيالنا بمشاعرنا بهذه الصفة فتضعها فوق مستوى شهواننا البهيمية . وفي الحق لو قال لي قائل «ستتال هذه المرأة الليلة وستقتل غداً» لما تردّدت في القبول .. ولو قيل لي «ادفع مائة من الفرنكات فتصبح عشيق هذه المرأة» لرفضت وحزنت كما يحزن الطفل إذ ينهار قصره الرملي الذي شيده .

ومهما يكن من الأمر فقد أردت أن أجمع بمرغريت .. وأن أتحدّث إليها .. فتلك هي الوسيلة الوحيدة لاختبارها .. وتكوين

الرأي الصحيح عنها .

ولكنني ألحقت مع ذلك على صاحبي في أن يستأذنها أولاً قبل أن أرافقه إلى مقصورتها . وأخذت أسير في ردهة المسرح جيتة وذهاباً وأعد الكلام الذي سوف أقوله في حضرتها .

فانظر إلى أي حد من سداجة الطفولة يرتد العاشق؟؟

وعاد صديقي بعد لحظة وهو يقول :

- إنها تنتظرنا ..

فسأله :

- وهل هي وحدها؟

- إنَّ معها سيدة أخرى .

- أليس هناك رجال؟

- كلا .

- هيا بنا إذا .

وسار بي صديقي إلى باب المسرح . فصحت به :

- إلى أين أنت ذاهب؟ إنَّك ضللت الطريق .

فاجاب :

- كلا .. سأبتاع لها بعض الحلوى . فقد طلبت إليَّ ذلك .

وقصدنا إلى حائوت للحلوى في ميدان الأوبرا . وكنت على

استعداد لشراء محتويات الحائوت كله .. ولكن صديقي اقتصر على

شراء رطل من الأعناب المحمقة . فسأله :

- هل أنت واثق من أنها تحب هذا النوع؟

- من المشهور عنها أنها لا تحس نوعاً آخر من الحلوى .

ثم استعرد ونحن في طريقنا إلى المسرح :

- هل تعلم إلى أية فتاة سأقدمك الليلة؟ لا تنوهم أنني سأقدمك إلى إحدى المركيزات أو الدوقات .. فما مرغريت إلا فتاة عابثة تعيش في أكتاف عشاقها .. وما أكثرهم .. فلا تحر بين يديها .. ولا تضطرب أو تلتطم في حضرتها .. بل قل كل ما يتبادر إلى ذهنك . فاطرقت براسي موافقاً .. وتبعت .. وأنا أقول لنفسي إنني أوشك أن أبرأ من غرامي .

ولمّا دخلنا المقصورة .. كانت مرغريت غارقة في الضحك . وكان أحب إليَّ أن أراها واجمة حزينة .

وقدمني صديقي إليها .. فحيّني بإحناءة بسيطة من رأسها وسألت :

- أين الحلوى؟

- ها هي .

وتناولت الحلوى .. ونظرت إليَّ .. فغضضت بصري على الرغم مني .. وصعد الدم إلى وجهي .

وانحنت مرغريت على زميلتها .. وهمت في أذنها بضميم كلمات وانفجرتا ضاحكتين .

ولا شك أنني كنت موضوع هذا الضحك .. فتضاعفت حيرتي .. وزاد اضطرابي .

وكانت لي في ذلك الوقت عشيقة .. هي فتاة في ريعان الصبا تشتغل في أحد المتاجر .. وتمتاز بركة شعورها .. وشدة حساسيتها .. وطالما أضحكنتي مشاعرها ورسائلها .. فأدركت - قياساً على شعوري - كم كانت هذه الفتاة تسألم من ضحكاني

ومخبرتي . . ومرت بي بضغ دقائق شعرت في خلالها بأنني أحب
هذه الفتاة المسكينة كما لن يحب رجل امرأة . .

*

وراحت مرغريت تأكل حلواها . . دون أن تميزني أدنى التفات .
ولم يشأ صديقي أن يتركني في ذلك الموقف المحجل فقال :
- لا يدهشك يا مرغريت أن يقف صديقي بين يديك صامتاً
واجماً . . فقد ملكت عليه مشاعره فأصبح لا يقوى على الكلام .
فأجابت :

- بل أكبر الظن أنه جاء برفقتك لأنك خطت أن يسمعك الحضور
بمفردك .

فقلت :

- لو صحّ ذلك ما رجوت صديقي إرنست أن يستأذنيك في
قدومي عليك .

فأجابت :

- لعلّ ذلك لم يكن إلا وسيلة لإرجاء سامه وملائته بعض
الوقت .

*

وكل إنسان يعرف القليل من أخلاق هذه الطبقة من النساء يعلم
أنهنّ يشعرن بلذة خاصة في الهزء بالفتيان الذين يقابلونهنّ للمرة
الأولى . . ولا شك أن ذلك نوع من الانتقام لما يلقيهن من مذلة
واحتقار على أيدي الرجال الذين يعرفونهنّ حق المعرفة . . ولذلك
يتعين على الإنسان كي يوفق في إجاباته وأحاديثه معهنّ أن يعرف
من أمورهنّ أكثر مما كنت أعرف في ذلك الوقت .

أضف إلى ذلك أنني كنت أحلّ مرغريت في مخيلتي محلاً ربيعاً
ما ضاعف وقع سخريتها في نفسي . . فنهضت واقفاً . . وقلت
بصوت ينم عن الامتناع :

- إذا كان ذلك هو رأيك فيّ يا سيدتي . . فإنه لا يبقى لي إلا أن
اعتذر عن تطلقلي . . وأنصرف في الحال . .

وأخبرت قامي وأنصرفت . .

وما كدت أغلق باب المقصورة حتى دوت في أذني قهقهة
صاخبة .

وقصدت إلى مقعدي . . واستأنف التمثيل . . فعاد إرنست إلى
مكانه بجانبني . . وقال وهو يجلس :

- ما أعجب سلوكك ! لقد ظننت المرات أن بك مساً من الجنون .

- وماذا قالت مرغريت بعد انصرافي ؟

- لقد ضحكت وقالت إنها لم تر في حياتها إنساناً أعجب
منك . . والواقع أنك تولي أولئك النسوة شرفاً لمن أهلاً له إذا

نظرت بعين الجد والأهمية إلى كل أقوالهنّ . . إنهنّ لا يعرفن معنى
اللباقة والمجاملة . . بل إنهنّ أشبه بالكلاب التي تُفَسِّخُ بالعطور

فتزعجها الرائحة الزكية وتتمرّع في التراب للتخلّص منها .
فقلت متظاهراً بقلة الاكتراث .

- لقد كان ما كان وانتهى الأمر ولن أراها بعد الآن .

كنت أعجب بها قبل أن أعرفها . . فلما عرفتھا استحال الإعجاب
احتقاراً .

- ومع ذلك فلن يدهشني أن أراك في مقصورتها في أحد
الأيام . . وأن يبلغني أنك تورّد نفسك موارد الخراب والدمار من

أجلها .

إنها سينة الطباخ حقاً . . ولكنها مع ذلك امرأة يتمنى كل رجل أن يتخذها لنفسه عشيقه .

ومن حسن الحظ أن الستار رفع في تلك اللحظة وبدأ التمثيل فصمت إرنست .

ويستحيل عليّ أن أذكر شيئاً من المسرحية التي كانت تمثل . . ولكنني أذكر فقط أنني لم أكف عن التطلع بين الغيئة والغيةة إلى مقصورة مرغريت . . وأن الزائرين الذين رأيتهم يتعاقبون على هذه المقصورة كانوا كثيرين .

كان من الصعب عليّ أن أقضي مرغريت من ذهني . ولكن شعوري نحوها تبدل . . وأصبح كل مني أن أنتقم لما نالني على يديها من هزم وسخرية . . وإن كلغني ذلك كل ما أملك . . وإن يكون الانتقام بقهرها . . والسيطرة عليها وإذلالها .

وقبيل انتهاء التمثيل . . غادرت مرغريت وصاحبيتها مقصورتهم . . فنهضت واقفاً وتأعبت للحاق بهما .

ودعش إرنست وسألني :

- هل أنت ذاهب؟

- نعم . . لماذا؟

ولاحظ في هذه اللحظة خلو مقصورة مرغريت فهتف :

- اذهب . . اذهب بحق السماء . . إنني أتمنى لك كل توفيق .

فخرجت . . وسمعت على السلم جلبة وحفيف أثواب فاتحيت ناحية . . ورأيت المراتين تنصرفان بصحبة رجلين . . فتبعتهما عن كثب

وسمعت مرغريت تقول لأحد غلمان المسرح :

- اذهب وقل للمحوردي أن ينتظرونا بباب المطعم الإنجليزي فإنا سنذهب إلى هناك سيراً على الأقدام .

بعد بضع دقائق كنت أسير أمام هذا المطعم جيئة وذهاباً . . فرأيت مرغريت واقفة في مقصورة إحدى الغرف الخاصة . . وهي تهشم بأصابعها إحدى زهور الكاميليا . . ورأيت أحد الرجلين مستنداً إلى كتفها . . وهو يهمس في أذنها كلاماً . .

فقتصدت إلى مقهى أمام المطعم وجلست هناك أقرب تلك المقصورة ولا أحول بصري عنها .

إلى أن كانت الساعة الواحدة صباحاً . . فخرجت مرغريت من المطعم . . وصعدت إلى مركبتها . . وتبعها رفاقها الثلاثة . فاستأجرت إحدى المركبات وانطلقت بها في أثرهم .

ووقفت المركبة أخيراً أمام المنزل رقم ٩ بشارع دانتان . . وهبطت منها مرغريت . . ودخلت المنزل بمفردها .

والعجيب أنني شعرت بارتياح عظيم عندما رأيتها تدخل المنزل بمفردها .

وقد قابلتها مراراً بعد ذلك في المساح وحدائق الشانزليزيه . وفي كل مرة كنت أشعر بوجودها قبل أن أراها . . وفي كل مرة كنت أضطرب ظهراً لبطن .

ثم حدث أن انقضى أسبوعان لم أرها خلالهما . . ثم قابلت صديقي غاستون وسألته عن نبئها فأجاب :

- إن الفتاة المسكينة في أشد حالات المرض .
- وممّ تشكرو؟

- إنها مريضة بذات الرئة .. ولعمّ كانت طبيعة حياتها لا تساعد على شفائها .. فقد اشتدت بها العلة حتى ألزمتها القرائش .. ويقال إنّ موتها أصبح مؤكداً .

يا إلهي ما أعجب القلب ..

لقد كنت أحب الفتاة .. ومع ذلك لم أكره لها أن تموت .

وبالرغم من كل ذلك .. فإنني رحت أتردد على بيتها كل يوم دون أن أذكر اسمي .. للاستفسار عن صحتها .. إلى أن علمت يوماً برحيلها إلى بانبر .

ومرت الأسابيع والشهور .. وشغلّني الأسقام والمغامرات ومهام الحياة عن التفكير فيها .. وبدأت أنظر إلى ما كان بيني وبينها على أنه ضرب من الطيش ونزق الشباب .. إلى أن صادفتها - كما قلت لك - وأنا أسير مع صديقي غامسون في أروقة مسرح فاريشي .. وعندئذ وجدت أن غيابها عن عيني عامين كاملين لم يكن كافياً لمنع قلبي من الرثوب بين جنبي لجرده شعوري بأنها على مقربة مني ..

الفصل الثامن

شعرت إذأ بأنني ما زلت أحيها .. واقترن هذا الإحساس برغبة جامحة في الاتصال بها .. وذهبت أخدع نفسي فأسوّغ هذه الرغبة بأنها لجرّد الانتقام .. وإظهارى لهذه الغاية على أنني أصبحت رجلاً لا يرقى إليه هزوها وإغراؤها . فبالله ما أغرب أساليب القلب .. وما أعجب الأعداء التي يتلمسها للوصول إلى رغباته ؟ !

عقب أن مرّت بي مرغريت وتوارت في أروقة المسرح .. قصدت ترواً إلى مقعدي في الصالة وأرسلت بصري نحو الشرفات لأرى في أية مقصورة تجلس .
رأيتها ..

حقاً .. كانت قد تغيّرت كثيراً فلم أعد أرى على شفّتها ابتسامتها العادية .. تلك التي تجمع بين السخريّة وقلة الاكتراث ..
كان من الواضح أنها عانت كثيراً .. بل ولا تزال تعاني !
وعلى الرغم من أننا كنا في شهر نيسان/ أبريل .. فإنها كانت لا تزال ترتدي ثياب الشتاء .. وتضم جسمها الصغير في معطف من القطيفة .

أخذت أرنو نحويها .. حتى استرعت انتباهها .. فومقنتي بنظرة فاحصة .. ثم حوكت منظارها نحوي .. وظلّت أنها عرفنتني .. لأنها عندما رفعت المنظار عن عينيها .. كانت تتلاعب على شفّتها ابتسامة رفيقة .. ولكنني لم أجب هذه التحية بمثلها رغبة في التظاهر بأنني نسيت ما تذكّرتة هي .

وعتقد بدا لها أنها أخطأت الظن فأشاحت بوجهها عني ..
ورفع الستار .

كنت قد رأيت مرغريت في المسرح مراراً .. ولحظت في كل هذه
المرات أنها لا تقيم أي وزن لما يجري على خشبة المسرح ..
أما أنا .. فلم أعبأ كذلك بالمرحبة التي تمثل أمامي .. وانصرف
كل اهتمامي إلى مرغريت وحدها .. ولكنني حرصت أشد الحرص
على ألا أدعها تشعر بذلك ..

واستطعت وأنا أرقبها أن لاحظ بأنها تتبادل النظرات من وقت
إلى آخر مع سيدة تشغل المقصورة المقابلة لمقصورتها .. فأرسلت
بصري إلى تلك السيدة .. ووجدت أنني أعرفها حق المعرفة .

كانت هذه السيدة قد حاولت احتراف التمثيل وفشلت .. ثم
اشتغلت بصنع الأزياء اعتماداً على صلتها الوثيقة بفتيات المسرح
ومطارح اللهو والعبث .

وقد بدا لي في هذه الحال أن أتخذها وساطة لمقابلة مرغريت ..
فانتهزت فرصة وقوع بصرها علي بطريق المصادفة وأخفيت لها رأسي
محياً ..

وحدث ما توقعت .. فإنها أومأت إليّ تدعوني إلى مقصورتها ..
كان اسمها «برودنس دولرنوي» وهي امرأة بدنية تناهز الأربعين ..
ومن أولئك النساء اللاتي لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الدهاء
لحملهن على الإفضاء إليه بما يريد .. فذهبت إلى مقصورتها ..
وانتهزت إحدى الفرص .. حين رأيتها تتبادل النظرات مع
مرغريت .. وسألتها :

- إلى من تنظرين؟

فأجابت :

- إلى مرغريت جوتييه .

- هل تعرفينها؟

- إنني أخطئ لها ثيابها .. ثم إنني جارتها .

- إذا فأنت تقيمين بشارع دانتان؟

- نعم .. بالمنزل رقم ٧ ، وغرفة ملابس جدارتي مرغريت تطل
على غرفتي .

- يقولون إنها فتاة ظريفة .

- ألا تعرفها؟

- كلاً .. ولكنني أتوق إلى التعرف بها .

- هل تريدني أن أدعها إلى هذه المقصورة؟

- كلاً .. إنني أفضل أن أقدميني إليها أولاً .

- في بيتها؟

- نعم ..

- هذا الأمر صعب جداً .

- لماذا؟

- لأنها تعيش في كنف ورعاية دوق عجوز يغار عليها أشد
الغيرة .

- تعيش في رعايته !! هذا تعبير ظريف ..

- نعم .. ولكنه ينطبق على الواقع .. فذلك العجوز المسكين يجد
من المتعذر عليه أن يصبح عشيقها .

وهنا قصّت عليّ برودنس كيف قابلت مرغريت هذا الدوق في
بانير .. ونوع الصلة الحميمة التي قامت بينهما .

وسألتها :

- إذا فهذا هو سبب وجودها في المقصورة بمفردها؟

- نعم .

- ولكن من ذا الذي سيراقتها إلى بيتها؟

- الدوق .

- إنه سيحضر لاصطحابها إذا؟

- نعم . .

- وأنت من ذا الذي سيرافقك إلى بيتك؟

- لا أحد .

- إنني أضع نفسي في خدمتك .

- ولكنني أرى معك أحد أصدقائك .

- كلانا يضع نفسه في خدمتك .

- ولكن من هو صديقك هذا؟

- إنه شاب دمى الخلق . . حاضر البديهة . . سوف يسهل كثيراً أن

يتعرف بك .

- هذا يدعي . . . اتفقنا . . ولنبرح المسرح عقب هذا الفصل .

- ليكون ذلك . . وسأذهب لإخطار صديقي .

فقالت :

- هيا اذهب . .

ثم هتفت على الآخر :

- آه . . انظر . . ها هو الدوق يدخل مقصورة مرغريت .

فنظرت . . ورأيت شيخاً في نحو السبعين من عمره يجلس خلف

الفتاة ويقدم إليها علبة حلوى . .

وبدأت مرغريت تتحدث إلى الدوق . . فذهبت إلى صديقي غاستون وحديثه بما أعددت له ولي . . فوافق . . وقصدنا معاً إلى مقصورة برودنس . ولكننا ما كدنا نتوسط الطريق حتى صادفتنا مرغريت وهي مستتدة إلى ساعد الدوق . . فأفسحنا في الطريق لمروهما . وشعرت في تلك اللحظة أنني على استعداد للنزول عن عامين من عمري في مقابل أن أحل محل ذلك الدوق العجوز .

بعد انتهاء الفصل . . استأجرنا مركبة ذهبت بنا إلى منزل برودنس في شارع داتان . . فلما وصلنا دعتنا برودنس إلى الدخول لشهود ما عندها من أزياء مبتكرة كانت دون شك موضع فخرها . . ولست بحاجة إلى القول بأننا رحبنا بهذه الدعوة .

خُبل إلي . . وأنا أدخل بيت برودنس . . أنني أدنو من مرغريت بخطوات سريعة ثابتة . . فشرعت في توجيه الحديث نحو الهدف الذي أرمي إليه . .

قلت محدثاً برودنس :

- أظن أن الدوق العجوز يقضي سهرته الآن مع جارتك الحساء؟

فأجابت :

- بل أكبر الظن أنها الآن بمفردها .

فقال غاستون :

- لا يد أن حياتها تدعو إلى السأم والضجر إذا!

فأجابت برودنس :

- إننا نقضي أكثر سهراتنا معاً . . وهي لا تكاد تعود من الخارج

حتى تظل عليّ من نافذتها وتدعوني لأنها لا تستطيع النوم مبكراً .
- لماذا؟

- لأنها مريضة بذات الصدر . . وهي دائماً تحت وطأة الحمى .
فسألت :

- أليس لها عشاق إذا؟

- لم ألاحظ قط أن أحد زائريها بقي في بيتها بعد انصرافي . .
ولكنني لا أستطيع أن أعرف ما يحدث بعد أن أتركها . . وكثيراً ما
أقابل عندها الكونت (ن) . . الذي يعتقد أنه يستطيع تحقيق أحلامه
بزيارتها في الساعة الحادية عشرة . . وغمرها بما تريد وما لا تريد من
الحليّ والمجوهرات . . ولكنها لا تميل إليه ولا تنبله من نفسها ما
يريد . . وأظن أنها جده مخطئة . . لأن الكونت شاب واسع الغنى . .
وقد قلت لها المرة تلو المرة : «هذا هو الشاب الذي يصلح لك يا
بنيتي العزيزة» . . ولكنها كانت توليني ظهرها وتقول بتهجة احتقار :
«إنه على جانب عظيم من الغباوة» .

وأتى أعترف بأنه غبي حقاً . . ولكن ما أهمية غباوته ما دام
يستطيع بماله وجاعه أن يحلها الملل الذي تريد . . بينما هذا الدوق
العجوز يحتمل أن يموت في أي يوم . .

إنّ الشيوخ من الرجال يمتازون دائماً بأنانيتهم . . يضاف إلى ذلك
أنّ أسرة هذا الدوق العجوز تلومه على الدوام . . وتعييب عليه
صلته بمرغريت . . وهما سيبيان يحتمل معهما أن يترك الدوق شيئاً
لمرغريت عند وفاته . وقد ذكرت لها كل ذلك . . فأجابني وإن
الكونت رهن إشارتي . . وفي استطاعتي أن أتخذة عشيقاً في أي يوم
بعد موت الدوق .

ومهما يكن من أمر . . فإنّ حياتها الآن تفتقر إلى كل أسباب
اللهو والتسلية . . ولو كنت مكانها لطردت الدوق العجوز بين يوم
وأيلة .

إنّ هذا الشيخ المنصابي يدعوها ابنته . . ويعاملها كما لو كانت
كذلك . . ويتعقبها إلى كل مكان تذهب إليه ! وأني واثقة من أن أحد
أتباعه يجول الآن في الشارع أمام بيت مرغريت لمراقبة الخارجين . .
أو على الأصح . . لمراقبة الداخلين .

فقال غاستون وهو يجلس إلى البيانو وينقر عليه بأصابعه :
- مكينة مرغريت . . لم أكن أعرف عنها كل ذلك . . وإن كنت
قد لاحظت عليها أنها أقل قرصاً من ذي قبل .
فهضت برودنس فجأة :

- اسكت .

فكف غاستون عن العزف .

قالت برودنس :

- أظن أنها تنادي بي .

فأصغينا .

كان هناك حقاً من ينادي برودنس . .

قالت برودنس :

- يجب أن تنصرفا الآن أيها السيدان الكرميان .

فأجاب غاستون ضاحكاً :

- هل هكذا تفهمين معنى الكرم وحسن الضيافة يا سيدتي؟

وقلت :

- لماذا يجب أن تنصرف الآن؟

فأجابت :

- لأنني سأذهب إلى بيت مرغريت .

- سنتظر عودتك إذا .

- هذا مستحيل .

- سذهب معك .

- هذا أسوأ وأساء .

فقال غاستون :

- إنني أعرف مرغريت . . ومن حقني أن أزورها !

- ولكن السيد ديفال لا يعرفها .

- سأقدمه إليها .

- لا . . هذا ليس ممكناً .

وهنا سمعنا صوت مرغريت وهي تنادي مرة أخرى : «برودنس»؟

فأسرعت هذه إلى غرفة مجاورة وفتحت نافذتها . . فتبعناها

ووقفنا خلفها بحيث لا نرانا مرغريت .

قالت مرغريت بلهجة الغضب :

- إنني أدعوك منذ عشر دقائق !

- ماذا تريد مني؟

- أريدك أن تأتي إليّ في الحال .

- لماذا؟

- لأنّ الكروت (ن) لا يزال هنا . . وهو يضجرتني حتى الموت .

- ولكنني لا أستطيع الذهاب إليك الآن .

- ماذا يمكنك؟

- عندي هنا شابان يرفضان الانصراف .

- قللي لهما إنك يجب أن تخرجي لحاجة ملحة .

- لقد قلت لهما ذلك .

- حسناً . . اتركيهما . . ومتى وجدنا أنك خرجت فإنهما لا يطان

في الانصراف .

- نعم . . إنهما ينصرفان لا شك ولكن بعد أن يقلبا كل شيء هنا

وأشأ على عقب .

- ولكن ماذا يريدان؟

- إنهما يرغبان في مقابلتك .

- من هما؟

- إنك تعرفين أحدهما . . وهو السيد غاستون دي . .

- آه . . نعم . . إنني أعرفه . . والثاني؟

- إنه السيد أرمان ديفال . . فهل تعرفينه؟

- كلاً . . ولكن لا بأس . جيتي بهما . . أي إنسان إلا هذا

الكونت . . إنني في انتظاركم . . فتعالوا حالا .

*

وأغلقت المراتان نافذتيهما .

لقد تذكرت مرغريت وجهي . . ولكنها لم تذكر اسمي . . وقد

كنت أؤثر أن تذكرني بالامتعاض على أن تنساني كلية .

قال غاستون :

- كنت أعلم أنها ستترتاح إلى مقابلتك .

فأجابت برودنس :

- إنّ الارتياح لا محل له في بالها . . فهي لا تستقبلكما إلا لتطرد

الكونت .. فكونا أكثر منه لياقة ولطفاً .. وإلا جلتما عليّ نعمة
مرغريت ولومها .

•

وغادرت برودنس بيتها فتيعتها .
كنت أرغف .. وقد خيل إليّ أن سيكون لهذه الزيارة أثرها
العميق في مستقبل حياتي .
اضطربت أشدّ مما كنت مضطرباً يوم قدمني إليها إرنست في
مسرح «الأوبرا كوميك» .

ودقت برودنس جرس الباب .. فوثب قلبي بعنف .
وفتحت إحدى الخادومات الباب .. ورافقتنا إلى مخدع سيدتها ..
وهناك رأيت شاباً معتمداً بمرقبيه على الموقد .. ورأيت مرغريت
جالسة نداعب البيانو بأناملها .. وشعرت بالملالة والضجر اللذين
يخيما على جو الغرفة .
كان الشاب متضجراً لتفاحة شأه في عين الغانية .. والغانية
متضجرة من وجود الشاب .

وسمعت مرغريت صوت برودنس .. فنهضت من جلستها واقفة
ورمفتها بنظرة شكر لأنها أسعفتها بالنجدة .. وقالت لنا :
- تفضلاً بالدخول .. أهلاً وسهلاً بكمما .

الفصل التاسع

وتحوّلت مرغريت إلى صديقي قائلة :
- طاب مساؤك يا عزيزي غاستون .. يسرني جداً أن أراك .. لماذا
لم تأت إليّ مقصورتني هذا المساء؟

- لقد خفت أن أبدو متطفلاً .
فقالت مرغريت :

- إن الأصدقاء لا يكونون قط متطفلين .
قالت ذلك بهدوء .. وقهّلت بعد كلمة (أصدقاء) كأغما لتؤكد
للسامعين أن غاستون لم يكن إلا صديقاً .. وليس أكثر من صديق .
قال غاستون :
- إذا هل تسمحين لي .. كصديق .. أن أقدم إليك السيد أرماني
ديبال؟

- لقد سمحت لبرودنس بذلك فعلاً .
- فقلت وأنا אחني قامتي باحترام :
- وفضلاً عن هذا فقد سبق لي التعرف بعرفتك يا سيدتي ...
فرفعت مرغريت حاجبيها البديعين .. وحاولت أن تذكر أين
قابلتني قبل الآن .. ولكنها لم توقف ولم تذكر شيئاً .
قلت :

- وعلى كل حال فإنني أشكر لك أنك نسيت مقابلتنا الأولى ...
فقد كان سلوكي ليلتذ مدعاة للهزء والسخرية من جانبك .
إننا تقابلنا في مسرح الأوبرا كوميك منذ عامين يا سيدتي ..
حيث قدمني إليك صديقي إرنست دي ..
فقاطعتني وعلى شفيتها ابتسامة :

- آه .. تذكرت الآن .. ولكن سلوكك لم يكن يدعو إلى
السخرية يا سيدي .. ولكن الذنب ذنبي .. لأنني قابلتك بشيء من
الحشونة التي ما زلت أعيبها في نفسي .. ولكنك غفرت لي دون
شك يا سيدي ..

ومدت إليَّ يدها فقَبَّلَتْهَا .

قالت :

- حقاً . . إن من أسوأ صفاتي أنني أميل دائماً إلى السخرية من أقابليهم لأول مرة . . وهي عادة سيئة سييها - كما يقول أطبائي -
توتر أعصابي وشدة آلامي . . فأرجوك أن تصدق كلام الأطباء يا سيدي .

- ولكن يخيل إليَّ أنك الآن في خير حال .

- ربّما . . ولكنني كنت في أشد حالات المرض .

- أعلم ذلك .

- ومن أتيأك؟

- كل إنسان كان يعلم بمرضك . . وقد تردّدت مراراً على منزلك للاستئجار عن صحتك . . وسرتني كثيراً أن أعلم نياً شفافك .

- ولكنني لم أتلّق قط بطاقة باسمك !

- ذلك لأنني لم أكن أترك بطاقتي .

- إذاً ، فلعلك ذلك الشاب الذي اعتاد التردّد على منزلي كل يوم للسؤال عني . . والذي كان يرفض دائماً أن يذكر اسمه للخدم .

- نعم . . إنني الشاب الذي تعين .

- لقد كان ذلك منك في غاية اللطف . . بل كان غاية الكرم .

- ورمقتني بإحدى تلك النظرات الفاحصة التي تكونُ بها المرأة رأيها في الرجل . . ثم تحوكت إلى الكونت وقالت :

- مثل هذا الكرم لم يصدر عنك أنت أيها الكونت .

فأجاب الكونت :

- ولكنني لم أعرفك إلا منذ شهرين !

فقالت :

- وهذا السيد لم يعرفني إلا منذ خمس دقائق . . فمعا أغيب أجوبتك !

وهكذا المرأة لا تعرف للرحمة معنى . . مع الرجل الذي لا يصيب هوى من نفسها .

فاحمرّ وجه الكونت . . وعض شفته .

وشعرت نحوه بشيء من الشفقة . . فقد خيّل إليّ أنه يعجبها كما أحبها . . وأن صراحة مرغريت - ولا سيما على مسمع من الغرباء -

قد خدشت كرامته وأذلت كبريائه .

قلت لأغير مجرى الحديث :

- إنك كنت تعزفين على البيانو ساعة دخولنا . . فهل لك أن تعتبريني صديقاً قديماً وتواصلني العزف بلا حرج؟

فقالت وهي تدعونا إلى الجلوس وتنهالك على مقعد وثير :

- إن غاستون يعرف نوع الموسيقى التي أعزفها . . وهي تروق لرجل مثل الكونت . . ولكنني لا أريد أن أنزل بك عقوبة سماعها .

فقال الكونت وعلى شفته ابتسامة حاول أن يكسبها معنى التهمك :

- إذا فأنت تحتكرين لي هذا الكرم؟

- إنه كل ما أستطيع أن أعده عليك .

كان واضحاً أن الكونت المسكين غير موفق في أحاديثه معها . . فنظر إليها ضارِعاً أن تقلّل من تسوئها عليه . .

قالت مرغريت :

- وأنت يا برودنس . . هل فعلت ما طلبت إليك؟

.. نعم .

- هذا حسن .. ستمرددين عليّ التفاصيل فيما بعد .. فلا
تتصرفي قبل أن أخلو بك فإن عندي ما أقوله لك .

فقلت :

- أخشى أن يكون وجودنا غير مرغوب فيه يا سيّدي .. وما
دمت قد تعرفت بك للمرة الثانية لأزيل الأثر الذي تركته في نفسك
المقابلة الأولى .. فلأني وصديقي نستأذنك الآن في الانصراف .

فقلت :

- كلاً .. كلاً .. فلست أعنيكما بكلامي .. بل على العكس إنني
أرغب في بقائكما .

وهنا أخرج الكونت من جيبه ساعة تينة نظر فيها وقال :

- لقد حان موعد ذهابي إلى المتدى .

فلم تحب مرغريت .

وتحرك الكونت من مكانه بجانب الموقد وقال :

- إلى اللقاء يا سيّدي ..

فنهضت مرغريت واقفة وهي تقول :

- إلى اللقاء ..

- نعم .. أخشى أن يكون وجودي مدعاة لضجرك ..

- إنك لا تضجبرني أكثر من المعتاد .. ولكن متى سشارك مرة

أخرى ؟

- متى سمحت ..

- إذا فالوداع ..

كان ذلك متسهي القسوة منها .. ولكن من حسن الحظ أن
الكونت كان شاباً مزودباً واسع الصدر .. فقتع بأن قبّل اليد التي
قدّمها إليه مرغريت .. وسار إلى الباب بعد أن حيّاناً .. وهناك رمق
برودنس بنظرة ذات معنى .. ولكنها هزّت كتفها .. كمن يريد أن
يقول :

- وما حيلتي ؟ لقد فعلت كل ما أستطيع فعله .

•

وصاحت مرغريت بوصيفتها :

- نائين .. رافقي الكونت إلى الباب الخارجي .

ثم سمعنا الباب الخارجي يفتح ويغلق .. فتفتفت مرغريت
الصعداء وهفت :

- لقد ذهب أخيراً .. هذا الفتى يحطم أعصابي .

فقلت برودنس :

- يا ابنتي العزيزة .. إنك في الحق شديدة القسوة عليه .. وهو
الذي يعاملك بمنتهى اللطف والكرم .. وما زلت أرى على الموقد
الساعة التينة التي أهداها إليك والتي لا يمكن أن يقل ثمنها عن
ألف من الفرنكات !

قالت ذلك .. وتناولت الساعة .. ونظرت إليها بعينين يتألق فيهما
بريق الجشع ..

وأجابت مرغريت :

- يا عزيزتي .. إنني إذا وضعت هداياي في كفة ميزان ..
ووضعت أحاديثه معي في كفة أخرى .. وجدت أنني الخاسرة في
هذه الصفقة ..

- إن هذا الفتى المسكين يحبك ..

- إذا كان يتوجّب عليّ أن أصغي إلى جميع الذين يحبونني ..
فلأنني لن أجد متسعاً من الوقت لتناول الطعام عندئذ .

ونفرت بأناملها على البيانو .. ثم تحوكت إلينا وسألت :

- هل لكم في شيء من الشراب ؟ ! إنني أريد قليلاً من النبيذ .
فقلت بروونس :

- أمّا أنا فأريد قليلاً من الطعام ..
فقال غاستون :

- هذا رأي حسن .. فهلموا بنا لتناول العشاء في أحد المطاعم .
فقالت مرغريت :

- كلاً .. ستعشى هنا في منزلي ..

ودقت الجرس فأقبلت ناين .. قالت لها :

- أرسلني في طلب طعام للعشاء يا ناين .

- أي طعام تريدان يا سديتي ؟

- أي طعام يروقك .. فقط أسرعي ..

وانصرفت ناين .. وقالت مرغريت بسرور الأطفال :

- نعم .. هذا رأي حسن .. ستناول طعام العشاء هنا .. يا

إلهي .. ما أنقل هذا الكونت الغني ! !

■

كان كل ما أراه من هذه الفتاة .. لا يزيدني إلا شغفاً بها ..

كانت ساحرة بكل ما في هذه الكلمة من معنى .. حتى نحافتها

كانت في ذاتها فتنة للناظرين ..

•

استغرقت في التفكير .. وليس في استطاعتي الآن أن أعلل
المشاعر التي اعتملت في نفسي في ذلك المساء .. فقد امتلأت عطفاً
عليها .. وإعجاباً بها .. وكان ما بدا من استقلالها الروحي
وصدورها عن المادة بتجهّنها لذلك الكونت الغني الرشيق الشاب ..
الذي جاء يخطب ودها .. وهو على استعداد لأن يضع ثروته وشرفه
تحت موطن نعلها .. كان ذلك كافياً في نظري لأن يحمو ما فرط
من آثامها .. وقبورها .. وعيها .

كان واضحاً أنها لا تزال تندفع في حياة الفسق والرذيلة .. فإن
خطواتها الثابتة .. ومرونة قامتها .. وليونة جسدها .. وانساع
عينها .. كل ذلك كان ينم عن غريزة ملتبهة عملاً الجو حولها بعبير
الجادبية الجنسية .. كما عملاً الجو بشذاها قارورة العطور التي لم
يحكم غلقها .

باختصار .. إنّ الإنسان كان يرى في مرغريت عذراء شامت
إحدى المصادفات أن تجعلها بغياً .. وبغياً قد تردها إحدى المصادفات
أيضاً عذراء طاهرة .. عملاً الدنيا حولها حباً وطهارة .. ومرحاً .

كانت لا تزال تحتفظ بكبريائها واستقلالها .. وهما شعوران إذا
خُدشا كانا جذيرين بإثارة الأفعال الذي يولد الاحتشام .

لزمّت الصمت وأنا أفكر في هذا وأمشاله .. إلى أن تحوكت إليّ
مرغريت فجأة وقالت :

- إذا فأنت الشاب الذي ذهبت تستفسر عني وأنا طريحة
الغرائش ؟ !

- نعم ..

- هل تعرف أن عملك هذا كان كريماً ونبيلاً ؟ ! بماذا أستطيع أن

أعبر لك عن شكري؟

- بالسماح لي برويتك في بعض الأحيان .

- تستطيع أن تراني كلما أردت . . بين الخامسة والسادسة مساء . .
وبين الحادية عشرة ومتصف الليل .

•

ثم راحت تعزف على البيانو وترثم بإحدى الأغاني المبتدلة . .
وكان غاستون يعرف تلك الأغنية فاشترك معها في الترتم بها .

قلت لمرغريت في غير مجاملة . . وبلهجة التوسل :

- لا تغني بالله عليك هذه الأغنية المبتدلة .

- فقالت وهي تبسم :

- ما أشد حرصك على الفضيلة ! !

وهنا قالت برودنس فجأة :

- ما هذا التمثال البديع؟

وتناولت من أحد الأركان تمثالاً صغيراً يمثل راعياً . . وتماثله
بإعجاب وجشع . فقالت مرغريت :

- خذيه إذا كان يروقك .

- ولكنني أخشى أن أخزك من هذه التحفة الجميلة يا ابنتي !

- إني أبغض هذا التمثال . . وكنت أوشك أن أنزل عنه لوصيفتي
نانين . . فخذيه إذا شئت .

فوضعت برودنس التمثال جانباً وقالت لي :

- دعهما يعزفان ويرثمان . . وتعال معي لنشاهد المنزل .

ولا حاجة بي هنا إلى وصف وكر مرغريت وما كان فيه من
التفاس وأسياب الترف . . فإنك رأيت كل شيء يوم بيع أثاثها بالمزاد .

ولكننا عندما دخلنا غرفة الاستقبال . . أشارت برودنس إلى صورة
مبثبة بالجدار وقالت لي :

- انظر . . هذه صورة (الكونت دي جـ . .) . لقد كان يحب
مرغريت حب جنون . . وهو الذي رفعها بماله ونفذه إلى هذه
المكانة بين الغانيات . . فهل تعرفه؟

فأجبت :

- كلاً . . ولكن صورة من هذه؟

وأومأت إلى صورة أخرى . . فأجابت :

- هذا هو (الفيكونت دي د . .) . وقد اضطر لاحقاً أن يهجر
مرغريت !

- لماذا؟

- لقد أنفق عليها كل ثروته . . حتى أفلس . .

- لا شك أنها كانت تحبه .

- لا أعلم . . إنها فتاة غريبة الأطوار . . وقد كانت في المسرح
ساعة رحيله . .

•

وفي هذه اللحظة أقبلت نانين ودعتا إلى المائدة .

لما دخلت غرفة الطعام . . رأيت مرغريت مستندة إلى أحد
الجدران وغاستون عمس بكلمات يديها . . وهو يقول لها كلاماً بصوت
خافت لم أسمع منه شيئاً .

ولكنني سمعت صوتها حين أجابته :

- إنك مجنون ! أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجيبك بشيء . .
أنتعرفني منذ عشرين . . ثم تطلب إليّ الآن أن أكون لك ؟ نحن

النساء نسلّم أنفسنا منذ البداية . . أو لا نسلّمها مطلقاً .

هلموا بنا لتناول الطعام .

وأقلت من يد غاستون . . واتخذت مكانها إلى المائدة بيني وبينه .
وقالت لناين :

- إذا طرق الباب طارق فقول لي إنني لا أستقبل الليلة أحداً . .
وكان صدور هذا الأمر في الساعة الواحدة صباحاً !!

*

أكلنا . . وشربنا . . وضحكنا . . وبلغ مرحنا مده . . وانقلت
مرغريت من عقل الاحتشام . . فتبدلت بعض الثكاث المبتذلة التي
كنت أرى في الظروف العادية أنها تدنس شفاه فائليها . . ولكنها
قوبلت منا بعاصفة من الضحك والتصفيق .

وقد أردت في البداية أن ألقى بنفسي في تيار هذا المرح . .
وأندمج في ذلك العبث . . ثم وجدت تدريجاً أنني أصبحت بمعزل
عن الضجيج وأن قدحي لا يزال مليئاً . . وشعرت بالحزن والألم . .
عندما رأيت تلك المخلوقة الحسناء التي لا تتجاوز العشرين من
عمرها . . وهي تحتسي الخمر بغير حساب . . وعمعن في الضحك . .
كلما بعدت الدعابة عن الأدب واللياقة .

على أن هذا المرح . . وهذا الأسلوب الوضع من أساليب الكلام
والدعابة . . وإن يكن في العادة مظهراً من مظاهر الاستهتار
والفجور . . إلا أنني رأيت فيه - فيما يختص بمرغريت - نتيجة
محتومة لرغبتها الشديدة في أن تنسى . . أو عرضاً لا مفر منه . . من
أعراض اضطرابها العصبي .

كانت كلما احتست كأساً . . كلما احمرت وجنتاها بوهج

الحمى . . واستبد بها السعال حتى أرغمها على إسناد رأسها إلى
مقعدها . . وضغطت صدرها يديها .

وتنهتت عندما فكرت في فتك هذا الإسراف في ذلك الجسد
التحيل . .

وأخيراً جاءت الأزمة التي كنت أتوقعها وأخشأها . .

فقد أصيبت مرغريت بنوبة سعال خيل إليّ معها أن صدرها
يتمزق . . وضغطت منديلها على شفثيها . .

ولمّا رفعت المنديل عن فمها . . كان ملطخاً ببقع من الدم .

فنهضت واقفة . . ووثبت إلى غرفتها .

وهتف غاستون :

- يا إلهي . . ما الذي أصاب مرغريت ؟!

فأجابت برودنس :

- لقد أسرفت في الضحك حتى تفجر الدم من رثثيها . . ولكن

لا خوف عليها . . فذلك يحدث لها كل يوم . . اتركها وشأنها . .
فإنها تفضل الوحدة في مثل هذه الحالة .

ولكني لم أر هذا الرأي . . فانطلقت في أثر مرغريت رغم رجاء

برودنس وناين .

الفصل العاشر

كانت الغرفة التي لاذت بها مرغريت مضأة بشمعة واحدة

موضوعة على إحدى المناضد .

وعلى ضوء هذه الشمعة . . رأيت مرغريت عددة على أريكة

كبيرة .. وقد حلت أضرار ثوبها .. ووضعت إحدى يديها على صدرها وتدلّت يدها الأخرى بجانبها .
ورأيت على المنضدة بجانب الشمعة وعاء فضياً مليئاً بالماء إلى منتصفه وقد تلوث الماء بخيوط من الدم ..

*

كانت مرغريت شديدة الشحوب .. وهي تلهث .. وتلتقط أنفاسها بعناء شديد .. فجلست بجانبها .. وتناولت يدها المتدلية .. فهمت وهي تبتسم :
- آه ... أهذا أنت ؟

ولا بد أن وجهي كان ينم عن حزني وألمي لأنها سألت على الأمر :

- هل أنت مريض كذلك ؟

- كلاً .. ولكن أنت .. ألا زلت تتألمين ؟

- قليلاً .

وجففت الدموع التي أطلقها السعال من عينيها .. وقالت :

- لقد ألقت هذا الألم .

فقلت لها بصوت يرتجف من الأفعال :

- إنك تقتلين نفسك يا سيمدتي .. لستني كنت واحداً من أصدقائك أو أقاربك .. إذا لحظرت عليك أن توردي نفسك موارد الهلكة .

فأجابت بشيء من المראה :

- آه .. أؤكد أنه ليس ثمة ما يستوجب اهتمامك إلى هذا الحد .. انظر كيف يهتم الآخرون بي ! إنهم يعلمون أنه لا يمكن عمل شيء

من أجلي .. لا شيء .

ثم نهضت .. وتناولت الشمعة ووضعتها على حافة الموقد .. ونظرت إلى نفسها في المرآة ..

قالت وهي تمرّر أصابعها في شعرها المضطرب :

- ما أشد شحوبي .. ولكن لا بأس .. فلنعد إلى المائدة أيها

الصديق .. ألا تأتي ؟

ولكنني لم أتحرك من مكاني ..

ولا بد أنها شعرت بشدة تأثري بعد هذا المنظر الذي شهدته ..

لأنها اقتربت مني .. وسطت إليّ يدها وهي تقول :

- تعال .. هلم بنا .

فتناولت يدها .. ورفعتها إلى شفتي .

وعندئذ سقطت على يدها - بالرغم مني - دموع حبستها طويلاً .

فهضت وهي تجلس بجانبني :

- ماذا ؟ هل أنت طفل ! إنك تبكي .. فماذا حدث ؟

- قد أبدو في نظرك غمّاً ساذجاً .. ولكن الواقع .. أن ما رأيته

الآن أحزني وألمني .

- ما أكرم خلقك ! ولكن ماذا تنتظر مني ؟ إنني لا أستطيع أن

أنام .. ويجب أن أرق عن نفسي بطريقة ما .. وبعد .. فإن حياة أو

موت فتاة من طرازي لا يقدم ولا يؤخر .

يقول الأطباء إنّ الدم الذي ينبثق من فمي .. مصدره الخلق ..

وأنا أنظاها بتصديقهم .. وذلك كل ما أستطيع فعله .

فقلت لها بجدّة :

- أصغي إليّ يا مرغريت .. إنني لا أعلم أي دور قدّر لك أن

تلعبه في حياتي ومستقبلي .. ولكني أعلم فقط أنه لا يوجد في هذه اللحظة إنسان - حتى ولا אחتي - يهتمني أمره كما أهتم بأمرك .. وقد كان ذلك هو الحال منذ وقع بصري عليك أول مرة .. لذلك أضرع إليك أن تعني بنفسك .. وألا تثابري على هذه الحياة التي تحببها ..

- إذا عانيت بنفسي كما تقول فإني أموت .. والواقع أن هذه الحياة المضطربة المغمومة هي وحدها ما يمسك رمقي .. أضف إلى ذلك أن العناية المرأة بنفسها أمر لا يتيسر إلا للنساء الشريقات اللاتي يستمتعن بحياة الأسرة .. وبصداقة الأصدقاء .. أما نحن فإنا لا نكاد نعجز عن إرضاء عשאفتنا وإشباع صلفهم .. وإرضاء شهواتهم .. حتى ينفضوا من حولنا .. وتعاقب علينا الليالي الطويلة بعد الأيام الطويلة ..

إني أعرف كل ذلك .. لأني لزممت الفراش شهرين .. فلم يزرني خلالها أحد بعد الأسبوع الثالث ..

فأجبت :

- صحيح أنني لا تربطني بك إحدى الروابط أو الصلات .. ولكن إذا سمحت لي بأن أسهر عليك .. كما يسهر الأخ على أخته .. فإني لا أتركك حتى تشفي من سقمك ..

ومنى استرددت قواك .. فلك - إذا شئت - أن تعودني إلى الحياة التي تحببها الآن .. ولكنني موقن من أنك سوف تؤثرين الحياة الهادئة الوداعة لأنها الحياة التي ترد عليك سعادتك .. وتحفظ لك جمالك ..

- هذه هي خواطرك الليلية فقط .. لأن الخمر أدخلت الكآبة على

نفسك .. ولكن سوف يفرغ صبرك ويضيق صدرك قبل أن تفعل شيئاً مما تقول ..

- اسمحي لي أن أذكرك يا مرغريت بأنك لزممت الفراش شهرين .. وأنتي كنت أتردد على بيتك يومياً طيلة هذين الشهرين للاستفسار عنك والاطمئنان على صحتك ..

- هذا صحيح .. ولكن لماذا لم تصعد إلى غرفتي ؟

- لأني لم أكن قد تعرفت بك بعد ..

- وهل مع فتاة من طرازي يحرص الناس على مثل هذه التقاليد ؟

- من واجب الرجل دائماً أن يحترم المرأة .. أو أن هذا الاحترام على الأقل من أولى مبادئ ..

- إذا فأنت على استعداد للعناية بي والسهر علي ؟

- نعم ..

- وهل تقضي النهار كله بجاني ؟

- نعم ..

- والليل أيضاً ؟

- إذا لم يكن في بقائي ما يضايقك ..

- وماذا تسمي هذا ؟

- أسميه إخلاصاً ..

- وعن أية عاطفة يصدر هذا الإخلاص ؟ !

- يصدر عما أشعر به من العطف عليك ..

- فأنت تحبني إذا ؟ قل ذلك في الحال .. فذلك أبسط من اللف

والدوران ..

- ربما كنت أحبك .. ولكن إذا كان مقتراً لي أن أصارحك بذلك

يوماً ما .. فاني لن أفعل ذلك الآن .

- من الأفضل ألا تصارحني بذلك أبداً .

- لماذا؟

- لأنّ مثل هذا الاعتراف لا يسفر إلا عن أحد أمرين .

- وهما .. 1 .

- هما إمّا أن أرفضك .. فتغضب .. أو أرضى بك فتكون لك

عشيقة مريضة حزينة .. إذا نظاهزت بالمرح يوماً كان مرحها أمرّ من

الحزن .. عشيقة تنفث رشاها دماً .. وتنفق مائة ألف فرنك في

العام .. وهو مبلغ يلائم شيخاً وديعاً كالذوق ولكنه لا يلائم شاباً

مثلك .. والدليل على ذلك أن جميع عشاقني من الشباب ما لبثوا أن

فروا مني لعظم إنفاقي .

- لم أجبها ..

فقد عقد الأثم لسائني بعد صراحتها التي تشبه الاعتراف .. ويعد

الذي شاهده من بواطن حياتها النعسة المستهرة الكامنة تحت غطاء

براق .

قالت مرغريت :

- هيا بنا .. إنّنا نتحدّث فيما لا طائل نحته .. هات يدك .. وهلم

بنا نعود إلى غرفة الطعام .. قبل أن يدعشهم غيابنا .

- عودي إذا شئت .. ولكنني أرجوك أن تسمحني لي بالبقاء هنا

وحددي .

- لماذا؟

- لأنّ مرحك يحزنني ويؤلمني .

- حسناً .. سأكون حزينة إذا .. ولن أفرح .

- أصفي إليّ يا مرغريت .. دعيني أقول لك كلاماً لا شك أنك

سمعت مثله قبل الآن .. وطرق أذنيك مراراً حتّى نفرت منه ..

وضاعت ثقتك فيه .. ولكنه مع ذلك كلام حقيقي .

فقلت وعلى شفيتها ابتسامة الأم حين تصفي إلى سخافات ابنها :

- وهذا الكلام هو .. 19 .

- هو أنني منذ رأيتك وأنت تحتلين مكانة في حياتي .. وقد

حاولت مراراً أن أنسخ صورتك من ذهني .. ولكن عبثاً حاولت ..

واليوم بعد عامين لم أرك في خلاليهما .. وبعد أن عرفتك ..

وعرفت ما أنت عليه من خلق .. أشعر بأنك أصبحت أشد سيطرة

على قلبي وعقلي ممّا كنت في أي وقت مضى .. بل وأشعر بأنك

صرت واقعاً ضرورياً لحياتي .. وأناجي أجن .. ليس فقط إذا

صددتني .. وإنما كذلك إذا لم تسمح لي بأن أحبك .

- في هذه الحالة أيها الشاب التمس يجب عليّ أن أفعل ما فعلته

مدام (د .) إذ قالت لرجل يخطب ودها فأنت إذا واسع الغنى؟ !

أفلا تعلم أنني أنفق سبعة آلاف من الفرنكات شهرياً .. وأنّ هذا

التبذير أصبح ضرورياً لكياني؟ !

ألا تشعر أيها الصديق المسكين بأنني إذا عاشرتك فأجلب عليك

الدمار والعار في أقصر وقت .. وأن أسرتك سوف تبذل لك

تعاشر مخلوقة مثلي؟

أحبيني إذا شئت .. أحبيني كصديقة أثيرة .. ولكن لا شيء غير

ذلك .

وتعال لقابلتي كلّما أردت .. فتتحدث معاً وتضحك معاً ..

ولكن لا تبالي في تفويهم أمري .. ولا تتخضع بقيمتي .. فإني في الحقيقة لا أسأري شيئاً مذكوراً ..

إنك طيب القلب وبحاجة إلى من يحبك .. وأنت كذلك في مستقبل العمر .. ولك ثروة من الإحساس النبيل تنفر من الحياة التي تحياها مثيلاًتي .. فامنع حبك إلى إحدى العذارى الطاهرات .. أو اخطب ود إحدى النساء الشريقات .. أما أنا .. أنا ..

وصمتت لحظة واستطردت :

- إني أتحدث إليك في صراحة يا صديقي .

وفي هذه اللحظة أتبلت برودنس وهي تصيح :

- يا للهول .. ماذا تفعلان هنا كل هذا الوقت؟

فأجابت مرغريت :

- إننا نتحدث .. فدعينا لحظة .. وسنلتحق بكما .

- حسناً .. حسناً .. على رسلكما يا ولدي .. تحدثا ما شئتما .

قالت ذلك في خبث .. وبدت أشد خبثاً حين أغلقت الباب

وراءها .

ولمّا انفردتا .. قالت مرغريت :

- اتفقنا إذاً على ألاّ نتحدث بعد الآن؟

- سأرحل .

- إلى هذا الحد؟

والواقع أن الرجوع عما عزم عليه أصبح مستحيلاً .. أضف إلى ذلك أن جاذبيتها لي كانت لا تقاوم .. فهذا المزيج بين الحزن والمرح .. وهذه الصراحة وهذه الحياة الفطرية .. بل وهذا المرض الذي يرهف مشاعرها .. ويحرك غرائزها .. ذلك أشعرنني بأنني إذا

لم أفتح في السيطرة عليها لأزل وهلة .. فإني أفقدها إلى الأبد .
قالت :

- صبراً .. صبراً .. هل أنت جاد في كل ما قلت لي؟

- نعم ..

- ولكن لماذا لم تصارحنني قبل الآن؟

- متى كان ينبغي أن أصرحك؟

- غداً لقائنا في (الأوبرا كوميك) مثلاً؟

- أظن أنك كنت تنفرين مني لو قابلتك وقتذاك .

- لماذا؟

- لأن سلوكي كان سخيفاً ..

- هذا صحيح .. ولكن هل كنت تعينني في ذلك الوقت؟

- نعم ..

- ومع ذلك فقد انصرفرت من المسرح إلى دارك .. حيث

استمتعت بالنوم الهنيء .. دون أن يزعجك ما كان بيننا من لقاء!

- أخطأت .. فهل تعلمين ماذا فعلت تلك الليلة؟

- كلا!

- إنني تيسعتك إلى المطعم الإنجليزي .. وانتظرتك هناك .. ثم

تبعت المركبة التي أقلتك مع رفاقك الثلاثة .. ولما رأيتك تدخلين

المنزل بمفردك .. شعرت بسعادة لا توصف .

فانفجرت مرغريت ضاحكة ..

- لماذا تضحكين؟

- لا شيء ..

- أرجو أن تصارحيني . . . والآن اعتقدت أنك ما زلت تسخرين مني !

- ألا تغضب إذا صارحك؟

- وبأي حق أغضب؟

- أعلم إذا . . . ما دمت تريد أن تعلم . . . أنني دخلت المنزل بمفردي لسبب معقول . . .

- ومو؟

- هو أن بعضهم كان يتظرني في الداخل . . .

لو أنها طعنني بخنجر ما ألتقي الطعنة كما تأملت في تلك اللحظة .

نهضت واقفاً . . . وبسطت إليها يدي وأنا أقول :

- وداعاً .

فأجابت :

- كنت أعلم أنك متزعج وتآلم . . . ذلك شأن الرجال جميعاً . . . إنهم يصرون على معرفة ما يزعجهم ويقضيه .

قلت بلهجة فاترة . . . لكي أثبت لها أنني شغيت من جنوني إلى الأبد :

- أؤكد لك أنني لست مغضباً . . . لقد كان طبعياً جداً أن ينتظر بعضهم في الداخل . . . وطبعياً جداً الآن أن أستأذن في الانصراف .

- لعل هناك أيضاً من يتظر من بيتك في منزلك؟

- كلا . . . ولكن يجب أن أذهب . . .

- وداعاً إذا .

- أتعرفينني؟

- كلا . . . أنا لا أطردك بأية حال .

- لماذا تعملين إذاً على إيلامي؟

- وكيف أملك؟

- قلت لي إن بعضهم كان يتظرني حين دخلت بمفردي .

- إنني لم أملك من الضحك عندما تصورت سرورك لهجرت دخولي إلى منزلي منفردة . . . بينما كان هناك سبب وجيه لذلك .

- في بعض الأحيان يجد الإنسان في ناحية من نواحي ضعفه مصدراً للسعادة . . . ومن القسوة بدم هذه السعادة يهدم مصدرها . . .

- من تظنني إذاً أيها المسكين؟ إنني لست من العذارى الطاهرات . . . ولست من الدوقات أو المركيزات ! ثم إنني لم أعرفك إلا اليوم . . . وليس من حقلك علي أن أقدم لك حساباً عن أفعالي وسلوكي؟ وعلى فرض أنني أصبحت صاحبك في أحد الأيام . . .

فيجب أن تعلم حق العلم بأنه كان لي قبلك عشاق كثيرون . . . فإذا شرعت منذ الآن في مضايقتي بغير شك فماذا يكون (فيما بعد)؟

إذا كان هناك (فيما بعد) على الإطلاق؟ إنني في الواقع لم أعرف قط رجلاً مثلك .

- ذلك لأن أحداً لم يحبك قط كما أحبك .

- تكلم . . . وكن صريحاً . . . هل تحبني حقاً إلى هذا الحد؟

- إنني أحبك إلى أقصى ما يمكن الرجل أن يحب امرأة .

- وقد استمر هذا الحب منذ . . .

- منذ رأيتك في أحد الأيام متججراً للآزياء في ميدان الأوبرا . . . وذلك منذ ثلاثة أعوام تقريباً .

- هل تعلم أن ذلك جميل منك .. وماذا يجب أن أصنع لأعبر
لك عن وفائي لهذا الحب الكبير؟

فأجبت وقلبي يكاد يشب من حلقتي :
- حاولي أن تحبيني قليلاً .

وشعرت .. رغم الابتسامة الساخرة التي لم تغب عن شفثيها
طيلة هذا الحديث .. أنها بدأت تشاطر عاطفتي .. وأن الساعة التي
طلما انتظرتها بقلق وفروغ صبر قد دنت .

قالت :

- والدوق؟

- أي دوق؟

- صديقي العجوز الغيور .

- إنه لن يعلم بما بيننا .

- وإذا علم؟

- اتحسبني يغفر لك إذا علم؟

- كلا .. والأسفاه .. إنه يهجرني .. ولا أعلم ما يكون من أمري
بعد ذلك .

- إنك تجازفين بهجرانه فعلاً .. من أجل رجل سواي .

- وكيف علمت ذلك؟

- من الأوامر التي أصدرتها في بداية السهرة .. فقدت أمرت
وصيفتك بالألا تسمح لكائن من كان بزيارتك هذه الليلة .

- ليس لك أن تأخذ على ذلك .. فما أصدرت هذا الأمر إلا
لأستقبلك أنت وصديقك غامتون .

وكنت قد اقتربت منها .. فأحطت خصرها بساعدي .. فلم تنظر

مني .. وأسندت جسدها بلطف على يدي .
وهمت :

- لو تعلمين فقط كم أحبك؟ !

- أتقول حقاً؟

- أقسم لك .

- حسناً .. إذا وعدتني بأن تطيع رغباتي .. دون أن تسأل .. أو
أن تعترض .. فإنني ربما .. أحبك .

- أعدك بأن أفعل كل ما تريد .

- ولكنني أحذرك من الآن .. بأنه يجب أن يكون لي مطلق الحرية
في أن أفعل ما يروفتي .. دون أن أقدم لك حساباً أو إيضاحاً .

لقد بحثت طويلاً عن عاشق شاب لا يعرف الحب وسوء
الظن .. أستطيع أن أحبه دون أن يرى من حقه أن يكون محبوباً ..
ولكن لم أوفق قط إلى مثل هذا العاشق .. ذلك لأن الرجال بدلاً
من أن يكونوا راضين قائمين بأننا نعطيه من أنفسنا مراراً ما كانوا
يحلمون به ولو مرة واحدة .. تراهم يطالبوننا بأن نقدم لهم
حساباً .. عن الماضي والحاضر بل وعن المستقبل كذلك .. وكلما
اشتدت الألفة بيننا وبينهم .. كلما تضاعفت رغبتهم في السيطرة
علينا .. واشتد حرصهم على كل امتياز ينالونه منا .

فإذا خطر لي الآن أن أتخذ لنفسني عشيقاً جديداً .. فإنني أشرط
فيه امتلاك هذه الصفات الثلاث النادرة .. وهي الثقة والخضوع
والكتمان .

- هذا حسن .. مستجديني كما تريد .

- سوف نرى .

- ومتى نرى؟

- فيما بعد ..

- ولماذا لا يكون الآن؟

- لأنه ليس من الممكن دائماً تنفيذ المعاهدات يوم إبرامها ..

- فقلت وأنا أضغطها إلى صدري :

- ومتى أراك مرة أخرى؟

- غداً بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل .. فهل يرضيك

ذلك؟

- وهل أنت بحاجة إلى مثل هذا السؤال؟

- لا ثقل عن ذلك كلمة واحدة لصديقك .. أو لبرودنس .. أو

لأي إنسان آخر ..

- نقي بي .

- والآن .. قبّلي .. ولتعد إلى غرفة الطعام .

- وقدمت إليّ شفتيها .. ثم أصلحت شعرها . وعدنا إلى غرفة

الطعام وهي تغني .. وأنا شبه مجنون .

- ولعنا اقتربنا من باب الغرفة .. تريت قليلاً .. ولبّلت في

همس :

- قد يبدو لك غريباً ما رأيت من استعدادي لقبولك بمثل هذه

السرعة .. فهل تعرف السبب؟

- فنظرت إليها متسائلاً .. وتناولت يدي .. ووضعتها على قلبها ..

وكان يخفق بشدة ..

واستطردت :

- السبب هو أنني لن أعيش طويلاً .. وأني قررت لذلك أن أحيا

حياة سريعة ..

- أضرع إليك ألا تنقصي سعادتي بمثل هذا الكلام ..

- فقالت ضاحكة :

- لا تحزن ولا تبتئس .. فمهما تكن حياتي قصيرة فإنها ستكون

أطول عمراً من حبك لي .

- ودخلت الغرفة وهي تغني في جذل .

- ثم لاحظت أن برودنس وغاستون وحدهما في الغرفة فسألت :

- وأين نائين !

- فأجابت برودنس :

- إنها نائمة في غرفتك .. في انتظار موعد رقادك ..

- مسكينة هذه الفتاة .. إنني أقتلها بهراتي الطويلة .. هلموا أيها

السادة ... لقد حان وقت انصرافكم ..

- وبعد بضع دقائق .. استأذنت وصديقي في الانصراف .. وشددت

مرغزيت على يدي وهي تودّعني .. ولكنها استبقت برودنس

معها ..

*

- سألتني غاستون ونحن في طريقنا :

- ماذا كنت تقول لمرغزيت؟

- إنها ملاك .. وأعتقد أنني غرقت في حبها يا صديقي .

- هذا ما توقّعت .. وهل اعترفت لها بحبك؟

- نعم .

- وهل وعدتك بشيء؟

- كلا ..

- إنها في ذلك تختلف عن برودنس .. ولا شك أنك لن تصدقني إذا قلت لك إن هذه المرأة البدينة لا تزال تحتفظ بحرارة الشباب !

الفصل الحادي عشر

وكفّ أرمأن عن الكلام حين بلغ بقصته هذا المبلغ .. وقال لي :
- هل لك أن تغلق النافذة ؟ لقد بدأت أشعر بالبرد .. وسألوذ بفراشي .

فأغلقت النافذة .. واضطجع أرمأن في فراشه .. وأسند رأسه إلى الوسادة لحظة .. شأن الرجل الذي أضناه السهر الطويل .. أو أمضته الذكريات المؤلمة ..
قلت له :

- لعلك أسرفت في الكلام .. فهل أنصرف وأتركك لتنام وترجئ سرد القصة إلى يوم آخر .
- وهل أسامك حديثي ؟
- على العكس .. إنه أثار فضولي .
- إذا سأمتني في قصتي .. فإنك إذا تركتني وحيداً .. فلن يغمض لي جفن .

واستطرد :

عندما عدت إلى منزلي .. أخذت أسترجع في ذهني كل ما حدث لي في ذلك المساء ... منذ رأيت مرغريت ... إلى أن

قطعت على نفسها ذلك العهد ... وكيف حدث كل ذلك بسرعة .. ودون تدبير سابق .. حتى خيل إليّ في بعض الأحيان أن ذلك كله لم يكن إلا وهماً أو حلماً من الأحلام .

على أن هذه لم تكن أول مرة تعدّ فيها فتاة مثل مرغريت بأن تسلّم نفسها لأحد عشاقها غداة اليوم الذي عرفته فيه ..

وقد كان يحسن بي أن أفكر على هذا النحو .. ولكن الأثر الذي تركته مرغريت في نفسي .. أضلني عن سبيل التفكير السليم .. فرفضت أن أرى فيها بغيّاً كسائر البغايا .. ودفعني الغرور الغريزي في نفوس الرجال جميعاً إلى الاعتقاد بأنها تبادلني عاطفتي .. وأنها تشعر نحوي بمثل ما أشعر نحوها .

ومع ذلك فقد كانت لديّ الأدلة التي تدحض هذا الاعتقاد .. وطالما سمعت بأن حب مرغريت سلعة تباغ وتشتري .. ويرتفع ثمنها ويهبط وفقاً للظروف ونزولاً على قانون العرض والطلب .

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الذي سمعت .. وبين إصرار مرغريت على نيل الكونت الشاب الذي قابلناه في بيتها ؟

لغائل أن يقول إن هذا الكونت لم يصب هوى من نفسها .. وأنها وهي التي تنعم بالرفاهة في كتف الدوق .. إذا خطر لها أن تتخذ لنفسها عشيقاً جديداً .. فإنها تفضل أن يكون هذا العشيق رجلاً قليل إليه ..

ولكن إذا صح هذا الافتراض .. فلماذا صدّت غاستون .. وهو الظريف .. الغني .. العذب الحديث .. وأثرتني عليه .. أنا الذي كنت في المقابلة الأولى حقيقاً بسخريتها وهزتها ؟

إن حوادث لحظة واحدة حقاً قد تؤثر في حياتنا ومصائرنا كما لا

تؤثر حوادث عام كامل!

لقد كنت أنا الوحيد الذي آله أن يراها تضر من غرفة الطعام
وصدرها يكاد يتمزق من تأثير السعال .. فتبعته .. ولم أكتسها
تأثري وحزني على ما ألم بها .

ولعلّ هذا الحادث .. مضافاً إليه اهتمامي بالاستفسار عنها في
إبان مرضها .. قد جعلها ترى في رجلاً يختلف عن سائر الرجال
الذين قابلتهم من قبل .. ولعلها وجدت أنها تستطيع أن تشب هذا
الشعور الكريم من ناحيتي بأن تنيلني من نفسها ما أنالته غيري مراراً
حتى لم يبق له عندها أية أهمية .

كل هذه الفروض كانت محتملة كما ترى .. ولكن مهما يكن
الدافع إلى رضاها .. فهناك أمر واحد مؤكد .. هو أنها رضيت ..
وذلك كل ما يهمني ..

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة .. كنت نهباً موزعاً بين
الشك واليقين .. أشعر تارة بأنني لست من الأثقة والرشاقة والغنى
بحيث يجوز لي أن أملك هذه المرأة .. وأحس تارة أخرى بالخلاء
لأنني ملكتها .. أو على الأقل أوشكت أن أملكها ..

وداخلتي الشكوك والريب .. وأشفقت أن يكون شغف مرغريت
بي نزوة عارضة .. تدوم يوماً أو أسبوعاً أو أكثر أو أقل .. ثم تكون
القطيعة الفجائية .. والفرقة الأبدية ! وبلغ من تشاؤمي أن فكرت في
الامتناع عن مقابلتها في اليوم التالي .. والكتابة إليها بما يهيج في
نقي .

ثم انتقلت من التشاؤم والياس .. إلى الثقة التي لا حدود لها ..
والأمل الذي لا نهاية له .. فرأيت المستقبل في باقة الورود ..

وقلت لنفسني سوف تدن لي هذه الفتاة بشفاء جسدها .. ويره
روحها .. وسوف أقضي معها بقية حياتي .. وأجد في حبها من
السعادة ما لا أجده في حب أظهر العقاري وأشرف النساء .

ولا أستطيع في الواقع أن أعده لك آلاف الأفكار والخواطر التي
انبعثت من قلبي .. إلى عقلي .. وتبخرت شيئاً فشيئاً مع سنة
التعاس الذي غلبني عند مطلع الفجر .

وعندما استيقظت في اليوم التالي كانت الساعة الثانية بعد
الظهر .. وكان الجو رافقاً .

ولست أذكر أن الحياة كانت في نظري أجمل ولا أضمن مما بدت
لي في ذلك اليوم .. فقد زالت الشكوك والريب التي طافت بنفسي
في اليوم السابق .. ولم يبق إلا أعذب الآمال والأحلام .

ووجب قلبي .. وتوترت أعصابي توتراً ممتعاً عندما تذكرت
موعدي مع مرغريت .

كانت غرقتي أضيق من أن تتسع لسعادتي .. فارتديت ثيابي على
عجل .. وانصرفت من المنزل .. ولكنني لا أدري كيف قضيت
ساعات النهار .

مشيت كثيراً .. ودخلت كثيراً .. وعُدت إلى الكثيرين .. فلما
كانت الساعة السابعة .. لم أعد أذكر أين ذهبت .. ومن قابلت ..
وماذا قلت ..

وكل ما أذكره .. أنني عدت إلى المنزل .. وقضيت ثلاث ساعات
في إصلاح هندامي .. ونظرت مشات المرات إلى ساعتني .. وإلى

ساعة الجدار .. ولكنهما لسوء حظي كانتا متفتحتين .. لا تسبق
إحدهما الأخرى .

ولمّا دقت الساعة نصفاً بعد العاشرة .. انطلقت إلى شارع
دانتان .. ونظرت إلى نوافذ مرغريت .. فرأيت النور ينبعث منها .

•

طوقت الباب .. وسألت البواب إن كانت الأتيسة مرغريت جوتيه
في منزلها .. فأجاب أنها لا تعود أبداً قبل الساعة الحادية عشرة .
نظرت إلى ساعتي ..

كنت أظن أنني سرت على مهل .. فوجدت أنني قطعت المسافة
بين بروفلانس (حيث أقيم) وشارع دانتان (حيث تقيم مرغريت) في
خمس دقائق؟

•

وأخذت أسير في الشارع جيئةً وذهاباً .. وكانت حوائثه مغلقة
في تلك الساعة .. وقد سادته الصمت والسكون .. وأقصر من
السابلة .

وبعد نصف ساعة أقبلت مرغريت .. فهبطت من مركبتها ..
ونظرت حولها كأنها تبحث عن إنسان ما .

واقتربت منها وهي تهم بأن تفرع الباب .. وقلت لها محيياً :

- طاب مساؤك .

فهتفت بصوت لا يسم عن سرورها بلفظي :

- آه .. أهذا أنت؟

- ألم تسمح لي بزيارتك الليلة؟

- آه .. هذا صحيح .. لقد نسيت ..

وطيّرت هذه العبارة أحلام الليل .. وآمال النهار .. ولكنني كنت
بدأت أعرف شذوذها وغرابة أطوارها .. فلم أنصرف .. وبقيت إلى
جانبها .

ودخلنا المنزل معاً .. وسألت مرغريت وصيفتها :

- هل عادت برودنس إلى بيتها؟

- كلاً يا سيدي ..

- قل لي لخادمتها إنني أريد مقابلتها بمجرد عودتها .. ولكن أضيئي
غرفة الاستقبال أولاً .. وإذا سال عني سائل فقلولي إنني لم أعد ..
وإنني لا أعود الليلة .

وكان يبدو عليها أنها في شغل بامر ما .. فلم أدر أيهما أنسب ..
الصمت أو الكلام .

وقصدت مرغريت إلى مخدعها .. وبقيت في مكاني .. فقالت :

- تعال .

وخلعت قبعتها ومعطفها .. ونهالكت في مقعد كبير بالقرب من
الموقد .. قالت :

- ماذا عندك من الأنباء؟

- لا شيء .. إلا أنني أخطأت في زيارتك الليلة .

- لماذا؟

- لأن الانزعاج يبدو عليك .. ولا شك أن وجودي يضايقك .

- إنك لا تضايقني .. ولكنني مريضة .. ولم أذق طعم النوم ..

وأشعر بضداع شديد .

- فهل أنصرف ليتسنى لك بعض الرقاد؟

- كلاً .. في استطاعتك أن تبقى .

وفي هذه اللحظة دق الجرس .. فتحركت يدها في ضجر
وامتناع وحفت :

- من ذا الذي يقرع الجرس ؟

ودق الجرس مرة أخرى فقلت :

- إذا ، فلا يوجد من يفتح الباب .. ويجب أن أفتحه بنفسى .
ونفضت وهي تقول لى :

- انتظرني هنا ..

ومرت بين الغرف وفتحت الباب .. فأرغفت السمع وأنصت .

ودخل الشخص الذي قشحت له الباب .. وتكلمت .. فعرغت
في الحال صوت (الكونت دي ن ..) الذي رأيته عندها بالأمس .

سألها :

- كيف أنت هذا المساء ؟

فأجابته بلهجة جافة :

- إني مريضة ..

- هل يزعجك وجودي ؟

- ربما .

- يا إلهي .. ما أشد قساوتك يا عزيزتي مرغريت ! ماذا افترفت

ليكون جزائي منك هذه الخشونة ؟

- يا صديقي العزيز .. إنك لم تفعل بي شيئاً .. ولكنى مريضة
ويجب أن أذهب إلى فراشي .. وأكون شاكسة لك إذا تفضلت

بالانصراف ... يا إلهي ... ألا أعود إلى منزلي يوماً دون أن أراك
تطرق بابي بعد خمس دقائق ؟ ماذا تريد مني ؟؟ أن أكون عشيقتك !

لقد قلت لك مائة مرة إنك تضايقني إلى أقصى حد .. وإنه يحسن

بك أن تذهب إلى سواي .. وأقول لك للمرة الأخيرة إنني لا أريد أن
تكون لى بك صلة .. فهل فهمتني ؟! وداعاً إذاً .. آه .. ها هي
نائين .. إنها سترافك إلى الباب .. طاب مناؤك .

ولم تنطق بكلمة أخرى .. ولم تصغ إلى كلمة واحدة من
العبارات التي اضطريت على شفتي الشاب .. وعادت إلى الغرفة
وهي مقضبة .. وأغلقت الباب بعنف .

ودخلت نائين بعد لحظة .. فصاحت بها مرغريت :

- قولي دائماً لهذا الأحمق إنني لست هنا .. أو إنني لا أريد
مقابلته .. لقد تعبت أخيراً من مقابلة كل هؤلاء الناس الذين
يجيئونني دائماً للغرض ذاته .. والذين يعطونني مالاً ثم يعطون أنا
سواسية .

لو عرفت مثيلتها هذه الحرفة المنجلة .. المهينة على حقيقتها ..
لأجرن الخدمة على احتراقها .. ولكن لا .. إن الغرور ..
والخيلاء .. وحب الثياب .. والمركبات .. والمجوهرات .. كل ذلك
يجتذبتنا إلى قرارة الهاربة .. وفي سبيلها نذيب بالتدريج قلوبنا ..
وأجسادنا .. وجمالنا .. ونحن مع ذلك مرهوبات كالوحوش
الضارية .. ومحتقرات كالمسبوزين .. وأولئك الذين يحيطون بنا أغما
يريدون منا أكثر مما يعطون .. وسيبقى هذا حالنا حتى تهلك في
أحد الأيام كما تهلك الكلاب .. بعد أن تكون قد جلبنا الخراب
على الآخرين .. وعلى أنفسنا .

فقلت نائين :

- هونى على نفسك يا سيدتي .. إنك مضطربة الأعصاب هذا
المساء ..

فصاحت مرغريت .. وهي تنزع ثوبها بعنف :

- هذه الثياب تضايقتني .. أعطيني دثاراً .. ثم أين برودنس؟

- لم تعد بعد يا سيدتي .. ولكنها ستقابلك بمجرد عودتها ..

فقالت مرغريت وهي تخلع ثوبها :

- ها هي مخلوقة أخرى تعرف كيف تقابلني متى احتاجت إلى

معونتي .. ولكنها لا تقدم لي إحدى الخدمات حتى تمزق أعصابي ..

إنها تعلم أنني أنتظر البردة الليلة .. وأنت في أشد القلق .. ولكنها

بغير شك قد ذهبت لبعض شأنها دون أن تهتم لأمرى ..

- ربما عرقها عائق ..

- أريد بعض التبيد ..

- إنه يزيد مرضك يا سيدتي ..

- ذلك أفضل .. وأريد كذلك جناح دجاجة وبعض التبيد .. هيا

أسرعي .. فإنني جائعة ..

ومن تحصيل الحاصل طبعاً أن أصف تأثير هذا المنظر في نفسي ..

قالت لي :

- إنك ستتناول طعام العشاء معي .. فاقرأ في أحد الكتب ريثما

أذهب إلى غرفة ثيابي ..

وأضاءت الشموع .. وفتحت باباً بالقرب من فراشها ..

واختفت ..

أما أنا .. فقد ذهبت أفكر في الحياة التي تحياها هذه الفتاة

المسكينة .. وامتزج حبي لها بالإشفاق عليها ..

وكنت لا أزال بمفردي في الغرفة .. حين دخلت برودنس ..

هضت :

- أنت هنا؟ وأين مرغريت؟

- إنها في غرفة الثياب ..

- سأنتظرها إذاً .. ولكن هل تعلم أنك أصبت هوئى من نفسها؟

- كلا ..

- ألم تذكر لك هي شيئاً بهذا المعنى؟

- كلا ..

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لزيارتها ..

- في منتصف الليل؟

- ولم لا .. ومع ذلك فإنها استقبلتني أسوأ استقبال ..

- إنها ستحسن استقبالك في الحال ..

- أتظنين ذلك؟

- إنني أحمل لها نياً ساراً ..

- هذا حسن .. وإذاً ، فقد حدثتك عني؟

- نعم بعد انصرافك أمس مع صاحبك .. وبهذه المناسبة .. كيف

حال صديقك؟ إنه يدعى غاستون .. أليس كذلك؟

- نعم ..

ولم أقالك من الإتيام عندما تذكرت الحديث الذي أسره إلي

غاستون بالأمس .. ورأيت أن برودنس لا تكاد تعرف اسمه ..

قالت :

- إنه شاب ظريف .. فما مهته؟

- إنه لا يؤدي عملاً على الإطلاق .. وإيراده السنوي خمسة

وعشرون ألفاً من الفرنكات .

- آه .. أحقاً ما تقول؟ ولكن لتحدث عنك أنت .. لقد ألفت عليّ مرغريت عشرات الأسئلة ..

أرادت أن تعرف من أنت .. وما هو عملك .. وكيف تقضي وقتك .. ومن هم عشيقاتك السابقات .. وبالاختصار .. كل ما يهم المرأة معرفته عن شاب في مثل سنك . فحدثتها بكل ما أعرف .. وأضفت إلى ذلك أنك شاب ظريف ..

- شكراً لك .. والآن أنبئيني .. ما هي المهمة التي كلفتك بها أمس؟

- إنها لم تكلفني أمس بأية مهمة .. اللهم إلا العمل على التخلص من الكونت .. بيد أنها كلفني اليوم بمهمة أخرى .. وهي تنتظر الآن نتيجتها .

وفي هذه اللحظة أقبلت مرغريت .. وقد زينت شعرها الجميل بأشرطة حريرية صفراء .. وما إن وقع بصرها على برودنس حتى هفتت :

- هل قابلت الدوق؟ ماذا قال لك؟

- لقد أعطاني ..

- كم أعطاك؟

- ستة آلاف .

- هل جئت بها؟

- نعم .

- هل بدا عليه شيء من دلائل الضجر والسأم؟

- كلاً .

- مسكين هذا الرجل !

وقد نظقت بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة يتعذر فهم مغزاها . ثم تناولت من برودنس ست أوراق مالية واستطردت :

- لقد جاء هذا المبلغ في الوقت المناسب .. فهل أنت بحاجة إلى شيء من النقود يا عزيزتي برودنس؟

- أنت تعلمين يا بنيتي .. أنا غداً هو اليوم الخامس عشر من الشهر وأنه يتعين عليّ سداد لائحة من الديون .. فإذا أقرضتني ثلثمائة أو أربعمائة فرنك فإنك تسدين إليّ يداً لا أنساها .

- حسناً .. أرسلني غداً صباحاً في طلب هذا المبلغ .. لأن من المتعذر الآن استبدال إحدى الأوراق المالية .

- لا تنسي .

- كوني مطمئنة .. هل تتناولين طعام العشاء معنا؟

- كلاً .. إن شارل ينتظري في منزلي .

- ألا زلت مولعة به؟!

- إلى حد الجنون يا عزيزتي .. إلى اللقاء غداً إذاً .. إلى اللقاء يا أرمان ..

وانصرفت .. وفتحت مرغريت أحد الأدراج .. وألقت فيه الأوراق المالية .

ثم قالت وهي تبسم وتشير نحو الفراش :

- هل تسمح لي أن أقعد في الفراش؟

- أنا لا أسمع قطعاً .. بل وأرجوك ..

- والآن .. تعال واجلس على حافة الفراش ولتحدث .

•

أصاب برودنس حقاً .. فإن الرد الذي تسلمته مرغريت أعاد إليها

مذودها وجذّلها ..

قالت وهي تتناول يدي :

- هل تغفر لي ما يدا من ضجري وضيق صدري هذا المساء؟

- إنني على استعداد لأن أغفر لك أكثر من ذلك .

- وهل تحبني؟

- حب جنون .

- رغم سوء خلقتي؟

- رغم كل شيء .

- هل تقسم؟

فأجبت بصوت خافت :

- نعم .

وعندئذ أقبلت ثائين تحمل الطعام .. وزجاجة من النبيذ وبعض الفاكهة .

قالت مرعريت :

- ضعي الطعام على المائدة الصغيرة .. وقربها من الفراش ..

إنني أتعبتك بالسهر الطويل في الليالي الثلاث الماضية .. فاذهبي الآن

إلى فراشك .. فلست بحاجة إليك .

- هل يجب أن أوصد الباب الخارجي؟

- أظن ذلك .. ولا أريد أن يدخل غرقتي أحد قبل ظهر الغد .

الفصل الثاني عشر

في الساعة الخامسة صباحاً .. عندما بدأ ضوء النهار يتغلغل من

خلال الستائر .. قالت لي مرعريت في همس :

- معذرة إذا طلبت إليك الانصراف الآن .. ولكن لا مفر من

ذلك .. فالدوق يأتي لزيارتي كل صباح .. وستقول له وصيفتي إنني

ناائمة .. ولكن يحتمل أن يبقى ريثما أستيقظ .

فتناولت رأسها الجميل بين يدي .. وأودعت شفيتها قبلة أخيرة ..

وسألتها :

- ومتى أراك مرة أخرى؟

فأجابت :

- اصبر إليّ .. خذ المفتاح الصغير الذي تجده على حافة الموقد ..

وافتح به الباب ثم أعدّه إلى مكانه .. واذهب في سبيلك ..

وستصلك في خلال النهار رسالة تتضمن أوامري .. فأنت تعلم أنه

ليس لك إلا أن تطيعني طاعة عمياء ..

- أعلم ذلك .. ولكن هبي أنهي أريد بدوري أن أسألك

أمراً ..

- ما هو؟

- هو أن تسمح لي بالاحتفاظ بهذا المفتاح ..

- إنني لم أسمع بذلك لأي إنسان من قبل!

- لا بأس .. فاسمحي لي به فإن أحداً من الرجال لم يحبك كما

أحبك .

- حسناً .. خذهُ إذا .. ولكنني أصارحك بأن فائدة هذا المفتاح

رعدم فائدته .. متعلقة بإرادتي .

- وكيف ذلك؟

- إن للباب مزاحج داخلية ..

- ما أقسى قلبك!

.. ولكنني سأمر بإزالتها ..

.. فأنت تحبيني بعض الحب إذا؟

.. لا أستطيع أن أفهم شعوري حق الفهم .. ولكنني أظن أنني أجبك .. والآن .. إليك عني .. فلأنتي في أشد الحاجة إلى النوم .. فضممتها إلى صدري .. ثم ودعتها وانصرفت ..

•

كانت الشوارع مقفرة .. والمدينة العظيمة لا تزال ساكنة هاجعة .. فمشيت مرفوع الرأس .. تماماً كمن يريد أن يبلغ الجبال طولا .. وأخذت أسترجع في ذهني أسماء أولئك الذين كنت فيما مضى أغبطهم فلم أجِد بينهم واحداً أسعد مني بعد اليوم ..

•

واستغرقت في نوم عميق .. واستيقظت عندما حمل إليّ الخادم رسالة من مرغريت تقول فيها «هذا المساء .. في مسرح الفودليل ... بعد الفصل الثالث» ..

فوضعت هذه الرسالة تحت وسادتي .. لألمسها بيدي .. كلما توهجت .. كما حدث مراراً - أنني في حلم لا في يقظة ..

•

ولم تطلب إليّ مرغريت أن أقابلها نهاراً .. ولم أجرو أنا على الذهاب إلى بيتها .. ولكنني شعرت برغبة شديدة في أن أراها قبل المساء .. ولم أجِد وسيلة أفضل من الانطلاق إلى حديقة الشانزليزيه حيث اعتادت أن تذهب بمركبتها كل يوم ..

وقد رأيته هناك .. ولكنني حرصت على ألا أدعها ترائني ..

•

وفي الساعة السابعة قصدت إلى مسرح الفودليل .. ولم يحدث قط قبل ذلك أنني دخلت مسرحاً في هذه الساعة المبكرة ..

وأخذت الشرفات تمتلئ تدريجياً .. ولم تبق إلا شرفة واحدة خالية فلم أحول بصري عنها ..

وما بدأ الفصل الثالث حتى فتحت باب هذه الشرفة .. ودخلت مرغريت ..

وكان أول ما فعلته .. أنها أجالت البصر في جوانب المسرح .. حتى أبصرت بي فشكرتني بنظرة ..

•

كانت ساحرة الجمال في ذلك المساء ..

فهل كنت أنا سبب هذه الفتنة يا ثري؟

وهل هي تحبني بحيث تعتقد بأنه كلما ازدادت فتنتها .. كلما تضاعفت سعادتي؟

لا أعلم ... ولكن لو كان ذلك غرضها .. فلأنها نجحت دون ذلك أبعد حدود النجاح .. لأنها ما كادت تتربّع في مكانها حتى تحوكت إليها الأبصار .. وتهامس النظارة .. ولم يشمالك الممثلون أنفسهم من التحديق نحو الغاية الفاتنة التي حوكت عنهم أبصار المتفرجين ..

وقد كان في جيبتي مفتاح بيت هذه الغاية اللعوب .. وبعد ثلاث أو أربع ساعات ستصبح هذه الغاية لي مرة أخرى ! فهل يوجد في ذلك المسرح .. بل هل يوجد في العالم كله .. إنسان أسعد مني؟

•

لقد تعودنا أن ننحى باللائمة على الشباب الذين يجلبون على

أنفسهم العار والدمار من أجل الغايات ونساء المسارح . . ولكن ما يدهشني هو أن أولئك الشباب لا يقدمون على المزيد من الحماقات من أجل أولئك النساء . . وأنه ليتعنين عليك أن تعشق إحدى الغايات لكي تعلم كيف تساعد عبارات الإعجاب والإطراء التي يحتكرها الناس لأولئك النساء على تمكن حبهن من قلوب عشاقهن .

ودخلت المقصورة في إثر مرغريت امرأة عرفت فيها برودنس . . ورجل عرفت فيه الكونت دي . ج . الذي رأيت صورته في بيت مرغريت . . والذي قالت برودنس إن مرغريت تدين له بالمكانة التي تبوؤها .

وما كدت أرى هذا الرجل حتى غشيت قلبي منه برودة . . شلته عن الحركة .

ولا شك أن مرغريت لاحظت الانقلاب الذي طرأ على سمحتي بسبب وجود هذا الرجل . . لأنها ابتسمت لي مرة أخرى . . ثم تحوكت عن الكونت وتظاهرت بالاهتمام بالمرحبة التي تمثل .

عند نهاية الفصل الثالث . . نظرت مرغريت إلى الكونت . . وقالت له كلمتين . . فنهض الرجل . . وغادر المقصورة . . وعندئذ دعنتي مرغريت إلى مقصورتها بإيماءة من رأسها .

قالت لي وهي تبسط إلي يدها :

- طاب مساؤك . .

فأجبت أحبيها وأحيي صديقتها برودنس :

- طاب مساؤكما .

قالت :

- اجلس .

فأجبت :

- هل أحتل مقعد رجل آخر؟ إن (الكونت دي . ج .) سيعود دون شك .

- نعم . . إنني طلبت إليه أن يأتي بي بعض الحلوى . . لكي يخلو لنا الجو فتحدث لحظة .

إنني أئن في برودنس . . وأطمئن إلى كتمانها أمرنا .

فقالت برودنس :

- نعم . . نعم . . كونا مطمئنين . . فلن أبوح بكلمة .

فقالت مرغريت وهي تقترب بمقعدها مني :

- ماذا ذهاك هذا المساء؟

- إنني لست في خير حال .

فقالت ساخرة :

- إذا ، يجب أن تلزم الفراش !

- أين؟

- في منزلك .

- أنت تعلمين جيداً . . أن النوم لن يجد سبيلاً إلى أجفاني هناك .

- إذا لا يجب أن تتجهم لنا . . تغير ما سبب إلا أنك رأيت رجلاً

في مقصورتني !

- ليس هذا هو السبب .

- إنه السبب . . وأنا واثقة من ذلك . . ولكنك مخطئ . . فلتترك

الحديث في هذا الآن .. ومتى انصرفنا من المسرح فاذهب إلى بيت
برودنس وانتظر هناك حتى أذكرك . هل سمعت ؟!

- نعم ..

وهل كان في استطاعتي إلا أن أسمع فأجيب وأطيع .
وسألت :

- ألا زلت تحبني ؟

- هل تسأليني ؟

- وهل فكرت في ؟

- كل النهار .

- هل تعلم أنني أصبحت أشقى الوجود في شرك غرامك حقاً ؟

سل برودنس فتبتك .

فهتفت برودنس :

- آه .. نعم هذا صحيح ..

قالت مرغريت :

- اذهب الآن إلى مقعدك .. فقد أوشك الكونت أن يعود ..

وليس من الضروري أن يجدهك هنا .

- لماذا ؟

- لأنك تتألم إذا قابلته .

- كلا .. لو قلت لي فقط إنك تريدني الحضور إلى مسرح

الفودليل لاحتجرت لك هذه المقصورة عوضاً عنه .

- أيها العن .. لقد احتجزي لي هذه المقصورة دون أن أطلب إليه

ذلك .. ثم توسل إلي أن أرافقه .. فلم أستطع رفض توسلاته ..

وكل ما استطعته .. أنني كتبت إليك أنبك بمكاني .. ليتسنى لك أن

تزاني .. ثم لأنه طاب لي أن أراك قبل الموعد المتفق عليه بيننا ..

ولكن ما دمت قد شكرتني بهذا التجهّم وهذا العبوس .. فإنني

سأفقد من هذا الدرس مستقبلاً ..

- إنني أخطأت .. فاغفري لي .

- هذا خير ما قلت .. والآن .. عد إلى مقعدك هنيئاً ناعم

إلياً .. وحذار أن تغار .

وانصرفت من مقصورتها .. وصادفت الكونت وهو في طريقه
إليها .

وبعد .. فقد كان وجود الكونت في مقصورتها أمراً طبعياً .

إنه كان عشيقها في أحد الأيام .. وقد احتجز مقصورة في ذلك

المسرح .. وطلب إليها أن ترافقه .. فوافقه .. فهل في ذلك غرابة ؟

وما دمت أريد هذه الفتاة عشيقاً لي .. أفلا يجب أن أقبل عاداتها

وطبائعها وأغض عن سوء تصرفاتها ؟!

ومع ذلك فإنني كنت شديد التعاسة جرّاء ذلك .. وتضاعفت

تعاسي عندما رأيت مرغريت وبرودنس تتصرفان مع الكونت في

مركبته .

ولم تنقضي ربع ساعة حتى كنت في بيت برودنس .. وكانت قد

وصلت إليه لتوها .

الفصل الثالث عشر

قالت برودنس تحدثني وأنا عندها :

- إنك جئت بمثل سرعتنا!

فأجبت بلهجة آلية :

- نعم .. فأين مرغريت؟

- إنها في بيتها .

- وحدها؟

- كلاً .. إنها مع الكونت دي ج ...

فأخذت أسير للتو في الغرفة جيئة وذهاباً .

سألني :

- ماذا بك؟

- ماذا بي؟ هل تحسبن أنني أجد متعة في الانتظار هنا حتى

ينصرف الكونت من حضرة مرغريت؟

فأجبت :

- إنك تخطئ الصواب القويم والتفكير السليم يا صديقي ..

يجب أن تفهم أن مرغريت لا تستطيع أن تطرد الكونت .. فهو

عشيقها منذ زمن طويل .. وقد أعطاها وما زال يعطيها مبالغ طائلة .

إن مرغريت تنفق مائة ألف فرنك في العام .. وهي إلى ذلك

مثقلة بالديون .

والدوق يعطيها كل ما تطلب .. ولكنها لا تجسر على تحميله كل

نفقاتها وتحفظ بالكونت الذي يمدّها ببضعة آلاف من الفرنكات

شهرياً .

إن مرغريت تحبك .. ولكن لخبرك وخبرها على السواء .. ألا

تتخذ الصلة بينكما صيغة جدية .. لأنك لا تستطيع بإيرادك الذي لا

يتجاوز سبعة أو ثمانية آلاف فرنك أن ترضي إسراف هذه الفتاة ..

بل إن إيرادك كله لا يكاد يكفي نفقات مركبتها .. لذلك يحسن بك
أن تقبل مرغريت كما هي .. وألا ترى فيها إلا أنها فتاة طيبة ذكية
حسنة .

كن عشيقها شهراً أو شهرين .. واحمل إليها الحلوى وياقات
الزهر .. ولكن لا تتخيل في ذهنك شيئاً من الأوهام والحماقات ..
وتجنب إزعاجها بغيرتك .

أنت تعرف مرغريت حق المعرفة .. وتعلم جيداً أنها لا ترضى أن
يسيطر عليها أحد . وهي معجبة بك .. وأنت شغوف بها .. فاقنع
بذلك .. ولا تزعج نفسك بغيره .

إنك تنعم بأجمل غانية في باريس .. وهي تستقبلك في مخدعها
الفخم .. ولا تكلفك ستيماً واحداً ! فكيف لا تقنع بكل هذا؟ إنك
في الحق رجل يستحيل إرضائه !

- لا شك أنك على حق يا برودنس .. ولكنني أتألم أشد الألم
لمجرد التفكير في خلونها الآن .. مع هذا الرجل الذي كان عشيقها
في أحد الأيام .

- وهل هو لا يزال عشيقها؟ إنه رجل تشعر بحاجتها إليه .. فلم
تجسر على رفض دعوته عندما دعاها لمرافقته إلى المسرح .. وقد عاد
معه إلى بيتها .. ولكنها لن تسمح له بالبقاء معها لبب واحد على
الأقل .. هو وجودك هنا .

غير أنني أعجب لك .. كيف تنقم على صلة مرغريت بهذا
الكونت ولا تنقم على صلتها بالدوق؟!

- إن الدوق رجل متقدم في السن .. وأنا واثق أن مرغريت ليست
عشيقته .

وقضلاً عن ذلك .. قبل أن الإنسان قد يغض الطرف عن صلة واحدة .. ولكنه لا يتجاوز عن صلتين ! فسهولة التجاوز عن هذه الصلات - ولو بدافع الحب - تنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل الذي يتخبط فيه المتجرون بالأعراض .

- أنت من الطراز القديم يا صديقي العزيز .. فكم من النبلاء والأغنياء والميرزين في الهيئة الاجتماعية من يفعل بغير تردد .. أو شعور بالجل ووخز الضمير .. ما أنصح لك الآن بأن تفعله ! وهل تعتقد أن في استطاعة غانية من غايات باريس المعروفات أن تحتفظ بمظاهر الأبهة والرفاهة ما لم تتخذ ثلاثة أو أربعة من العشاق في وقت واحد؟ إن الرجل إذا لم يكن واسع الغنى فإنه يعجز عن إجابة فتاة مثل مرغريت إلى كل مطالبا .

يكون الرجل واسع الغنى في باريس إذا بلغ إيراده خمسمائة ألف من الفرنكات .. ولكن هذا الإيراد على ضخامته لا يكاد يكفي لإرضاء فتاة كمرغريت .. وإليك السبب ..

يتعين على صاحب مثل هذا الإيراد أن يكون له قصر وخدم وحشم وأصدقاء .. ومركبات .. وجياد .. وكلاب للصيد .. ويتعين عليه أن يقامر ويكثر من السياحة والسفر شأن أمثاله .. وكل هذه تقاليد مقرر لا يستطيع أن يتجاوز عن إحداها دون أن يثير الشكوك في متانة مركزه المالي . فإذا عرفنا ما تقتضيه هذه التقاليد من نفقات وجدنا أنه لا يستطيع أن يهب عشيقته أكثر من أربعين أو خمسين ألفاً من الفرنكات في العام . فمادام استطاع الغانية المبرزة أن تصنع بهذا المبلغ ٩٩ إنها تستعين حتماً بأكثر من عشيق آخر لتمتلك من موازنة ميزانيتها والاحتفاظ بما تعودت عليه من مظاهر الأبهة والجمال .

على أن حال مرغريت يختلف عن حال غيرها .. وقد كان من حسن حظها أنها صادقت ذلك الدوق الشيخ .. وهو رجل واسع الغنى .. فقد زوجته وابته ولم يبق له إلا بعض الأقرباء .. وكلهم أغنياء مثله .. فهو لا يبرح تحت ثقل من الالتزامات كما يبرح سواه .. وفي استطاعته أن يجيب مرغريت إلى ما تطلب دون أن يسألها شيئاً .

ولكن مرغريت لا تطالبه بأكثر من ستين أو سبعين ألف فرنك في العام .. وأنا واثقة من أنها إذا طلبت المزيد فإن الشيخ - رغم غناه وعظفه عليها - قد يرفض طلبها ..

وجميع الشباب الذين يتراوح إيرادهم بين ٢٠ و ٣٠ ألف فرنك - وهو مبلغ لا يكاد يكفي نفقاتهم الشخصية في الوسط الذي يعيشون فيه .. والأماكن التي يختلفون إليها - جميع هؤلاء الشباب يعلمون - متى أصبحوا عشاقاً لفتاة مثل مرغريت - أن كل إيرادهم لا يكفي إيجاراً لبיתהا .. ولكنهم لا يقولون لها إنهم يعلمون ذلك .. بل هم يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئاً .. حتى إذا نالوا بغيتهم .. وطأوا نفساً .. انطلقوا لشأنهم .. وتركوها لشأنها . أما من دفعه الغرور منهم إلى الاضطلاع بالمسؤولية كلها فإنه ينتهي حتماً إلى الإفلاس ثم إلى الفرار أو الانتحار .. بعد أن يترك وراءه عبئاً ثقيلاً من الديون .

ولا يكون بذلك كله قد استحق عطف الغانية أو استوجب شكرها .. بل على العكس .. ستقول الغانية إنها ضحّت بمركزها أيضاً من أجله .. وإنها فقدت في معاشرته كثيراً من المال .

ولا شك أنك ستجد هذه التفصيلات مهينة لك .. مذلة لكبريائك .. ولكنها تعبر عن الحقيقة والواقع .. فقد قضيت عشرين

عاماً مع هذا الطراز من الفتيات .. حتى عرفت قيمتهنَّ والرأي
عندي ألا تقيم وزناً كبيراً لمواطنهنَّ .

ولكن لنفرض أن حبك تمكّن من قلب مرغريت .. وأن الدوق
والكونت لاحظا الصلة بينكما .. وخيّرهما .. فاختارتك من
دونهما .. فماذا يكون بعد ذلك؟؟ .. وماذا تستطيع أن تضحي في
سبيلها لقاء تضحياتها الجسيمة في سبيلك؟؟ ومتى نلت منها بغيثك
ومللتها .. فكيف تعوضها عما فقدت ولأجلك وبسببك .. وإرضاء
لك؟؟

إنك لا تملك وسيلة لتعويضها .. وتكون فقط قد عزلتها عن
العالم الذي تعيش فيه .. وفيه وحده مستقبلها .. وثروتها .. وبقاؤها
على ما هي فيه من بدخ وترقب .

وتكون هي بدورها قد ضيعت معك أئمن سني حياتها ..
وقطعت الصلة بينها وبين أصدقائها وعشاقها السابقين .

وعندئذ تصبح أنت أحد رجلين .. إمّا رجلاً من الطراز العادي
فترميها بأنامها وأوزارها .. وتقول لها إنك لا تستطيع أن تفعل من
أجلها غير ما فعله غيرك من عشاقها .. ثم تتركها في شقونها
ويؤنسها وتذهب في سبيلك .. وإمّا أن تكون رجلاً شريفاً كريم
النفس طيب الخلق .. ترى أن من حقها عليك أن تبقىها عندك ..
فترضخ لهذه الكارثة مرغماً .. وتشعر دائماً بأنها قدّيت في عينيك .
وشركة في حلقك .. وعقبة كأداء في سبيل مستقبلك ومطامعك ..
وسعادتك العائلية ..

فاعمل بتسخي أيها الصديق إذاً .. وخذ الأشياء بقيمتها الفعلية
والمرأة بقيمتها السطحية .. ولا تمنح فتاة من طراز مرغريت الحق في

أن تعتبر نفسها دائنة لك بحال .

*

لم أجد ما أقوله ردّاً على هذا التدليل المنطقي المفعول .. والذي
أدهشني صدوره عن امرأة كبرودنس .. ولم يعني إلا الاعتراف لها
بالوفاء وبعد النظر .. فشدت على يدها .. وشكرت لها نصيحتها
الثمينة .

قالت :

- ربه عنك إذاً .. واطرد الأوهام الحالكة التي تملأ ذهنك ..
واضحك .. فإن الحياة ممتعة يا صديقي .. وإن اختلفت ألوانها
 باختلاف المنظر الذي تراها به .

سل صديقك غاستون .. فإنه يفهم معنى الحب كما أفهمه ..
ويحسبك أن تشعر الآن - اللهم إلا إذا كنت جامد العاطفة - بأنّ
على مقبرة منا فتاة حسنة .. تفكر فيك .. وتحبك .. وتنتظر
انصراف زائرها بفارغ الصبر لكي تشارك في فراشها .. وتقضي
معك ليلتها .

والآن .. تعال معي إلى النافذة لنرغب انصراف الكونت معاً .

*

قالت هذا وفتحت النافذة .. وراحت تنظر إلى العابرين .

أما أنا فذهبت أحلم .. وأفكر .

كان كلامها لا يزال يطن في أذني .. ولم يعني إلا الاعتراف
بأنه عين الحق والحكمة . ولكن كيف يستقيم هذا الكلام مع الشعور
القوي الذي أكنه لمرغريت؟

وأملت من بين شفتيّ على الرغم مني آهة عميقة .. جعلت

برودنس تنظر إلي .. ثم تهز كتفيها .. كما يفعل الطبيب إذا يش
من مريضه فأسلمه ليد الردى .

قلت لنفسي :

- لشد ما يشعر الإنسان بقصر الحياة من هذه الانفعالات السريعة
التي تأخذ برقاب بعضها بعضاً في أقصر وقت .. إنني لم أعرف
مرغريت إلا منذ يومين .. ولم تصبح عشيتي إلا منذ يوم .. ولكنها
احسنت من قلبي وتفكيرى وحياتي مكانة جعلتني أرى في زيارة
الكونت دي .. ج .. لها كارثة شخصية دونها كل الكوارث .

وانصرف الكونت أخيراً .. وأطلت مرغريت من نافلتها .. ودعنا
إليها ..

وما كنت أدخل حتى انحاطت عني بساعديها .. وضمتني إلى
صدرها بحرارة .

سألتي :

- ألا زلت مقطلاً متجهماً الوجه؟

فقلت برودنس :

- كلاً .. لقد زال غمهم .. فإني ألقيت عليه محاضرة قيمة ..
وعد على أثرها بأن يغير سلوكه .

- هذا من حسن الحظ .

وجلسنا إلى مائدة الطعام .

كانت مرغريت في تلك اللحظات مثال الفتنة والحيوية ودمانة
الخلق .. فقلت لنفسي ماذا أريد منها غير ذلك .. أو أكثر من ذلك؟
وحاولت أن أضع نظريات برودنس موضع التنفيذ .. وأن أكون

مرحاً طروباً كصاحبتي .. فكان مرحي مفتعلاً .. وكانت ضحكاتي
أقرب إلى البكاء .

*

رفعت المائدة .. وبقيت وحدي مع مرغريت .

وجلست مرغريت على سجادة نفيسة أمام الموقد .. وراحت تنظر
إلى النيران في حزن وأسى .

كانت تفكر .. ولكن فيم كانت تفكر؟

قالت لي فجأة :

- تعال .. واجلس بجاني .

فأطمت .

فالت :

- هل تعلم فيما أفكر؟

- كلاً .

- إنني أفكر في خطة خطرت لي .

- وما هي هذه الخطة؟

- لا أستطيع أن أحدثك بها الآن .. ولكنني أذكر لك نتيجتها
المتوقعة .

سيترتب على هذه الخطة أن أصبح بعد شهر حرة طليقة .. ولا
دين عليّ لأحد من الدائنين .. فنذهب معاً لقضاء الصيف في
الضواحي .

- ألا تحدثيني بمضمون هذه الخطة؟

- كلاً .. ولكن يجب فقط أن تحبني كما أحبك .. فيسير كل

شيء في مجراه الطبيعي .. وتنجح خطتي .. وأنال أربي .

- هل دبرت هذه الخطة بنفسك؟

- نعم ..

- وفي نيتك تنفيذها بمفردك؟

- فأجابت وعلى شفيتها ابتسامة :

- سأحتكر متاعها لنفسي .. ولكننا سنقسم ثمارها معاً .

- فأحمر وجهي عندما سمعت كلمة (ثمارها) .. لأنها ذكرتني

كيف كانت «مانون ليكو» تبعثر مع عشيقها أموال الشيخ النبيل الذي وقع في حبائلها .

- قلت بحدّة .. وأنا أنهض واقفاً :

- اسمحي لي يا عزيزتي مرغريت بأن أنفخ يدي من (فوائد

وثمار) أية خطة لا أقوم بنفسى على تديرها وإنفاذها .

- ما معنى هذا؟

- معنى هذا أنني أرتاب بقوة في أن للكونت دي ج . ضلعاً في

الخطة السعيدة التي تتكلمين عنها .. والتي لا أقبل مسئوليتها أو فوائدها .

- أنت طفل كبير .. لقد حسبت أنك تحبني .. ولكني كنت

واهمة !

- ثم نهضت إلى البيانو وراحت تعزف الأشرطة التي عزفها وترنمت

بها ليلة أن عزفتها لأول مرة .

- ولا أعلم هل عزفتها لشغفها بها .. أو لأنها أرادت أن تذكرني

بتلك الليلة؟

- وكل ما أعلمه هو أن مع هذه الأشرطة عاودتني الذكريات ..

فدنوت منها .. وأمسكت برأسها بين يدي وقبّلت جيئها .

وسألتها :

- هل تصفحين عني؟

- فأجابت :

- أنت ترى أنني صفحت .. ولكنني أرجو أن تلاحظ بأننا ما زلنا

في يومنا الثاني فقط .. ومع ذلك فهناك ما يستوجب صفحي .

- إنك لا تقيم كبير وزن لعودك لي بالطاعة العمياء .. ألا ترى ذلك؟

- ماذا تنتظرين مني يا مرغريت؟ إنني أحبك كثيراً .. وأغار من

مجرد الخطاطر التي تطوف بذهنك .

- وهذا الاقتراح الذي عرضته عليّ منذ لحظات قد جعلني أظن

فرحاً .. ولكن السر الذي يحيط بالخطة التي تؤدي إليه أحزنني ..

- وهمني .. وأثار شكوكي وريبتي .

- فأمسكت بكلتا يدي .. وقالت وعلى شفيتها تلك الابتسامة

الحلابة التي لا تقاوم :

- دعنا نتفاهم .. أنت تحبني .. اليس كذلك؟ وتكون سعيداً إذا

خلوت بي شهرين أو ثلاثة في الضواحي؟ أنا كذلك أكون سعيدة

بهذه الخلوة المزدوجة .. ليس فقط لأنني أجد فيها المتعة والهناء وإنما

كذلك لأنها ضرورة علاجية لصحتي . ولكنني لا أستطيع أن أغيب

عن باريس مثل هذه المدة الكبيرة دون أن أرتب شؤوني .. وشؤون

مخلوقة من طرازي تكون عادة شديدة الاضطراب والارتباك .. غير

أنني اكتشفت وسيلة للتوفيق بين شؤوني وحبّي لك .. نعم .. حبي

لك .. فلا تضحك ! فقد بلغ من جنوني أنني أحبيتك .. ومع ذلك

فإنك تشعخع بأنفك وتكيل لي الكلام جزافاً ..

أيها الطفل .. أيها الطفل الكبير .. تذكر فقط أنني أحبك .. لا
تزعج نفسك بشيء آخر .. هل اتفقنا؟ أجب !
- أنت تعلمين أنني أوافق على كل ما يرضيك .. وأن لا إرادة لي
غير إرادتك .

- حسناً .. إذا بعد شهر نكون في إحدى القرى .. حيث نمشي
على حافة الغدير .. ونشرب الحليب .. وقد يبدو غريباً أن ترضى
مرغريت جوتييه بالحياة على أبسط ألوانها .. ولكن هذه الحياة
الباريسية التي يخيّل إلى الذين يعرفونني أنها تدخل السرور على
نفسي .. هذه الحياة تمنيني وتضئني .. حينما لا تحرقني . ثم إنني
قد ملكتي فجأة رغبة شديدة في حياة هادئة تذكرني بحياة الطفولة .
كل إنسان قد عرف هدوء الطفولة مهما تكن الحياة التي عاشها
بعد ذلك .. ولكن لا تنزعج .. فليس في نيتي أن أقول لك إنني
كنت من أسعد الأطفال .. أو إنني ابنة ضابط كبير متقاعد .. وإنني
قد تلقيت علمي في كلية «سان دينيس» حيث تتعلم بنات النبلاء
والأغنياء .

كلاً .. كلاً .. فما أنا إلا فتاة ريفية فقيرة .. ومنذ ستة أعوام لم
أكن أعرف كيف أكتب اسمي .. فهل اطمأن قلبك الآن؟ ولعلك
تعجب لماذا وقع اختياري عليك دون سائر الرجال لكي تشاطرنى متعة
الحياة الهادئة التي أصير إليها .. فهل تعلم لماذا؟ لأنني شعرت بأنك
تجبنى لشخصي حباً خالياً من أدران الأثنية .. بينما غيرك من الرجال
قد أجبروني فقط لإرضاء لشهواتهم .. وإشباعاً لغرورهم ولذائهم .

لقد ذهبت إلى الأرياف مراراً .. ولكن ليس كما كنت أحب أن
أذهب .. وأنا الآن أعتمد عليك للحصول على السعادة التي أطلع

إليها .. فلا تكن غشاً الطبع .. وامتنحي هذه النعمة .. وقل
لنفسك «إنها سوف لا تعيش حتى تبلغ مبلغ الكهولة .. وأنا سوف
لا أتمد في أحد الأيام على أنني لم أجيبها إلى أول مطلب لها ..
وهو على كل حال مطلب سهل ميسر» .

بماذا كان في استطاعتي أن أجيب على لهجة كهذه اللهجة؟ بينما
ذكرى ليلتنا الأولى لا تزال تحتل ذهني .. وبينما أنا في انتظار الليلة
الثانية؟

وبعد ساعة أخرى .. كانت مرغريت بين ذراعي .. ولو سألتني
في تلك اللحظة أن أرتكب جريمة لأطعتها واقتربتها .

ومضى الليل .. واقتربنا في الساعة السادسة صباحاً .. وقلت لها
قبل أن أنصرف :
- إلى اللقاء في هذا المساء .

فقبلتني بلطف .. ولكنها لم تجب !
وحول الظهر .. جاءني منها هذه الرسالة :
«صديقي العزيز
«إنني مريضة . والطبيب يأمرني بالراحة . وسألوذ بقراشي في
ساعة مبكرة . فلن أراك الليلة . ولكنني أعوضك بأن أنتظرك ظهر
غد . إنني أحبك» .

قرأت هذه الرسالة وقلت لنفسي في الحال : «إنها تخونني» ..

وتصيب العرق البارد على جبينى .. ووجب قلبى .. فلقد كنت
أحب هذه المرأة حباً يجعل من مثل هذه الريبة جحيماً .
ومع ذلك فإنه كان يجب عليّ أن أتوقع هذه الحياة يومياً من
امرأة كمرغريت .. وقد خائنتني قبلها كثيرات من عشيقاتي .. فلم
أقم لحياتهنّ وزناً .. فما السر إذاً في سيطرة هذه المرأة على كياني
كله .

وخطر لي أن أذهب إلى بيتها مساء كعادتي .. ما دمت أملك
مفتاحه .. وهكذا أقطع الشك باليقين بأسرع ما يمكن .. وإذا وجدت
عندها عشيقاً فلأنني أهينه وأطرده .

وذهبت إلى الشايليزيه وقضيت هناك أربع ساعات .. ولكنني لم
أرها .

وفي المساء .. ترددت على جميع المسارج التي اغتادت مرغريت
أن تفشاها .. ولكنني لم أجد لها أثراً .

وحوالى الساعة الحادية عشرة .. ذهبت إلى شارع دانتان .. ولم
ألمح نوراً من نوافذ بيت مرغريت .. ومع ذلك فلأنني قرعت
الجرس .. وسألني البواب عما أطلب .. فأجبت :

- إنني جئت لزيارة الأكة مرغريت جوتييه .

قال :

- إنها لم تعد بعد .

- سأنظرها في شقتها إذا .

- لا يوجد أحد في الشقة .

لم يكن ثمة شك في أن مرغريت أمرت بالأب يزورها أحد ..
وتلك عاداتها كما عهدتها .. ولكن كان في استطاعتي أن أخرق
أوامرها .. لأن مفتاح شقتها في جيبى .
بيد أنني أشفت أن أثير فضيحة مضحكة .. فانطلقت في
سيلي .

ولكنني لم أعد للتو إلى منزلي .. ولم أبرح شارع دانتان .. ولم
أحوك بصري عن بيت مرغريت .

شعرت بأن هناك أشياء يجب أن أعرفها .. وشاءت الأقدار أن
تحقق شكوكي .. فما كاد الليل يتصف حتى وقفت بالباب
مركبة .. وهبط منها رجل عرفته فيه الكونت دي ج .
وأمر الكونت سائق المركبة بالانصراف .. ودخل البيت .

ورجوت في تلك اللحظة أن يكون حظه كحظي .. وأن يقال له
إن مرغريت لم تعد بعد إلى بيتها .. وأن أراه يخرج من البيت
مغضباً كئيباً كما خرجت أنا .

ولكن الساعة دقت الرابعة صباحاً وأنا لا أزال أنتظر خروجه .

كنت قد قاسيت كثيراً في الأسابيع الثلاثة الأخيرة .. ولكن ما
قاسيته في تلك الليلة كان يفوق طاقة البشر .. كل البشر .

الفصل الرابع عشر

لما عدت إلى بيتي .. استلقيت وانفجرت باكياً كالطفل .

لا يوجد رجل إلا خائنه المرأة التي يحبها ولو مرة واحدة . . ولا يوجد رجل إلا وبرح به الألم الذي تنبئه هذه الخيانة .

قلت لنفسي . . وأنا أرزح تحت ثقل القرارات التي يتخذها الإنسان في مثل هذه الظروف . . إنني يجب أن أقطع صلاتي بهذه المرأة . . وأن أنتظر حتى تبزغ الشمس فأرحل إلى أبي وأختي . . حيث أستمتع بالحب الطاهر البريء الذي لا يعرف معنى الخيانة . .

ومع ذلك فلإنني لم أشأ الرحيل دون أن أعرف مرغريت السب . .

رجل واحد يستطيع أن يرحل دون أن يكتب لعشيقته . . وذلك هو العاشق الذي طلق الحب . . ونقض غباره عن حذائه .

تفتت ذهني عن مائة صيغة للرسالة التي أنوي كتابتها .

كنت حيال امرأة لا تختلف عن نساء طبقتها . . امرأة أحلقتها من نفسي فوق المكانة التي تستحقها . . فعاملتني كغلام من غلمان المدارس . . ولجأت في حياتها لي إلى حيلة مهينة في بساطتها . . وأصبح من الواجب أن أثار لكرامتي المندوشة . . فلا أقل إذاً من أن أهجرها دون أن أترك لها شيئاً إلى معرفة السر في ألمي وعذابي .

وأخيراً تناولت القلم . . وكتبت إليها هذه الرسالة ودموع الحزن والغضب تملأ عيني :

«عزيزتي مرغريت

أرجو أن يكون مرضك بالأمس قد زال وزالت آثاره . . . ولقد ذهبت إلى بيتك في الساعة الحادية عشرة للاستشارة عنك . . فقبل لي إنك لم تعودي ! ولكن الكوث دي ج . كان أسعد مني حظاً . .

لأنه ذهب إليك بعد بضع دقائق ! ودقت الساعة الرابعة صباحاً وهو لا يزال عندك . .

«لمعذرة عن الساعات القلائل المملة التي جشمتك قضاءها معي . . وشكراً على اللحظات السعيدة التي أدين لك بها . . وقد كنت أود أن أستفسر عنك اليوم . . لولا أنني بسبيل التأهب للسفر إلى أبي . .

«فوداعاً يا عزيزتي مرغريت . . إنني لست من الغنى لكي أحبك كما أريد . . ولا من الفقر لكي أحبك كما تريد . . فلننسى إذاً . . أنت ، اسماً لا يكاد يهمل . . وأنا ، سعادة لم تعد ممكنة .

«وهأنذا أرد إليك مفتاحك الذي لم أستخدمه قط . . والذي قد يفيدك كلما انتابك مرض كمرض أمي . .

•

ولعلك تلاحظ أنني لم أستطع إتمام رسالتي من غير تهكم وسخرية .

لقد قرأت الرسالة مراراً . . وطالب لي أن أتصور أثرها المؤلم في نفس مرغريت .

وفي الساعة الثامنة . . أمرت خادمي جوزيف أن يذهب بالرسالة إليها .

فسألني :

- وهل أنتظر رداً ؟

فقلت له :

- إذا سألتك وصيقتها عملاً إذا كانت الرسالة تحتاج إلى رد . . فأجب بأنك لا تعرف . . وأنت ستنتظر حتى تقرأ السيدة الرسالة .

والحقّ .. خفت قلبي بعنف .. عندما لاح لي أمل في تسلّم رد
منها .. فما أضعفنا نحن معشر الرجال !

وقضيت فترة غياب الخادم وأنا في أشد حالات الاضطراب .

تذكرت كيف أسلمتني مرغريت نفسها .. وقلت لنفسي : بأي
حق أكتب إليها مثل هذه الرسالة الوقحة .. بينما في استطاعتها أن
تحجّيني بأن الكونت دي ج .. لم يخدعني ولم يخني .. ولكنتي
الذي خنته وخدعته .

ثم تذكرت وعودها .. وأحاديثها المعسولة .. وقلت إن لهجة
رسالتي إليها كانت أخف مما ينبغي .

وأخيراً سألت نفسي : ترى بماذا ستجيبني ؟

وشعرت بأنني على استعداد لقبول أي عذر تسوّغ به خيانتها .

وعاد الخادم . فسألته في لهفة :

- ماذا صنعت ؟

أجاب :

- لقد قيل لي إن السيدة في فراشها .. وإنها لا تزال نائمة .. وإن

الرسالة ستسلم إليها حالما تستيقظ .. وإذا كان ثمة ردّ فيؤتى به
إليك .

لا تزال نائمة !!

وخطر لي مائة مرة أن أتقدّ خادمي لاسترداد الرسالة .. ولكنتي

كنت دائماً أقول لنفسي :

- ربما تكون قد تسلّمت الرسالة فعلاً ! فإذا أرسلت أستردها كان

ذلك دليلاً على ندمي .

وكنّت كلما مرت الساعات كلما زاد أسفي وندمي على أنني
كُتبت تلك الرسالة الوقحة .

ودقت الساعة العاشرة .. والساعة الحادية عشرة .. ثم انتصف

النهار .. وخطر لي عندئذ أن أذهب إليها في الموعد المتفق عليه ..

كأنما لم يحدث شيء .. ولم أكتب شيئاً .

وأخيراً ملكنتي الحيرة ولم أعرف كيف أصنع لأخرج من الحلقة

القولاذية التي تحيط بي .

ودقت الساعة الواحدة وأنا لا أزال أنتظر .

وعندئذ فكّرت .. كما يفكر أولئك الذين يتعلّقون بالأوهام

والخرافات .. في أنني إذا انصرفت من المنزل .. فقد أجِد رَدّها في

انتظارٍ عند عودتي .. فإنّ الردود التي يتظرها الإنسان بفروغ صبر

تصل دائماً في غيابه .

عند هذا الوهم انصرفت من المنزل بحجة الرغبة في تناول

الطعام .. ولكنتي لم أعتد إلى مطعم «فوا» حيث تعودت أن أتناول

غداً .. بل فضّلت أن أذهب إلى مطعم «فيرّي» في ميدان الباليه

روايال .. وأن أمر في طريقي بشارع دانتان . وكنّت كلما رأيت امرأة

على مبعدة مني كلما خيل إليّ أنني أرى ناين وأنّها في طريقها إلى

بيتي حاملة إليّ رسالة من سيدتها مرغريت .

ودخلت المطعم .. وقدم إليّ الخادم ما شاء من الطعام .. ولكنتي

لم أتناول منه شيئاً .

وعدت إلى منزلي وأنا واثق من أنني سأجد فيه ردّ مرغريت على

رسالتي .. ولكن خاب رجائي ..

قلت وقد اسودت الدنيا في عيني: «لو كان في نية مرغريت أن تكتب لفعلت ذلك منذ وقت طويل» .
ويدأت أئدم على لهجة رسالتي .

لو أنني لزممت جانب الصمت المطلق لأحزنها ذلك وأفلقها . ثم متى وجدت أنني لم أذهب إليها في الموعد المتفق عليه بيننا . . فإنها لا تبطئ أن تستفسر عن سبب غيابي . . وعندئذ أقول لها ما عندي . . فلا تجد أمامها إلا أن تسوِّغ سلوكها . وما كنت أريد منها إلا أن تسوِّغ سلوكها . . وأي عذر كانت ستلتصه . . كان جديراً بأن يقتنعني . . فإنه أهون علي أن أقتنع بأي عذر من أن لا أراها أبداً .

وحاولت أن أفتح نفسي بأنها ربما تأتي بنفسها لتفاهم . . أو الاعتذار .
ولكن الساعات مرت طويلة . . وهي لا تأتي .

لا شك أن مرغريت لم تكن كثيرها من النساء . . فإنهن قليلات جداً . . بل هن معدودات . . أولئك اللاتي يتسلطن رسالة كرسالتي ولا يكتفن لها ودأ .

وفي الساعة الخامسة . . ذهبت إلى الشانزليزيه . . وفي نيّتي أن أتجاهلها إذا رأيته . . لكي أشعرها بأنني لم أعد أفكر فيها . . وأنني انتزعته من قلبي .

ولكنني ما كدت أتجول في شارع روابال حتى رأيت مركبتها أمامي .

كانت المقابلة فجائية . . بحيث خيل إلي أن الدم قد غاض من وجهي .

ولا أعلم هل لاحظت مرغريت ما بدا من انفعالي . . لأنني في الواقع كنت من الاضطراب بحيث لم أر غير المركبة .

ولم أواصل السير إلى الشانزليزيه . . بل كانت هناك وسيلة أخرى لمقابلة مرغريت . ف جعلت أقرأ إعلانات المسارح . . حتى وجدت أن هناك مسرحية جديدة ستعرض لأول مرة في مسرح «الباليه روابال» . لم يكن ثمة شك في أن مرغريت ستذهب إلى هذا المسرح . فقصدت إلى «الباليه روابال» . . وأخذت أقرب المقصورات التي امتلأت جميعاً . . ولكن مرغريت لم تحضر .

غادرت «الباليه روابال» إلى «الفودليل» و«الأوبرا كوميك» و«ليه فارينيه» . . وغيرها من المسارح التي تختلف عليها مرغريت . . ولكن دون جدوى .

إذاً، إما أن تكون رسالتي قد آلتها . . فصرفتها عن المسرح . . وإما أنها خشيت أن تقابلني فتضطر إلى تسوِّغ سلوكها . . وهو ما لا تريد أن تفعله . .

وقد كنت أفكر في كل ذلك حين قابلني غاستون ورسالتي من أين أنا قادم فاجيته :

- من «الباليه روابال» .

قال :

«أما أنا فقاد من «الأوبرا» . . وكنت على يقين بأنني سأقابلك هناك . .

- لماذا ؟

- لأن مرغريت كانت هناك .

- أحقاً ما تقول؟

- نعم .

- وهل كانت وحدها؟

- كلاً . . كانت معها صديقة لها .

- فقط صديقتها؟

- كذلك زارها الكونت دي ج . . في مقصورتها . . ولكنه لم يمكث طويلاً . . واتصرف مرغريت بعد ذلك بصحبة الدوق . وقد كنت أتوقع في كل لحظة أن أراك . . فإن مقعداً بجانبني ظل خالياً طوال الوقت فاعتقدت أنك احتجزته لنفسك .

- ولكن لماذا يتعين عليّ يا صاحبي أن أذهب إلى حيث تذهب مرغريت؟

- لماذا؟ لأشك عشيقها .

- ومن قال لك ذلك؟

- بروونس . . إنني قابلتها أمس . . فحدثتني بكل شيء . . والآن . . دعني أهنئك أيها الصديق العزيز . . إنها في الحق عشيقة فائقة لا ينالها كل راغب فيها . . فاحتفظ بها . . واحرص عليها . . فإنها تشرقك .

ولو أن غاستون قابلني في اليوم السابق . . وقال لي هذا الكلام . . لما كنت دون شك تلك الرسالة الخرقاء .

وخطر لي أن أذهب لزيارة بروونس . . وأن أبعث بها إلى مرغريت . . لتقول لها إنني أريد التحدث إليها . ولكنني أشفق أن تنار مرغريت لنفسها بأن ترفض مقابلي .

*

وأخيراً عدت إلى منزلي . . ولكن بعد أن مررت بشارع دانثان .

وسألت خادمي :

- هل من رسالة لي؟

- فأجاب :

- كلاً يا سيدي . .

- فلت لنفسي :

- لعلها انتظرت أن أسعى إلى استرداد رسالتي . . وما دمت لم أفعل فلعلمها تكتب إليّ غداً .

*

ولكنني ندمت في تلك الليلة على ما فرط مني كما لم أندم من قبل .

وجدتني وحيداً في غرفتي . . نهية الأرق والغلق والغيرة . . ولو تركت الأمور تجري في طريقها الطبيعي لكنت الآن مع مرغريت . . أصغي إلى همناتها الساحرة التي لم أسمعها غير مرتين . . والتي كانت تحرق أذني في وحدتي .

وأكثر ما أزعجني عندما فكرت في الأمر ملياً أن أجد أنني اغفط . .

والواقع . . أن كل شيء من حولي كان يؤكد لي أن مرغريت تخبني .

فهناك أولاً خطئها لقضاء الصيف معي في إحدى القرى .

وانتفاء الأسباب والعوامل التي ترغبها على أن تصبح عشيقتي ما دامت ثروتي لا تكاد تكفي ثمن كمالياتها . . فضلاً عن حاجاتها الضرورية .

وإذا ، فإنها لم تكن ترجو مني غير الإخلاص البريء الذي
تستطيع أن تلوذ به من الحب التجاري الذي تشبب في لجته ..
ولكنني ضيقت عليها هذا الرجاء ولما يقض على غرامنا يومان ..
وأبشيتها بانتهمكم والسخرية على اللبنتين السعيدتين اللتين قضتاهما
معاً ..

وهذا السلوك من ناحيتي لا ينطوي على الجحود فحسب .. بل
هو ينم كذلك عن الفسوة وفساد الذوق .

هل نقدتها أجراً .. حتى يجوز لي أن أنحي عليها باللامعة .. أو
أن أحصي عليها الحركات والسكنات ؟

إنني لم أعرفها إلا منذ يومين .. ولم تكن غشيقتي إلا بضعة
ساعات ! فكيف لا أفتن وأكون شاكراً وسعيداً لأنها شاطرتني بعض
وقتها؟ وكيف أريدها على أن تهدم بضربة واحدة جميع العلاقات
والصلات التي كانت ولا تزال مصدر إيرادها؟

وماذا فعلت حتى استحققت لومي وموجدتي ؟ !

إنها كتبت إلي تقول بأنها مريضة .. حين كان في استطاعتها أن
تقول بالصراحة الوقحة التي أعرفها في بعض النساء إنها ستقبل
أحد عشاقها ..

فبدلاً من أن أصدقها وأفتن بما جاء في رسالتها .. وبدلاً من أن
أطوف بشوارع باريس جميعاً إلا شارع دانتان .. وبدلاً من أن أقضي
السهرة مع بعض أصدقائي ولا أذهب للقاءها إلا في اليوم التالي وفي
الموعد عينه الذي اتفقنا عليه .. بدلاً من أن أفعل ذلك كله .. أو
بعضه .. آثرت أن أقوم يدور عطيل .. فذهبت أتجسس عليها .. ثم
رأيت أن أنتقم منها بالامتناع عن مقابلتها .

أما هي فلا بد أن تكون سعيدة بهذا الفراق .. ولا بد أنها
وجدتني غسراً أحسق .. فلزمت الصمت .. لا عن رغبة في
الانتقام .. وإنما عن شعور بالاحترار والازدراء .

•

وفي هذه الحالة كان يتعين علي أن أعاملها كمشيقة رجل آخر ..
فأقدم إليها هدية لا تترك لديها شكاً في سخائي .. وتكون صك
المخالصة بيتاً .. ولكنني خفت أن أجعل للعلاقة التي كانت بيننا
صبغة تجارية .. إذا لم تجرح غرامها بي .. فإنها تدمي غرامي بها .
وما دام هذا الحب قد كان من النقاء والطهارة .. بحيث لم يسمح
بأن يكون لي فيه شريك أو شركاء .. فإن أية هدية .. مهما كانت
ثمينة .. لا يمكن أن تكفي ثمناً للسعادة التي استمتعت بها .. مهما
كانت قصيرة ..

•

ذاك ما قلته لنفسي في تلك الليلة .. وما كنت على استعداد
للذهاب إلى مرغريت في أية لحظة لأقوله لها ..
وتنفس الصبح وأنا لا أزال أفكر في مرغريت .. ولا شيء سوى
مرغريت ..

كان من الضروري أن أتخذ قراراً حاسماً .. وأن أقطع الصلة بيني
وبين مرغريت .. أو بيني وبين الشعور بالشرف والكرامة ..
ولعلك تعلم كيف يتردد الإنسان .. وكيف يماطل .. قبل أن
يتخذ مثل هذا القرار .

ولما لم يكن في استطاعتي أن أبقي في المنزل .. أو أذهب إلى
مرغريت .. فإني لجأت إلى وسيلة إذا نجحت أدتني منها وإذا

فشلت لم تخدش كبريائي .

ففي الساعة التاسعة : . أسرعت إلى بيت برودنس . . فرحبت بي
وسألني عن سر زيارتي المبكرة . . ولكني لم أجز على مصارحتها
بما جاء بي . . وأجبتها بأني إنما أردت أن أودعها قبل سفري إلى
أبي . . فقالت :

- إن من حسن حظك أن تتمكن من الاستمتاع بجو الريف في
هذا الفصل البديع .

فنظرت إليها بحدة .

تري هل قالت ذلك على سبيل التهكم؟

ولكني رأيت على وجهها الرزاة والرصانة .

واستطردت :

- هل في نيتك أن تودع مرغريت؟

- كلا .

- إنك تحسن صنعاً .

- أظن ذلك؟

- طبعاً . . وما دمت قد قطعت صلتك بها . . فما القائدة من

مقابلتها مرة أخرى .

- إذا أنت تعلمين أنني قطعت صلتني بها؟

- لقد أرتني رسالتك . .

- وماذا قالت لك؟

- قالت لي «يا عزيزي برودنس . . إن صاحبك ليس مؤدباً . .

هذه العبارات قد تطوفن بذهن الرجل الكريم . . ولكنه لا يكتبها» .

- وبأية لهجة قالت لك هذا الكلام؟

- كانت تضحك . . وقد استطردت قائلة : «إنه تناول الطعام معي
مستريح . . ولكنه لا يفضل عليّ ولو بزيارة تدل على أنه مضم
الطعام!» .

*

فذلك هو كل التأثير الذي تركته في نفسها رسالتي وغيثي إذا؟

سألت :

- وماذا فعلت أمس مساء؟

- ذهبت إلى الأوبرا .

- وبعد ذلك؟

- ثم تناولت العشاء في بيتها .

- بمفردها؟

- بل مع الكونت دي . ج . . على ما اعتقد .

*

وهكذا لم تغير القطيعة شيئاً من عادات مرغريت !

قلت وعلى شفتي ابتسامة مغتصبة :

- يسرني على كل حال أن أعلم أنها لم تحزن بسببي .

- إنها على حق . . وأنت قد فعلت ما يجب عليك أن تفعله . .

وكنت بذلك أكثر منها تعقلاً وأشدّ تبصراً . . لأنها كانت تحبك ولا

تسجدت إلا عنك . . بل إنها ما كانت تتردد في الإقدام على أية

حماقة من أجلك .

- إذا كان صحيحاً أنها تخيني . . فلماذا لم ترد على رسالتي؟

- لأنها فهمت أن من الخطأ أن تحبك . . والمرأة قد تسمح للرجل

الذي تخيه أن يخونها . . ولكنها لا تسمح له قط أن يهين كبرياءها . .

الفصل الخامس عشر

انقضت ساعة . . وأنا وخادمي ما زلنا نحزم الأمتعة . . حين دق جرس الباب فجأة ويقوة . . فسألني الخادم :

- هل أفتح الباب؟

فاجبت بالإيجاب وأنا أسائل نفسي « ترى من يكون زائري في مثل هذه الساعة؟ »

وعاد الخادم يقول :

- بالباب سيدتان تطلبان مقابلتك .

وسمعت على الأثر صوتاً عرفت فيه صوت بروندس .

كانت تقول :

- ها نحن يا أرماني .

فخرجت من مخدعي . . ورأيت بروندس في قاعة الاستقبال وهي تفحص التحف الكثيرة الثمينة التي أحفظ بها . . ثم رأيت مرغريت جالسة في أحد المقاعد مستغرقة في التفكير .

أسرعت إليها . . وجثوت تحت قدميها . . وهمسرت وأنا أتناول كلتا يديها :

- عفواً يا مرغريت .

فقبلت جيبيني وأجابت :

- إنني أعفو عنك للمرة الثالثة .

- لقد كنت أنوي الرحيل غداً .

- وكيف يمكن أن تغير زيارتي هذه النية؟ إنني لم أجيء لأثنيك عن الرحيل . . وإنما جئت لأنني لم أجد في أثناء النهار فسحة من

ومن الإغاة لكبرياء المرأة أن يهجرها عشيقها بعد يومين مهما كانت الأسباب .

وأنا أعرف مرغريت حق المعرفة . . وأعلم أنها تؤثر الموت على كتابة رد على رسالتك .

- ماذا يجب أن أفعل إذا؟

- لا شيء . . إنها سوف تنسبك . . وأنت سوف تتساعا . . ولن يكون ثمة ما يستوجب العتاب بينكما .

- ولكن هبي أنني كتبت إليها أسألها الصفح؟

- لا تفعل شيئاً من ذلك . . إنها تصفح عنك في الحال .

فكدت أضعها إلى صدري .

وبعد ربع ساعة . . كنت في منزلي أكتب لمرغريت هذه الرسالة :

« شخص يندم على رسالة كتبها أمس . . وسيرحل غداً إذا لم تصفحي عنه . . يرغب في أن يعرف الساعة التي يستطيع فيها أن يركع تحت قدميك ويستغفرك » .

وطويت الرسالة . . وأمرت خادمي أن يذهب بها إلى مرغريت . . فتسلمتها بنفسها . . وقالت له إنها ستبحث إلي بالرد .

•

ولم أغب عن منزلي لحظة واحدة طيلة النهار . . ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ولم أتلّم رداً .

عندئذ قررت ألا أعاني أكثر مما عانيت . . وأن أرحل في اليوم التالي .

ولمّا كنت موقناً من أنني لن يخفض لي جفن طوال الليل . . فقد شرعت في حزم أمتعتي .

الوقت للرد على رسالتك . . ولم أشأ أن تبرح باريس معتقداً بأنني أنقم عليك . . ولم يكن من رأي برودنس أن أقوم بهذه الزيارة مخافة أن أزعجك .

- أنت تزعجيني يا مرغريت؟ أنت؟ كيف بحق السماء؟
فأجابت برودنس :

- ربما كانت معك إحدى السيدات فيضايقها أن ترانا .

ونظرت مرغريت إلى وجهي بإمعان . . بينما كانت برودنس تنطق بهذه الكلمات .

أجبت :

- إنك لا تدركين ما تقولين يا عزيزتي برودنس !
قالت :

- إنك تقيم في شقة أنيقة . . فهل أستطيع أن أرى غرفة نومك؟
- يغير شك . .

فقصدت برودنس إلى مخدعي . . وأغلب الظن أنها لم ترغب في رؤية الغرفة بقدر ما كانت راغبة في إخلاء الجو لنا . . تكفيراً عن الحماسة التي نطقت بها .
سألت مرغريت :

- لماذا جئت ببرودنس؟

- لأنها كانت معي في المسرح . . ولأنني بحاجة إلى من يرافقني عندما أنصرف من هنا .

- أأنت هنا لأرافقك؟

- نعم . . ولكنني لم أرغب في إزعاجك . ثم إني على بينة من أنك إذا رافقتني إلى منزلي فستطلب أن ترافقني إلى مخدعي . .

ولمّا لم يكن في استطاعتي أن أجيبك إلى هذا فقد آثرت أن ترحل . . دون أن أمهد لك برفضي سيلاً للعب عليّ .

- ولماذا لا تستطيعين استقبالي في مخدعك؟

- لأنني موضع مراقبة شديدة . . وأية شبهة قد تجلب عليّ ضرراً بليغاً .

- هل هذا هو السبب الأوحده؟

- لو كان هناك سبب آخر لذكرته لك فقد أصبحت الصلة بيننا بحيث لا يجوز لأحد أن يكتم سرّاً عن صاحبه .

- قولي الصدق وكوني صريحة يا مرغريت . . لأنني سأحدثك بما عندي في غير موارد . . هل أنت تحبيني ولو قليلاً؟
- بل أحبك كثيراً .

- لماذا تخدعيني إذا؟

- أصغ إلي يا صديقي . . لو كنت دوقة أو مركيزة . . ولي إيراد يقرب من المائتي ألف فرنك . . وكنت خليلتك . . ثم اتخذت من دونك عشيقاً آخر . . لكان من حقدك أن تسألني لماذا تخدعيني؟ . . ولكنني لست دوقة أو مركيزة . . وليس لي هذا الإيراد . . وما أنا إلا مرغريت جوتيه . . مضافاً إليها دين يزيد على أربعين ألف فرنك . .

- إنني لا أملك سنتيماً واحداً . . وأنفق مائة ألف فرنك في العام . . فسؤالك إذا لا مسوغ له . . وجوابي إذا لا ضرورة له .

فأجبت . . وأنا أسند رأسي إلى ركبتيها :

- هذا صحيح . . ولكنني أحبك حب وكره .

- يجب أن تحبني أقل من ذلك . . أو أن تفهمني خيراً مما تفهمني

الآن .

إن رسالتك آلتني كثيراً . . . ولو كان أمري بيدي لما استقبلت الكونث . . . ولو استقبلته لكنت أسرع إليك في التماس الصفح الذي تلتسه أنت مني الآن . . . ولما اتخذت لنفسى عشيقاً بعد ذلك سواك .

لقد مرت بي لحظة توهّمت فيها أنني أستطيع - ولو لبضعة شهور - أن أستمع بالسعادة التي تحدّثنا عنها . . . ولكنك لم تشأ . . . وأبيت إلا أن تعرف وسائلني لبلوغ هذه السعادة .

وهذه الوسائل ليس من المتعذّر فهمها وإدراكها . . . ولكنها تنطوي على تضحية أعظم مما خيل إليك أنني أستطيع الإقدام عليه .

لقد كان بوسعي أن أقول لك «أريد عشرين ألفاً من الفرنكات» . وأنت تحبني . . . وستجد حتماً وسيلة ما للحصول على هذا المبلغ . . . ولكني سأكون هادفاً لأن تعبرني بذلك في المستقبل . . . ولهذا أثرت ألا أكون مدينة لك .

غير أنك لسوء الحظ لم تفهم وجهة نظري من ناحيتها العاطفية الدقيقة . . .

إن مثيلاتي من النساء . . . إذا بقيت لهنّ بقية من الشعور . . . فإنهنّ ينظرن إلى الأشياء بغير العين التي ينظر بها سواهنّ . . . وأنا أقول لك مرة أخرى إن اللحظة التي فكرت فيها مرغريت جوتييه لسداد ديونها دون أن تطالبك بالمال اللازم . . . هي خطة صادرة عن شعور دقيق . . . وكان ينبغي قبولها بغير اعتراض .

فلو أن الصلة بيننا قد بدأت اليوم لرحبت بخطتي ولم يخطر لك أن تسألني عما فعلت أول أمس .

إننا نضطر في بعض الأحيان أن نشترى هداية نفوسنا ببسيع

أجسادنا . ولشد ما نتألم إذا وجدنا آخر الأمر أن الهناء الموعود قد أقلت من أيدينا .

كنت أحملق نحوها . . . وأصني إلى كلماتها بإعجاب . . .

وعندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة . . . التي كنت أشعر منذ لحظة بأن السعادة كل السعادة في أن افتتح تحت قدميها . . . عندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة قد أفسحت لي مكاناً في فكرها وحياتها . . . وأن ذلك كله كان أبعد من أن يرضيني . . . لم أتمكن من أن أسأل نفسي «أليس لمطامع الإنسان من حد؟ أم هو كلما حقق مطمعاً جدّ في مطمع آخر؟» .

واستطردت مرغريت :

- إن ما يقال عن غرابة أطوارنا وتقلب أهوائنا - نحن النساء اللاتي نتجبر بأجسامنا وعواطفنا - صحيح لا ريب فيه . . . فنحن الآن نسلم أنفسنا لسبب . . . وغداً نسلم أنفسنا لسبب آخر . وهناك رجال يجلبون على أنفسهم الخراب من أجلنا . . . ومع ذلك لا نسمح لهم من أنفسنا بما يشتهون بينما نعطي أنفسنا لأخريين من أجل باقية من الزهور .

إن لقلوبنا أطوارها الخصيصة . . . ولها كذلك أهواؤها وأعذارها . وأقسم لك أنني أسلمت نفسي بأسرع مما أسلمتها لأي رجل آخر . . . فهل تعلم لماذا؟ لأنك رأيت الدم ينزف من صدري . . . فتناولت يدي وسكنت عليها دموعك .

لأنك الإنسان الوحيد الذي أخذته الشفقة بي .

سأحدثك الآن حديثاً قد يكون ضرباً من السخف .. ولكنه حقيقي .

كان عندي في وقت ما كلب صغير اعتاد أن ينظر إليّ بحزن كلما سعلت .

هذا الكلب هو المخلوق الوحيد الذي أحببته .. ولما مات بكيت عليه كما لم أبك على أمي وأبي .

وقد أحبك فجأة .. كما كنت أحب كلبى .

لو علم الرجال ماذا يستطيعون ابتياعه بدمعة واحدة .. إذا لنعموا من حبنا بأكثر مما ينعمون الآن . ولترفقنا بهم .. ولم نثقل كواهلهم ونعجل بخرابهم .. كما نفعل الآن .

إن رسالتك قد ثمت عليك .. وفضحت جمود قلبك .. وأضعفت حبي لك .. كما لا يمكن أن يضعفه شيء آخر .

كانت عباراتها تنطوي على الغيرة .. ولكنها غير ساخرة وقحة .

وقد كنت حزينة قبل أن أنسلها .. وكنت أنتظر بكفارغ الصبر .. لكي أتناول الطعام معك .. وأمحو خاطراً يقلقني .. وما كنت أقيم له وزناً قبل أن أعرفك .

لقد كنت الشخص الوحيد الذي توهمت أنني أستطيع معه أن أفكر وأتحدث بحرية وصراحة .. لأن كل أولئك الذين يدورون بفتاة مثلي .. يزنون كل كلمة تنطق بها .. ويستخرجون المعاني من كل حركة تصدر عنها .. فتحزن ليس لنا أصدقاء .. ولكننا لنا عشاقاً أنانيين يبدرون أموالهم .. ليس من أجلنا كما يزعمون .. وإنما لإرضاء لصالفهم وخيالاتهم .. وغرورهم .

وأمام هؤلاء العشاق .. يجب أن نتظاهر بالمرح .. وإن كان الألم

يعصر نفوسنا .. ومحظور علينا أن يكون لنا شعور أو قلب .. وإلا أضعنا سلطاننا .. وفقدنا مراكزنا .

إننا نحتل المكان الأول من أنانية عشاقنا .. والمكان الأخير من اعتبارهم .

ولنا صديقات .. ولكنهن على مثال برودنس .. نساء كن فيما مضى يعيشن عيشتنا .. ثم أقعدهن الكبر عن إشباع غريزة الإسراف وحب الترف .. فأتخذنا لهن صديقات .. وقد تتواضع صداقتهن في بعض الأحيان إلى حد العبودية .. ولكنها لا ترتفع فوق المصلحة الشخصية ..

وأولئك الصديقات .. لن يذنبن لنا من النصح إلا ما يعود عليهن بالفائدة المادية .. ولا يهمن أن يكون لنا عشرات العشاق في وقت واحد .. ما دمن ينلن منا أو من عشاقنا ثوباً أو سواراً .. وما دمن يرافقن أحياناً إلى المسرح أو في نزهة بالركبة .. ولا تقدم إحداهن خدمة لنا إلا وتأخذ أجرها مضاعفاً .. ولعلك رأيت كيف أنفذت برودنس إلى الدوق في طلب ستة آلاف فرنك .. وكيف أخذت مني أربعمائة فرنك على سبيل القرض .. ولكنه قرض لن يرد .

إن سعادتي الممكنة .. أو بتعبير أصح .. كانت سعادتي الممكنة - رغم حزني في بعض الأحيان .. ومرضي دائماً - أن أجد رجلاً من صمم الخلق وكبير القلب .. بحيث لا يعد عليّ الحركات والسكنات .. ولا يطالبني بأن أقدم إليه حساباً عن حياتي .. رجلاً يعشق في النواحي الحسية أكثر مما يعشق جسدي .. وقد وجدت الرجل الذي أنشد في الدوق .. ولكن الدوق شيخ هرم .. والشيخوخة آخر ما تعطف عليه المرأة .. وقد حاولت أن أحيي الحياة

التي اقترحها علي .. ثم شعرت بأن هذه الحياة تقتلني سأمًا
وملالة .. فقلت لنفسي : «إذا كان لا بد للإنسان من أن يموت ..
فخير له أن يحترق في النار من أن يخنق بالدخان» ..

وحدث عندئذ أنني قابلتك .. أنت الشاب السعيد .. المتقيد
العاطفة .. الممتلئ رغبة في الحياة .. فحاولت أن أجعل منك الرجل
الذي طالما تخيلته في وحدتي .. وأحييتك لا كما أنت .. وإنما كما
يمكن أن تكون .. ولكنك لم تقبل ما أردته لك .. ولفظته كشيء لا
يجدر بك .. وكنت كذلك رجلاً مادياً لا يختلف في شيء عن
الرجال العاديين .. ولم يبق إلا أن تفعل ما يفعله سائر الرجال ..
فتقديني الثمن على بذلي لك نفسي .. ونتهي ما بيننا .

*

وأتعبها هذا الحديث الطويل .. فنامت في مقعدها .. ووضعت
منديلها على شفتيها لتخمس نوبة السعال التي انتابتها ..
قلت :

- عفواً يا مرغريت .. إنني فهمت كل هذا .. ولكنني أردت أن
أسمعه من فمك .. فلننس إذاً كل شيء .. ولا نذكر إلا شيئاً
واحداً .. هو أنني لك وأنت لي .. وأنتا ما زلنا في ريعان
الشباب .. وكل منا يحب صاحبه .. اصنعي بي ما شئت يا
مرغريت .. فإني عبدك وكلبك .. فقط مرزقي تلك الرسالة التي
بعثت بها إليك .. ولا تدعيني أرحل غداً ..

فأخسرت الرسالة من صدرها .. وودتها إلي .. وهي تقول
بصوت رقيق :

- انظر .. لقد أحضرتها لك .

فألقيت الرسالة في الموقد ... وقبّلت اليد التي ردتها إلي .
وفي هذه اللحظة أقبلت برودنس .. فقالت مرغريت :

- هل تعلمين ماذا يطلب يا برودنس؟

- إنه يطلب الصفح .. اليس كذلك؟

- نعم .

- وهل صفحت عنه؟

- لم يسعني إلا أن أصفح .. بيد أنه يريد شيئاً آخر .

- ما هو؟

- يريد أن يتناول معنا طعام العشاء .

- وهل وافقت؟

- ما رأيك أنت؟

- رأيي أنكما طفلان ليس في رأسيكما عقل .. ورأيي كذلك أنني
أكاد أموت جوعاً .. وأن خير ما تفعلانه التمسجيل في هذا العشاء .
فقالت مرغريت :

- وأظن أن مركيتي تتسع لثلاثتنا .

ثم تحوكت إلي واستطردت :

- وبهذه المناسبة .. أعتقد أن نائين قد أوت إلى قراشها .. وأنه

يتعين عليك أن تفتح الباب .. فإليك المفتاح .. وحذار أن تفقده مرة
أخرى .

فقبّلت يديها .

وجاء خادمي جوزيف .. وقال بلهجة الرجل الفخور بما صنع :

- لقد فرغت من وضع الأمتعة في الحقائب يا سيدي .

- هل وضعت الأمتعة كلها؟

- نعم يا سيدي .

- أحسنت .. أخرجها من الحفائب إذا .. فقد عدلت عن السفر .

الفصل السادس عشر

كان بإمكانني أن أقصّ عليك كل هذا في كلمات قليلة .. ولكنني أردت أن تعرف كيف تدرّجت الصلة بيني وبين مرغريت .. حتى أصبحت أطأطن الرأس لكل رغباتها .. وحتى أصبحت هي لا تطيق الحياة من دوني .

وقد كان في اليوم التالي لتلك الزيارة .. أنني أهديت إلى مرغريت كتاب «مانون ليسكو» .

لما وجدت مع مرور الأيام أنني لا أستطيع تحويل مرغريت من الحياة التي ألفتها .. فإني تحوكت عن الحياة التي ألفتها .. وكان كل همّي دائماً ألا أستمرسل في التفكير في الدور الذي قبلت أن أقوم به .. لأن التفكير كان من شأنه أن يجلب عليّ الحزن والأسى على الرغم مني .

وهكذا استحوالت حياتي الهادئة إلى حياة كلها صخب واضطراب .. ويجب ألا تتوهم أنّ معاشرته فتاة كمرغريت .. ومهما تحمّدت من الأطعمة .. لا تكلف كثيراً .. فإنه ليس أغلى من تكاليف الزهور والحلوى والمسارح .. والمآذب .. والرحلات الريفية .. وغير ذلك مما لا يستطيع الرجل أن ينكره على عشيقته .. فكيف بمرغريت؟

وأحسبني قد ذكرت لك أنني لم أكن واسع الغنى .. فقد كان أبي ولا يزال صيرفياً .. ولكنه رجل عرف بالأمانة والاستقامة فاستطاع أن يدبر لشقيقتي بائنة لا بأس بها .

وكانت والدتي قد توفيت عن إيراد سنوي يقدر بستة آلاف من الفرنكات .. فقسم أبي هذا الإيراد بيني وبين شقيقتي .. ومنحني من إيراده الخاص مرتباً سنوياً قدره خمسة آلاف فرنك .. وأتد لي أن هذه الثمانية آلاف فرنك التي اجتمعت لي تكفي لسداد حاجاتي إذا أقمت في باريس .. ونصح لي أن أختار بين الاشتغال بالطب أو المحاماة .. فجئت إلى باريس .. وواصلت الدرس والتحصيل حتى نلت إجازة المحاماة .. ولكنني دسستها في جيبي كما يفعل سائر الشباب .. وانصرفت إلى حياة اللهو والعبث والبطالة .

وكانت نفقاتي غاية في الاعتدال وحسن التدبير .. ولكنني كنت أنفق كل إيرادي السنوي في ثمانية شهور .. ثم أقضي أربعة شهور الصيف في بيت أبي .. وبذلك استطعت أن أوفق بين قلة إيرادي وواجبي كولد بار بأبيه .

على أنني لم أكن مديناً بستم واحد .. لكائن من كان . وقد كان ذلك حالي إلى أن عرفت مرغريت .. فعندئذ تضاعفت نفقاتي على الرغم مني .

وقد كانت مرغريت امرأة ساهية القلب .. من أولئك النساء اللاتي لا يعتبرن تكاليف الملاهي وضروب التسلية .. وآلاف الترفيه التي تتألف منها حياتهن .. شيئاً ذا قيمة .. وكانت النتيجة أنها إذا أرادت أن تقضي مسعى أطول وقت ممكن .. فإنها تكتب إليّ في الصباح قائلة إنها تريد تناول الغداء معي .. ليس في منزلها .. وإنما

في هذا المطعم أو ذلك . . في باريس أو في الضواحي . . فأذهب إليها . . وأصطحبها إلى المطعم الذي ذكرته . . ثم نقصد معاً إلى المسرح . . ثم نتناول معاً طعام العشاء . . ولا يتقضي المساء حتى أكون قد أنفقت أربعة أو خمسة جنيهات . . أي بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ فرنك شهرياً . . وهكذا أصبح إيرادي السنوي لا يكاد يكفي نفقات ثلاثة شهور . . وصار يتعين عليّ . . إما أن أستدين وأغرق في الديون . . أو أهجر مرغريت .

وطبيعي أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء وكل شيء إلا أن أهجرها .

ومعذرة إذا كنت أطيل في هذه التفاصيل . . فإنها - كما سترى - نواة الحوادث التالية . . ثم إنني أسرد عليك قصة حقيقية جدية بأن تحتفظ بكل بساطتها الطبيعية .

أدركت إذا أنني ما دمت لا أستطيع أن أهجر مرغريت . . فعن الضروري أن أبحث عن مورد جديد يكفل لي النفقات الإضافية التي استحدثتها عشيتي .

أضف إلى ذلك أن غرامي بمرغريت كان يملأ كل جوانحي . . حتى أصبحت ساعات الفراق أطول من الأعوام . . ففكرت في البحث عن هواية تشغلني طيلة هذه الساعات القائلة . . وتساعدني على قضاء الوقت بحيث لا أشعر بمروره .

فاقتضت ستة آلاف من الفرنكات . . وشرعت أقامر . . خصوصاً وأن المقامرة أصبحت سهلة ميسورة لكل إنسان . . وفي كل مكان . . منذ أغلقت متديبات الميسر .

وهكذا تحركت حياتي الهادئة الساكنة . . إلى حياة صاخبة كلها حركة ونشاط وانفعال . . ولكني لم أجد منها مفرّاً . . لأنها أصبحت الشيء الضروري المكمل لغرامي بمرغريت .

لم يكن يغمض لي جفن طيلة الليالي التي لا أنقضيها في شارع دانتان مع عشيتي . .

كنت أجد نفسي نهياً موزعاً بين القلق والأرق والغيرة . . . ولكني وجدت في القمار دواء للحمى التي تنهش قلبي . . فكنت أأزيم الطاولة الخضراء حتى يحين موعد لقائي بمرغريت . . فأنهض في الحال . . سواء أكننت رابحاً أم خاسراً . . وكثيراً ما اضطرت إلى النهوض في الوقت المناسب . . الذي يراه اللاعب الخبير أفضل وقت لترك الطاولة . . .

وحالفني الحظ . . فلم أتورط في الديون . . وتضاعف المبلغ الذي بدأت به اللعب . .

وفي هذه الأثناء . . بدا أن حياة مرغريت تطوّرت تطوراً أدناها من الشفاء صحياً على الأمل . . فقد آليت على نفسي أن أبرئها من سقمها . . وأدركت المسكينة غرضي . . فأطاعتني ونزلت على إرادتي . . لكي تثبت وفاءها . . ولم أجد صعوبة في عزلها تماماً عن كثير من العوامل الهادمة لصحتها . .

وكننت قد عرضت أمرها على طبيبي الخاص . . فقال لي أن لا شيء يرد عليها الصحة كالراحة والهدوء . . والحياة المنتظمة . . فوضعت نظاماً لطعامها وراحتها وتوهمها . . وصرفتني عن المأدب والسهرات الطويلة . . وألفت هي هذه الحياة الجديدة . . وأنادت

منها .. وأصبحت تقضي أياماً برمتها في بيتها .. فإذا اعتدل الجو خرجت بمركبتها إلى الشانزليزيه .. ومتى عادت .. كانت متعبة فتناول بعض الطعام .. وتعزف قليلاً على البيانو .. أو تقرأ قليلاً في أحد الكتب .. وهو ما لم تكن تفعله من قبل .

وهكذا استردت صحتها .. وانخفضت تقريباً تلك السعلة العنيفة التي طالما خيل إليّ كلما سمعتها كأن صدري يتمزق .

وبعد ستة أسابيع انمحنى ذكر الكونت دي . ج . تماماً .. فقد ضحت به مرغريت ونفضت يدها منه .. وأصبح الدوق هو الشخص الوحيد الذي يتعين علينا أن نكتم صلتنا عنه .

وحان الوقت الذي تعودت أن أقضيه بين أبي وأختي .. فكتبتا إليّ يلحاح يرجوانني أن أذهب إليهما .. ولكنني ذهبت أخلق الأعذار وأطمئنهما بأنني في غير حال .. ولا حاجة بي إلى النقود .. ظناً مني بأن ذلك يكفي للعدول عن إقناعي بزيارتهما كالمعتاد .

وحدث في يوم صافٍ جوة ورقٍ نسيمه أن وثبت مرغريت من فراشها .. وهي ممتلئة نشاطاً وحيوية .. واقترحت عليّ أن تقضي ذلك اليوم في الضواحي . فأرسلنا إلى برودنس وانطلقنا ثلاثاً إلى الزهرة .. بعد أن أوصت مرغريت وصيفتها بأن تنبئ الدوق بأنها قد انتهزت فرصة صفاء الجو فخرجت مع برودنس للزهرة بين الحقول .

ولم تكن صحة برودنس ضرورية لإبعاد ريبة الدوق فحسب .. ولكنها كانت كذلك من الناس الذين خلقوا لإعماش الرحلات الخلوية .. بما طبعوا عليه من المرح وخفة الروح وشدة القابلية للطعام .

وهي التي اختارت لنا أن نقصد إلى «بوجيفال» .. حيث توجد حانة يقال لها حانة الفجر .. تديرها امرأة تدعى مدام أرنولد . فاستأجرنا إحدى المركبات .. وبعد ساعة ونصف ساعة .. كنا في «بوجيفال» .

ولا شك أنك تعرف حانة «الفجر» هذه .. فإنها من أبداع الحانات في القرى .. وبها حديقة كبيرة تشرف على وادي «جامبليون» المترامي الأطراف وعلى جزيرة «كرواسي» التي تتخذ وكرها في قلب نهر «مارلي» .

لقد اعتاد العشاق أن يقرنوا الحب بالحقول والمناظر الطبيعية الخلابة .. والواقع .. أنه لا يوجد محيط للمرأة التي تحبها أجمل وأفتن من زرقة السماء .. وشذى الزهور .. وسحر الغابات العذراء .. والحقول النضيرة .

وإذا كنت قد أحببت في أحد الأيام حباً قوياً صحيحاً .. فإنك دون شك قد خبرت ذلك الشعور الذي يحجب إلى العاشق أن يعزل من سائر العالم تلك المخلوقة المعبودة التي يريد أن تعيش له ومن أجله فقط .. كأنه يخشى عليها فتنة الأشياء والمخلوقات التي تحيط بها .. أو كأنه يشفق أن يتسرب شذاها إلى الكائنات حولها .

وقد كان هذا هو شعوري في «بوجيفال» .

لم أكن أحب امرأة كسائر النساء .. بل كنت أحب مرغريت جوتيه .. المرأة التي قد أنتقي في كل خطوة أخطوها في شوارع باريس برجل كان عشيقها بالأس .. أو قد يصبح عشيقها غداً .

أما في هذه الحقول .. ووسط هؤلاء الناس .. الذين لا يعرفونا

ولا يهمهم أمرنا .. فإنني أستطيع أن أنعم بالحب في غير ما خجل
أو تحفظ أو غيره ..

*

وغابت المرأة الغائبة تدريجاً .. ونسيت الماضي .. أو لم أعد أذكر
منه ما يقلق ويخجل .. وأصبحت لا أرى بجانبني إلا صبية حسناء
نجني وأحبها .. صبية تشرق عليها الشمس كما تشرق على أطهر
العذاري ..

وأخذنا نخطر وسط المناظر الطبيعية الساحرة التي لم تخلق إلا
للإلهام الشعراء .. ومرغريت تهمس في أذني أعذب كلمات الحب ..
والعالم الصاخب بعيد عن حواسنا .. لا يلقي ظله الحالك على
صورتنا الباسمة .. صورة الشباب والحب ..

*

وأبصرت .. ونحن في غيواننا على ضفة النهر .. منزلاً صغيراً
بديعاً .. يقع على حافة غاية عذراء .. يغطيه ثوب أبيض من النباتات
الطفيلية المتسلقة ..

وأطلت النظر إلى هذا الوكر الجميل .. حتى خيل إلي أنه جزء
من حلم العزلة الهنيئة التي كنت أتوق إليها منذ لحظة .. وقلت
لنفسي : « هل في الحياة سعادة أعظم من سعادة عاشقين يتخذان هذا
البيت وكرأ لهما ؟ »

ولاحظت مرغريت كيف أنعم النظر نحو المنزل الصغير .. ولعلها
أدركت بحسها ما يطوف بذمتي من الخواطر لأنها هفت :

.. ما أجمل هذا الوكر ..

فقلت برودنس :

- أين هو ؟

فأشارت مرغريت نحوه .. وهفت برودنس :

- ما أبدعه .. هل تسرك الإقامة فيه ؟

- تسرني كثيراً ..

- إذا ما عليك إلا أن تطالبي الدوق بأن يستأجره لك .. وفي
استطاعتي أن أقنعه بذلك إذا شئت ..

فتطلعت إلي مرغريت كأنها تسألني رأيي ..

قلت وأنا لا أزال متأثراً بذلك الحلم البديع :

- إنها فكرة حسنة ..

فقلت مرغريت :

- إذا فساد الأمر ..

وضغطت على يدي بحرارة ..

*

كان المنزل خلواً من السكان .. وكان إيجاره السنوي الغني من
الفرنكات ..

سألني مرغريت :

- هل تكون سعيداً بالإقامة هنا ؟

- ومن يعلم إذا كنت سأقيم فيه ؟

- لأجل من إذا سادفني نفسي هنا .. إن لم يكن لأجلك ؟

- إذا ، دعيني أستأجر لك هذا المنزل بنفسني ..

- هل جئت ؟ ذلك عسير .. فضلاً عن أنه لا ضرورة له ..

أنت تعلم أنني لا أقبل ذلك إلا من رجل واحد فقط .. فأتوك لي

تدبير الأمر إذا .. ولا تنيس بكلمة ..

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي .. صرفتني مرغريت من مخدعها مبكراً .. قائلة إن الدوق سيأتي لزيارتها في الحال .. وإنها ستكتب إلي .. بعد انصرافه .. لتحدد موعد مقابلتها التالية ..

والواقع .. أنني تسلمت منها قبيل الظهر رقعة عليها هذه الكلمات :

«إني منطلقة إلى بوجيفال بصحبة الدوق .. فانتظري في بيت برودنس في الساعة الثامنة مساء» .

وفي الموعد المحدد .. أقبلت علينا مرغريت وهي تقول :

- لقد دبرت كل شيء .. وانتهى الأمر ..

فسألتها برودنس :

- هل استأجر لك المنزل؟

- نعم .. دون أن يعترض حتى بكلمة ..

لم أكن أعرف الدوق .. ولكنني لم أقالك من الشعور بالحجل في تلك اللحظة .

واستطردت مرغريت :

- ولكن ذلك ليس كل ما هنالك .. فقد أعددت مكاناً لإقامة أرماني أيضاً .

فهتفت برودنس ضاحكة :

- في المنزل نفسه؟

- كلا .. بل في حانة الفجر .. حيث تناولت الطعام مع الدوق .

وقد انتهزت إحدى الفرص .. وسألت مدام أرنولد عما إذا كانت لديها غرفة أنيقة تصلح لإقامة شاب أعزب .. فأجابت بالإيجاب .. وذهبت بي إلى غرفة فاخرة الأثاث .. لإيجارها الشهري ستون فرنكاً .. فاستأجرتها في الحال ..

أفلم أحسن صنعا؟

فقبلتها .. ولم أجب ..

وسألت برودنس :

- ومتى تنوين الرحيل إلى بوجيفال؟

- في أقرب وقت ممكن .

- وهل تأخذين معك مركبتك وجيادك؟

- طبعاً .. وسأترك منزلي لعائيتك في أثناء غيابي .



بعد أسبوع .. انتقلت مرغريت إلى بيتها الجديد في «بوجيفال» .. وانتقلت أنا إلى غرفتي في حانة الفجر .

ومن ثم بدأنا حياة يتعذر عليّ وصفها .



لم تتنكر مرغريت في بدء إقامتها في «بوجيفال» لكثير من عاداتها السابقة .. فأشرعت باب بيتها لأصدقائها العديدين .. ولم يكن يمر يوم دون أن أرى على مائدتها ثمانية أو عشرة من أولئك الأصدقاء ..

وراحت برودنس من ناحيتها تدعو جميع أصحابها وصويبعاتها .. وتستقبلهم في المنزل .. كأنه منزلها .

كل ذلك والدوق ينفق بغير تهرم ! على أن هذا لم يمنع برودنس من أن تسألني في بعض الأحيان - باسم مرغريت - ألفاً أو ألفين من

الفرنكات . . وطبعي أنني كنت أجيها إلى ما تطلب بغير تردد . .
ثم خشيت أن تحتاج مرغريت إلى المزيد من المال . . فاقترضت ستة
آلاف من الفرنكات رصدها لمطالبها التي لا تتوقف .

ثم لاحظت مرغريت أن إسرارها في استقبال أصدقائها يكلفها
كثيراً من النفقات . . ويلجئها إلى معونتي في بعض الأحيان . .
فعمدت إلى الاقتصاد في دعوتهم والترحيب بهم .

وكان الدوق الذي استأجر لها هذا المنزل خصيصاً . . لثمنه فيه
بالراحة والسكينة . . قد بدأ كذلك يقتصد في زيارته خوفاً من أن
يجد نفسه عندها . . وسط طغمة من الشباب العايب الطروب . .
وحدث ذات يوم أنه ذهب إليها . . فوجد نفسه وسط خمسة عشر
زائراً وزائرة كانوا يتناولون معها طعام الإفطار في الوقت الذي كان
يتوقع أن يتناول فيه معها طعام الغداء . . وما كاد الرجل المسكين
يفتح غرفة الطعام . . حتى قابله الزائرون بعاصفة من الضحك . .
فتراجع في الحال . .

ونهضت مرغريت عن المائدة . . ولحقت به إلى غرفة أخرى . .
وحاولت أن تزيل ما علق بنفسه . . ولكن الرجل أحس بأن كرامته
ثلثت . . فانصرف حائفاً مغضباً . . يعد أن قال لها بشيء من الغلظة
والقساوة إنه تعب من الإفاق على امرأة لا تعرف كيف تجعله
محترماً في بيتها . .

•

ولم نره بعد ذلك . . فاضطرت مرغريت أن تمتنع عن دعوة
أصحابها . . ثم دعيت إلى الإقامة معها نهائياً . . ولم تحاول بعد ذلك
أن تكتم العلاقة بيننا .

•

وصادف ذات يوم أنني كنت في الحديقة فرأيت برودنس مقبلة . .
ولاحظت أن مرغريت قد حقت لاستقبالها . . وأسرعت بها إلى
غرفتها . . فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها . . وملكني فضول إلى
معرفة ما هنالك . . فاقترت من باب الغرفة . . وأصغيت .
قالت مرغريت بلهجة تنم عن القلق :

ـ حسناً . . ماذا فعلت؟

فأجابت برودنس :

ـ لقد قابلت الدوق .

ـ وماذا قال لك؟

ـ قال إنه على استعداد لأن يغفر لك الإهانة التي لحقت به في
بيتك . . ولكنه علم أنك تقيمين علانية مع السيد أرمان ديهال . .
وذلك ما لا يستطيع أن يغفرك لك . واستطرد قائلاً : «قولي لمرغريت
أن تهجر هذا الشاب فإلبي جميع رغباتها . . كما كنت أفعل قبلاً . .
والأوجب عليها أن تكف عن مطالبتي بأي شيء» .
ـ وما أجبت؟

ـ أجيبته بأنني سأنقل إليك طلبه . . ووعدته بأن أردك إلى
الصواب . . ففكرتي جيداً يا بنيته العزيزة . . ففكرتي في المكانة التي
ستفقدونها . . والتي لن يستطيع أرمان أن يعيدك إليها .
إنه يحبك من كل قلبه . . ولكن ثروته لا تكفي لتحقيق رغباتك
وتلبية مطالبك . . وسيأتي يوم يهجرك فيه . . وعندئذ تبحثين عن
الدوق فلا تجدينه .

هل تريدني على أن أقدمت إلى أرمان في صراحة؟
فصمت مرغريت كأنما تفكر . . ووثب قلبي بعنف في انتظار
جوابها .

قالت أخيراً :

- كلاً .. لن أعجز أومان .. ولن أتواري عن الأيصار لكي أعيش معه .

ربما كان ذلك هو الجنون بعينه .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟

ثم إنه ألف الحياة معي دون عائق .. فإذا أقصيته عني ولو ساعة واحدة تألم أشد الألم .

وبعد .. فلاني حياتي قصيرة الأجل .. وليس ما يستوجب أن أقضي السنوات الباقية من حياتي في شقاء وتعب وإرضاء لرجل هرم يشمرني مرآة بوطلة الشيخوخة .

كلاً .. كلاً .. ليحفظ الدوق بأمواله .. إنني لست بحاجة إليها .

- وما العمل إذا ؟

- لا أعلم ..

*

ولا أدري ما الذي قالته برودنس بعد ذلك .. لأثني فتحت الباب فجأة وألقيت بنفسي تحت قدمي مرغريت .. ودموع الفرح والحب تنهمر من عيني .

قلت :

- إن حياتي لك يا مرغريت .. فلا حاجة بك إلى هذا الرجل .. أليس هنا؟ وهل يمكن أن أعجزك أبداً؟ وهل أستطيع أبداً أن أعوزك عن السعادة التي تهينها؟ كل منا يحب صاحبه .. فماذا يهمنا غير ذلك يا مرغريت؟

فغمضت .. وهي تحيط عتقي بساعدها :

- نعم .. إنني أحبك يا أومان .. وأحبك كما لم أتصور قط أنني

أستطيع أن أحب .. فلنكن سعيدين .. ولنعيش في هدوء وسلام .. ولأودع إلى الأبد الحياة التي يحمر منها وجهي الآن .. إنك لن تعيرني بماضي .. أليس كذلك يا أومان؟

فحجبت الدموع صوتي .. وأجمل الانفعال لساني .. وكان جوابي الأوحده أنني ضمنتها إلى صدري .

وعندئذ تحوكت إلى برودنس .. وقالت بصوت يرتجف من التأثير :

- والآن .. في استطاعتك أن تصفي للدوق هذا المنظر .. وأن تقولي له بلساننا إننا لنا بحاجة إليه .

*

منذ ذلك اليوم .. انتهت الصلة بينها وبين الدوق .. وأصبحت امرأة غير المرأة التي أعرفها .. فتجبت أساليب الحياة التي كانت تحياها من قبل .. والتي كانت كفيلة بأن تجلب لي الخراب والدمار .. وأوقفت علي من حنانها وعنايتها ما لا يمكن لزوجة أو أخت أن توقفه على زوجها أو أخيها .

ونفضت يديها من سائر أصدقائها .. وأقلعت عن عاداتها السابقة .. ونهجه وأسرافها .. وأصبح من المستحيل على من يراها في ثوبها الأبيض البسيط .. وقبعتها المتواضعة .. أن يعرف فيها مرغريت جوتييه التي كانت منذ أربعة شهور مضرب الأمثال في البذخ والتبذل .

وانقضى شهران آخران لم تزر في خلالها أحداً .. ولم يأت أحد لزيارتنا سوى برودنس .. وجوليا إيسار التي حدثتك عنها .. والتي عهدت إليها مرغريت فيما بعد بيومياتها ومذكراتها .

*

يفعل سابقاً .

ولمّا لم يلق الدوق رداً . . كَفَّ عن الكتابة إليها . . وسارت
حياتها في مجراها الطبيعي .

الفصل الثامن عشر

أنت تعرف ما هو الحب . . وتعرف كيف يقضي العشاق
أوقاتهم . . وكيف يسمحون لنشوة الحب أن تربط أمهم بدهم . .
وأن تلهيهم عن كل شيء في الوجود . . إلا السعادة التي يرتشفونها
معاً .

كنا نخرج إلى الغابة ليلاً في بعض الأحيان . . حيث نصغي إلى
أنغام المساء . . وتحلم بالساعة التي نتعاقق فيها إلى بزوغ الفجر .

وأحياناً أخرى . . كنا نقضي النهار كله في القراش . . ولا تسمح
لأحد أن يقتحم علينا هيكल الحب . . حتى نحمل إلينا نائين
الطعام . . فتناوله في القراش كذلك . . وسط رثات الضحك وآهات
المرح .

ولكن حدث أكثر من مرة أنني لاحظت على وجه مرغريت
مسحة من الحزن . . ورأيت في عينيها دموعاً أسي . . ولمّا سألتها
أجابني :

- إن حبنا ليس عادياً يا عزيزي أرمان . . فأنت تحبني كما لو أن
أحدًا لم يملكني قبلك . . وأنا أخشى أن تندم يوماً على هذا
الحب . . وأن تعيّرني يوماً بالماضي . . وأن ترغمني على العودة إلى
الحياة التي انتشلني منها .

ورحبت مرغريت بحباتنا الريفية رغم بساطتها . . وكان من
الدهش أن ترى هذه المرأة . . التي اعتادت أن تنفق في سبيل باقات
الزهور ما يكفي لإسعاد أسرة بروتها . . وهي تقضي الساعات
الطويلة أمام إحدى الزهور البرية المتاهية في البساطة . . أو وهي
تعدو خلف الفراشة كما تفعل الطفلة الساذجة البريئة التي لم تعرف
هموم الحياة وشقاءها . .

•

وفي ذلك العهد أقبلت مرغريت على قراءة قصة «مانون
ليسكر» . . وقد فاجأتها مراراً وهي تسجل بعض الملاحظات على
هوامش الكتاب . . وكثيراً ما قالت لي إن المرأة إذا أحببت . . فإنها لا
تفعل ما فعلته مانون . .

•

وقد كتب إليها الدوق رسالتين أو ثلاثاً . . ولكنها كانت تعرف
خطئه . . وتدفع إليّ برسالته دون أن تفتنها .

وفي بعض الأحيان . . كانت الدموع تترقق في عيني وأنا أقرأ
هذه الرسائل . .

ظنّ هذا الشيخ أنه يستطيع أن يستردها إليه إذا حبس عنها
أمواله . . فلمّا لم تجد هذه الوسيلة . . كتب إليها يرجوها أن تسمح
له بزيارتها كما كان يفعل قبلاً .

وقد مرّت هذه الرسائل دون أن أجدت مرغريت بمضمونها . .
وعلى الرغم من أن حزن هذا الشيخ المسكين كان يؤلني ويحزنني . .
فلأنني لم أنصح لها بمقابلته خوفاً من أن تلمس وراء هذه النصيحة
رغبة من ناحيتي في أن يعود الدوق إلى الاضطلاع بنفقاتها كما كان

إنني أؤثر الموت على العودة إلى الماضي بعد أن تذوقت سعادة هذه الحياة الجديدة .. فعندي بالأا تتركني أبداً يا أرمان .. أبداً مدى الزمان ..

- إنني لا أعددك .. بل أقسم لك .

نظرت إلى عيني .. كأنما للتحقق من إخلاصي .. ثم دفنت رأسها فوق صدري وهي تهتف :

- أواه .. إنك لا تعرف كم أحبك ..

*

و ذات مساء .. كنا نطل من النافذة ونرى القمر يشالب السحب .. وتصفي إلى زئيف الريح في أغصان الشجر .. وقد أمسك كل منا بيد صاحبه .. حين قالت مرغريت :

- إن الشتاء مقبل .. فهلاً ترى أن نبرح هذا المكان؟

- وإلى أين نذهب؟

- إلى إيطاليا .

- هل مللت الإقامة هنا؟

- إنني أخاف من الشتاء .. وأخشى من أن نعود إلى باريس .

- لماذا؟

- لأسباب كثيرة .

ثم استطردت .. دون أن تعبر عن أسباب خوفها :

- هل تذهب إلى إيطاليا؟ سأبيع كل ما أملك .. وسعيش هناك

بما يتجمع لدي من النقود .. وهناك لن يعرفني أحد .. ولن نرى

أثراً للماضي .. فهل توافق؟

- ما دامت هذه رغبتك فلنذهب .. ولكن ماذا يلجئك إلى بيع

أشياء سوف يترك أن نخديها عند عودتك؟ إن ثروتي لا تجيز لي الإقدام على تضحية جسيمة .. ولكن القليل الذي أملكه يسمح لنا أن نقوم بسياحة تستغرق خمسة شهور أو ستة ..

فقلت وهي تبعد عن النافذة .. وتجلس على مقعد في ركن مظلم :

- كلاً .. كلاً .. لماذا تنفق نفودك في الأسفار؟ بحسبي أنني أكلفك كثيراً هنا .

- هل تلوميني من أجل ذلك يا مرغريت .. وليس هذا من الكرم في شيء؟!

فقلت وهي تبسط إلي يدها .

- عفواً يا أرمان .. هذا الجو يؤثر في أعصابي .. فلاني أقول غير ما أعني ..

وقبلتني .. واستغرقت في تفكير عميق .

*

لم أعرف سبب حزنها وتفكيرها .. ولكنني خفت أن تكون قد شمت هذه الحياة الهادئة التي تتجدد .. ولا يتغير لونها وطمعها .. فاقترحت عليها أن نعود إلى باريس . ولكنها رفضت هذا الاقتراح .. وأكدت أنها لن تكون في أي مكان أسعد منها في «بوجيفال» ..

*

ثم لاحظت من بعد أن برودنس بدأت تقتصد في زيارتنا .. ولكنها تسرف في الكتابة إلى مرغريت .

وفي أحد الأيام .. لم تبرح مرغريت غرفتها .. فذهبت إليها .. ووجدتها تكتب .

سألته :

- لمن تكتبين؟

فأجابت :

- هذه رسالة لبرودنس .. فهل تود أن تقرأها؟

وكننت أفزع من كل ما تشتم منه رائحة الشك والريبة .. فأجبتها
بالنفي .. ولكنني شعرت شعوراً غامضاً بأن مضمون هذه الرسالة
يبيط اللثام عن السر في حزن مرغريت وكثرة تفكيرها .

وفي اليوم التالي .. اقترحت عليّ مرغريت أن نقضي النهار في
جزيرة كرواسي .. وكانت شديدة المرح والسرور .. فأجبتها إلى ما
طلبت .

ولمّا عدنا إلى المنزل في المساء .. قالت ناين :

- لقد جاءت برودنس .

فسألته مرغريت :

- وهل ذهبت؟

- نعم .. إنها ذهبت في مركبتك .. قائلة إنها اتفقت معك على

ذلك .

فقالت مرغريت بسرعة :

- لا بأس .. فلتناول طعام العشاء ..

*

وبعد يومين وردت رسالة من برودنس .

وانقضى بعد ذلك اليومين أسبوعان .. خيل إليّ فيهما أن

مرغريت قد نسيت حزنها الغامض . ولكن المركبة لم تعد !

سألته في أحد الأيام >

- كيف حدث أن برودنس لم ترد مركبتك حتى الآن؟

فأجابت :

- إن المركبة تحتاج إلى بعض الترميم .. ثم إن أحد الجياد أصيب

بمرض .. ونحن على كل حال لسنا بحاجة إلى المركبة هنا .

وجاءت برودنس لزيارتنا بعد بضعة أيام .. وأكدت ما قلته
مرغريت .

وسارت المراتان معاً في الحديقة وهما يتحدثان .. ولما لحقت
بهما .. صمتتا فجأة .

وقبل أن تصرف برودنس في المساء .. تدمرت من شدة البرد ..
وسألت مرغريت أن تعيرها معطفها .

وانقضى شهر آخر .. كانت مرغريت في خلاله أكثر حيوية ..
وأشدّ مرحاً .

ولكن المركبة لم تعد .. والمعطف لم يرد ! فأدهشتني ذلك ..
وانتهزت فرصة وجود مرغريت في الحديقة .. وحاولت أن أفتح
الدرج الذي اعتادت أن تضع فيه رسائل برودنس .. ولكن دون
جدوى .. فقد كان الدرج محكم الغلق .

وفتحت الأدراج الأخرى .. التي تضع فيها مرغريت حليها
ومجوهراتها .. ولشد ما كانت دهشتي عندما لم أجد أثراً للحلي
والمجوهرات .

استولت عليّ الريبة .. وهممت أن أسأل مرغريت الحقيقة ..
ولكنني شعرت بأنها لن تذكرها لي بحال .

قلت لها :

- يا حبيبي مرغريت .. إنني جئت أسألك أن تسمح لي بالسفر

إلى باريس . . فإن أسرتي لا تعرف مكانتي . . ولا بد أنني سأجد في منزلي بضع رسائل من أبي . . ولا شك أنه سيشعر بالقلق إذا لم يتلق رداً عليها .

فقالت :

- اذهب يا عزيزي . . ولكن عد بسرعة .

فذهبت .

وأسرعت إلى بيت برودنس .

قلت لها في غير لفة أو دوران :

- أجيبي في صراحة يا برودنس . . أين مركبة مرغريت

وجيادها؟

- بيعت .

- ومعتفها؟

- بيع .

- ومجوهراتها؟

- رهن .

- ومن ذا الذي باع ورهن هذه الأشياء؟

- أنا .

- ولماذا لم تبيني قبل أن تفعل شيئا من كل هذا؟

- لأن مرغريت أوصتني بالكتمان . . وحظرت علي أن أقول لك

شيئا .

- ولماذا لم تطلي مني نقوداً؟

- لأن مرغريت لا تسمح بأن أطلب منك .

- وماذا صنعت بكل هذا المال؟

- استفدته في سداد بعض ديونها . .

- إذا ، فهي مدينة بمبالغ طائلة؟

- إنها لا تزال مدينة بثلاثين ألفاً من الفرنكات . . ألم أقل لك كل

ذلك من قبل أيها الصديق؟ ولكنك رفضت أن تصدقني . . وهأنذا

تدرك الحقيقة بنفسك .

لقد ذهب تجار الأثاث إلى الدوق الذي كان قد وعدهم

بالسداد . . ولكنه طردهم . . وكتب إليهم في اليوم التالي يقول إنه لا

صلة له بالأئمة مرغريت جوتييه . .

وعلم سائر الدائنين بأن الدوق هجر مرغريت . . وأنها باتت

تعاشر شاباً فقيراً . . فالحوا في طلب ديونهم . .

وهمت مرغريت أن تباع كل شيء . . ولكن بعد فوات الوقت . .

فقد أوقع الدائنون الحجر على كل ما تملك . .

ولم تشأ أن تسألك شيئاً . . فباعت مركبتها وجيادها . .

ومعطفها . . ورهنت حليها . . هل تريد أن ترى وثائق البيع والرهن؟

وقدمت إليّ هذه الوثائق . . واستطردت بإصرار المرأة التي تشعر

بصواب رأيها وصدق نظرها :

- هل صدقتي الآن؟ لقد ظننت أنه يكفي أن يحب الإنسان وأن

يكون محبوباً . . وأن يذهب بصاحبته إلى الحقول . . كلاً . . يا

صديقي . . كلاً . . فإنه توجد إلى جانب الحياة الروحية . . حياة

أخرى مادية لا يمكن إغفالها . . وأنبئ المشاعر الإنسانية تتصل

بالأرض بخيوط رقيقة . . ولكنها أمتن من الفولاذ .

وإذا كانت مرغريت لم تقدم على خيانتك عشرين مرة . . فما

عزوفها إلا لأشها من طينة شاذة . . غير طينة سائر النساء .

إني لا ألوم نفسي على أنني نصحت لها بأن تفعل غير ما فعلت .. فقد آلتني في الحق أن أرى هذه الفتاة المسكينة تجرد نفسها من كل شيء .. ولكنها لم تصغ إلى نصيحتي .. وأجابت بأنها تحبك .. وأنها لا تخونك ولو أعطيت ملك الأرض ..

وكل ما بينكما جميل جداً .. وشعري .. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يسدد ديونه بباقة من العواطف .. أو قصيدة من الشعر .. وما هي ستصبح على قارعة الطريق .. ما لم تجد ثلاثين ألف فرنك بأسرع ما يمكن ..

- حسناً .. سأعطيك هذا المبلغ ..

- هل في نيتك أن تقترضه ؟

- دون شك ..

- هأنذا يسيل عمل رائع .. مستقل كاهلك بالديون .. وتسندعي المشاكل بينك وبين أبيك .. وفضلاً عن ذلك فإنه ليس من السهل أن يجد الإنسان ثلاثين ألف فرنك بين عشية وضحاها ..

كلاً يا عزيزي أرمان .. إنني أعرف النساء أكثر عما تعرفهن .. فلا تقدم على حماقة كهذه سوف تدم عليها في أحد الأيام أمر الندم .. كن رجلاً عملياً ..

إنني أقترح عليك أن تهجر مرغريت .. ولكنني أنصح لك مع ذلك بأن تعاشرها كما كنت تفعل في بداية الصيف ..

دعها تبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق .. فالدوق على استعداد لأن يعود إليها .. الكونت دي ن .. قد قال لي أمس فقط بأنه على استعداد لسداد ديونها .. مضافاً إليها خمسة آلاف فرنك شهرياً إذا هي قبلته عشيماً لها ..

وهذا الكونت من أكابر الحمقى المغفلين .. ولن يكون عقبة بينك وبين مرغريت ..

أما مرغريت .. فإنها ستبكي حزناً في البداية .. ثم تثوب وتألف هذه الحياة .. وتشترك في أحد الأيام على ما فعلت .. وما عليك إلا أن تتصور أن مرغريت متزوجة .. وأنت تخدم زوجها ..

هذا كل ما هنالك ..

لقد قلت لك ذلك قبلاً .. ولكنني قلته في ذلك الوقت على سبيل النصيحة .. أما الآن فإنه ضرورة ملحة ..



كان كلامها أقرب ما يكون إلى الصواب ..

استطردت :

- إنَّ مشيلتنا من الشاء يتوقعن دائماً أن يقع العشاق في حبالهن .. ولكنهن لا يتوقعن أبداً أن يتزلفن في حبال عشاقهن .. ولا ادخرن المال للمستقبل .. حتى إذا بلغن الثلاثين أمكنهن الاستمتاع بالحب لذاته ..

أواه .. ليتني عرفت فيما مضى ما أعرف الآن ..

وأخيراً .. لا تقل شيئاً لمرغريت .. فقط عد بها إلى باريس ..

إنك خلوت بها خمسة أو ستة شهور .. وهذا يكفي .. فأضض عينيك قليلاً .. فذلك كل ما يطلب منك الآن يا عزيزي ..

وبعد أسبوعين يصبح الكونت دي ن .. عبداً لها .. فتعمل هي على الاقتصاد والادخار طيلة الشتاء .. ومتى أقبل الصيف التالي أمكنكما اعتزال العالم مرة أخرى ..

هكذا تُدبر الأمور يا صديقي العزيز .

الفصل التاسع عشر

لا شك أن هذه النصيحة كانت في نظرها خلاصة الحكمة ودرب الخلاص . . . ولكنني رفضتها مشمئزاً .

كان من المستحيل أن يرضى لي حبي أو ترضى لي كرامتي بأن أقوم بهذا الدور . . . كذلك كنت واثقاً من أن مرغريت قد وقفت من طريق الحياة عند المكان الذي تؤثر معه الموت على قسمة نفسها بيني وبين عشيق آخر .
أجبتها :

- بحسبك ما قلت على سبيل الدعابة ! كم تبلغ ديون مرغريت وعلى وجه التحديد؟

- تبلغ ثلاثين ألف فرنك كما قلت لك .

- ومتى يجب سدادها؟

- بعد شهرين . .

- سأدبر لك هذا المبلغ . .

فنهزت كنفها .

قلت :

- سأدبره لك . . ولكن يجب أن تقسمي لي بالأذكري لمرغريت أنني الذي قمت على سداد ديونها . .

- كن مطمئناً . .

- وإذا عادت وأخذتك لبيع شيء أو رهته . . فأبيني . .

- لا خوف من ذلك . . إذ لم يبق لها شيء .

وتركتها وقصصت إلى منزلي للبحث عن رسائل من أبي . .
فوجدت هناك أربع رسائل .

عبر أبي في رسائله الثلاث الأولى عن قلقه لصمتي المطلق . . واستفسر عن سببه . . ولكنه لمح في رسائله الأخيرة إلى أنه قد علم بما طرأ على حياتي من التبدل . . وأعلن عزمه على الحضور إلى باريس في الحال .

وكنت أحترم أبي وأجله . . وأخلص له الحب . . فكتبتُ إليه أقول إنني قمت برحلة قصيرة شغلتنني عن الكتابة إليه قبل الآن . . ثم رجوت أن يذكر لي موعد قدومه . . لأثأب لاستقباله والترحيب به .

ثم ذكرت لخادمي عنواني في بوجيفال . . وأوصيته أن يحمل إلي أول رسالة ترد من أبي . .

وعدت في الحال إلى بوجيفال . . فوجدت مرغريت في انتظارني بباب الحديقة . . وملامحها تنم عن القلق والجزع . . ولكنها ما كادت تبصر بي حتى أسرعرت إلي . . وألقت بنفسها بين ساعدي . . ولم يسعها إلا أن تسأل :

- هل قابلت برودنس؟؟

- كلاً . .

- لقد أبطأت في باريس .

- ذلك لأنني وجدت بضع رسائل من أبي . . وكان من الضروري أن أكتب إليه .

وبعد بضع دقائق . . دخلت نانين وهي تلهث . . فنهضت

مرغريت من مكانها .. وانتحت بها ناحية .. وتحدثنا طويلاً .
ثم انصرفت نائين .. وعادت مرغريت إلى مكانها بجانبني ..
وقالت وهي تتناول يدي :
- لماذا لم تذكر أنك قابلت برودنس ؟
- من قال لك ؟
- نائين .
- وكيف علمت ؟
- لقد ذهبت في أثرك .
- لا بد أنك أمرتها بذلك ؟
- هذا صحيح .. فإنه خطر لي أن أمراً هاماً لا بد قد استوجب
رحيلك الفجائي إلى باريس .. أنت الذي لم تشرق عني لحظة
واحدة منذ أربعة شهور .. فأشفقت أن تكون قد نزلت بك كاترة ..
أو تكون ذهبت لمقابلة امرأة غيري .
- يا لك من طفلة ؟
- ولكنني مطمئنة الآن .. فقد علمت على الأقل ماذا صنعت ..
ولكنني لا أعلم ماذا قيل لك .
فأبرزت لها رسائل أبي .
قالت :
- لست أسأل عن هذا .. ولكنني أريد أن أعرف لماذا ذهبت إلى
برودنس ؟
- لمقابلتها .
- أنت لا تقول الحق يا أرمان ؟
- ما دمت تريدان الحقيقة .. فاعلمي إذا .. لقد أردت أن أسأله

عن صحة الجواد .. وعمّاً إذا كانت لا تزال بحاجة إلى معطفك
ومجوهراتك .
فامتنع لونها .. ولكنها لم تعجب .
واستطردت :
- وقد علمت ماذا فعلت بالجياذ والمعطف والمجوهرات .
- وهل يغضبك ما فعلت ؟
- إنما يغضبي أنك لم تفكري في أن تسأليني حاجتك .
فأجابت :
- في صلة كالعلة التي بيتنا .. إذا كانت لدى المرأة بقية من
الكرامة واحترام النفس .. فإنها تقدم على كل تضحية ممكنة ولا
تسأل عشيقها نقوداً تكسب حبها لونا تجارياً .
أنا واثقة من أنك تحبني .. ولكنك لا تعرف مبلغ وهن العقدة
التي تربط قلب الرجل بامرأة من طرازي . ومن يعلم؟ فقد تسوهم
في إحدى ساعات الغضب والسأم أن ما بيننا لم يكن إلا خطة ماهرة
من تدبير لا يتأثر أموالك !
وبعد .. فما حاجتي إلى المركبة والجياذ؟ إنني أستطيع الحياة من
دونها .. وقد تخلصت من نفقاتها وتكاليفها .. وما دمت تحبني
فذلك كل ما أبغي .. ولا شك أنك مستحبي من دون مركبتي
وجياذي ومعطفي ومجوهراتي .

*

قالت كلماتها هذه بلهجة تنم عن الوفاء والإخلاص . فاغرورت
عيني بالدموع .. وقلت لها وأنا أضغط يدها بين يدي :
- ولكنك تدركين يا فتاتي العزيزة أنني سأعلم بأمر هذه التضحية

في أحد الأيام .. وأنتي متى علمت فلن أحتمل وقعها .
- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن يكون شعورك الكريم نحوي سبباً في حرمانك من أقل متعة من متعتك . ومن يعلم ؟ فقد يتراءى لك أيضاً في إحدى ساعات الغضب والسأم .. أنك لو عاشرت رجلاً سواي ما اضطررت إلى الإقدام على مثل هذه التصحية .. وأنا لا أريدك أن تندمي لحظة واحدة على أنك عاشرتني .

كلاً يا عزيزتي مرغريت .. بعد أيام قلائل سترد إليك مركبتك وجيادك ومجوهراتك .. إنها ضرورية لك كالهواء الذي تنسمينه .. وأنا أحبك في ترفك أكثر مما أحبك في بساطتك . وقد يبدو ذلك مضحكاً ولكنه الحقيقة .

- إذاً فأنت لا تحبني !

- يا لك من حمقاء !!

- كلاً ! لو أنك أحببتني لشركتني أحبك بطريقتي الخاصة .. ولكنك بما زلت ترى فيّ فتاة لا ترضى بحياة الإنسراف والبذخ بديلاً .. فتاة تشعر دائماً بأنك مرغم على أن تنقذها أجراً .

إن كبرياءك ترفض أدلة حبي .. وأنت تفكر على الرغم منك في أنك سوف تهجرني يوماً ما .. وتصر على أن تضع رهاقة شعورك فوق كل شك .

إنك على حق يا صديقي .. ولكنني كنت أرجو منك خيراً من هذا ..

وهمت بالهوض .. فأمسكت بها وقلت :

- إنني لا أريد غير سعادتك .. ولا أحب أن أترك لك سبيلاً

للومي والعتب علي .. هذا كل ما أريد ..
- وعلى ذلك فإننا نوشك أن نفرق ..

فصحت :

- ولماذا؟ ومن ذا الذي يستطيع التفريق بيننا !

- أنت .. لأنك لا تسمح لي بأن أفهم مركزك .. وتريد بإصرارك على إحاطتي بما ألفتته من أسباب الشرف والبذخ أن تحتفظ بالهوية الأدبية الحقيقية التي تفصل بيننا .

أنت .. لأنك لا تؤمن بأنني أحبك حباً بريئاً من المطامع المادية .. أترفض أن تشاطرنني ليرادك الذي نستطيع أن نحيا به سعيدين وتأتي إلا أن تورث نفسك موارد الخراب إرضاء لصلفك وتعتك ؟

هل تظن أنني أقومُ حبك بالمركبات والمجوهرات ؟ هل تتوهم أن سعادتي في المظاهر الجوفاء التي نحصر عليها عندما لا نجب أحداً .. ولا نقيم لها وزناً عندما نعرف معنى الحب الصحيح ؟

تريد أن تقوم على سداد ديوني ؟ وأن تضطلع بنفقاتي ؟ فكم من الوقت تستطيع الإنفاق ؟ ثلاثة شهور على الأكثر .. ثم تغلب على أمرك .. وتقبل مرغماً كل ما أقدمه إليك .. وهو ما لا يرضاه الرجل الشريف ؟

إن ليرادك في الوقت الحاضر يكفيني لأن نعيش سعيدين .. وسأبيع من متاعي ما زاد عن حاجتي .. ونؤث بيتاً صغيراً نقضي فيه فصل الشتاء .. وكوفاً في الحقول نقضي فيه فصل الصيف .. وهكذا ننعيم بالشباب والسعادة والحرية .

فبالله يا أرماني .. لا تردني إلى الحياة التي اضطررت أن أحيها فيما مضى من سني حياتي ..

لم أجد ما أقوله . . وامتلات عياني بدموع الحب والإعجاب .
قالت :

- لقد أردت أن أدبر أنا كل شيء . . فأسدّد ديروني . . وأؤث بيتنا الجديد . . كل ذلك في الخفاء . . ودون علمك . . ولكن ما دامت بروفنس قد حدثتك فيجب عليك أن توافق مقدماً . . بدلاً من أن توافق مؤخراً . . فماذا تقول؟

- إنني أَرْضَى بما يرضيك يا مرغريت .

واتفقتا على الخطة التي رسمتها . . فكادت تطير فرحاً . . وراحت ترقص وتغني ولا تتحدث إلا عن البيت الجديد الذي تنوي إعداده لإقامتنا .

ورأيت أنها سعيدة بهذا التدبير الذي سوف يجمع بيننا إلى الأبد . . فلم أضع في سبيله العراقيل .

وقرّرت من ناحيتي أن أقابل تضحياتها في سبيلي بالنزول لها بصفة دائمة عن الإيراد الذي ورثته عن أمي . . ولكنني كتمت عليها هذا القرار . . لأنني كنت واثقاً من أنها لن توافق عليه .

وفي أحد الأيام . . ذهبت مع مرغريت إلى باريس للبحث عن منزل نقيم فيه . . وانتهزت هذه الفرصة . . وقصدت إلى مسجل للعقود للتفاهم معه على إجراءات التنازل .

كان مسجل العقود هذا صديقاً لأبي . . وقد تعودت أن أذهب إليه مرتين في كل عام لتسلم لإيرادي .

ولمّا كان من الضروري أن يعرف الرجل الحقيقة . . عاجلاً أو آجلاً . . فقد فاجأته في الأمر بصراحة . . وسرّني أنه لم يعارض

رغبتي بصفته صديق أبي ومسجل عقود الأسرة . . ووعدني الرجل في النهاية بأن يتخذ الإجراءات الضرورية لتحقيق غرضي . . ولا حاجة بي إلى القول بأنني أخفت عليه أن يكتب الأمر عن أبي . . وانصرفت لمقابلة مرغريت . . وكانت تنتظرني في بيت جوليا ديار . . ثم أسرعنا في البحث عن منزل ملائم . . ووقعنا أخيراً على ضالطنا . .

بعد ثلاثة أيام . . كنت أتناول طعام الإفطار مع مرغريت في بيتنا في «بوجيفال» . . ولا شاغل لنا غير الاستعداد للمستقبل السعيد . . حين أقبلت نانين . . وأتباتني بأن خادمي يريد مقابلتي .
ودخل جوزيف . . وقال لي :

- لقد جاء والدك إلى باريس يا سيدي . . وهو يتظرك في المنزل ويرجو أن تذهب لمقابله في الحال .

ورغم بساطة هذا النبأ . . فقد حملت كل منا في وجه صاحبه . . وكأنما ترجسنا شراً . . قلت لها وأنا أريت على يدها :
- لا تخشي شيئاً .

فغمغمت :

- عد بأسرع ما يمكنك . . سأنتظرك عند النافذة .

وبعد ساعتين كنت يباب منزلي في شارع بروفنس .

الفصل العشرون

وجدت أبي جالساً يكتب أمام طاولة صغيرة في قاعة

الاستقبال .. وأدركت .. حالما رفع رأسه ونظر إلي .. أنه يبيت أمراً .
وتظاهرت بأنني لم لاحظ شيئاً .. وشددت على يده بحرارة ..
وسألت :

- متى جئت يا أبي العزيز؟

- جئت أمس .

- وهل قصدت إلى هنا مباشرة كالعادة؟

- نعم .

- يؤسفني كثيراً أنني لم أكن هنا لاستقبالك .

وتوقعت عندئذ أن أسمع المحاضرة التي ينم عنها نغمهم .. ولكنه
لم يجب .. بل لصق غلاف الرسالة التي كتبها .. وأمر خادمي أن
يذهب بها إلى صندوق البريد .

ولمّا أصبحنا وحيدين .. تهض أبي واقفاً .. واستند بمرفقه إلى
حافة الموقد .. وقال :

- أريد أن أتحدث إليك في أمر هام يا عزيزي أرمان .

- إني مصغ إليك يا أبي .

- هل تعدني بأن تكون صريحاً؟

- إني صريح دائماً .

- هل صحيح أنك تعاشر امرأة يقال لها مرغريت جوتييه؟

- نعم ..

- هل تعرف من هي هذه المرأة؟

- إني أعرفها حق المعرفة .

- وهل من أجلها أعملت زيارة أختك وزيارتي هذا العام؟

- نعم يا أبي .. إني أعترف بذلك .

- وهل تحب هذه المرأة كثيراً؟

- أنت ترى أنني لا بد أحبها كثيراً ما دمت قد أعملت من أجلها
واجباً من أقدس الواجبات .. وهو إهمال أضرع إليك في خضوع أن
تغفرو .

- ولا شك أنه لم يكن يتسوقع مني هذه الأجسوبة الحاسمة
الصريحة .. لأنه فكر لحظة ثم قال :

- وهل أدركت أنك لا تستطيع الاستمرار في هذه الحياة؟

- كنت أخشى ألا أستطيع الاستمرار . ولكنني لم أدرك ذلك حق
الإدراك .

فقال بلهجة أشد صرامة :

- كان يجب أن تفهم أنني لا أسمح لك بهذه الحياة المتبدلة .

- لقد فكرت في أنني ما دمت لا أجلب العار على الاسم الذي
أحمله .. فلأنني أستطيع أن أحيأ كما أشتغي !

وشعرت من دفق الحب الذي ملك عليّ كل جارحة من
جوارحي بقوة على النضال - حتى ضد أبي - للاحتفاظ بمرغريت .
قال :

- لقد حان الوقت الذي يجب أن تجد فيه عن هذه الحياة بديلاً .

- لماذا يا أبي؟

- لأنك توشك الإقدام على عمل يتنافى مع احترامك المزعوم
لشرف الأسرة ..

- إني لا أفهم كلامك يا أبي .. !

- سأحدثك في وضوح .. لا بأس من أن تتخذ لك عشيقة ..

فذلك من شؤونك .. ولا بأس من أن تتخذ عشيقتك ثمن السعادة

التي تغدقها عليك .. فذلك من واجباتك .. لا بأس من هذا
وذاك .. أما أن تهمل أقدس واجباتك من أجل عشيقتك .. وتسمح
للإشاعات عن حياتك الفاضحة أن تنفذ إلى القرية التي أعيش فيها
وتتلطخ الاسم الشريف الذي أعطيتك إياه .. فذلك ما لا يجب أن
يكون .. وما لن يكون أبداً .

- اسمح لي يا أبي أن أقول لك بأن أولئك الذين أبلغوك عني
هذه الأمور لم يتحروا الحقيقة .

صحيح أنني عشت مرعريت جوتييه .. وصحيح أنني
أعاشرها .. ولكنني لم أعطيها الاسم الكريم الذي خلعت علي .. ولم
أنفق في سبيلها أكثر مما يسمح به إيرادي .. ولم أتورط من أجلها
في أي دين .. ولم أفق بمالي موقفاً يجيز للأب أن يقول لابنه ما
قلته لي الآن ..

- إن من حق الأب دائماً أن يحرك ابنه عن طريق الشر .. متى
رآه يتحدر إليه .. وأنت لم تات شراً حتى الآن .. ولكنك مقدم
على شر دون شك ..

- أبي !!

- بُني .. إنني أعرف الحياة أكثر مما تعرفها .. فاعلم إذا أن
المواطف البرينة لا توجد إلا حيث توجد المرأة الطاهرة .. وإن كل
(مانون) .. جديدة بأن تخلق (دي جريو) ..

والآن .. أليس في نيتك أن تهجر عشيقتك ؟

- يؤسفني أن أخبرج على طاعتك يا أبي .. ولكن هذا
مستحيل ..

- سأرغمك على تركها ..

- من سوء الحظ يا أبي .. إنه لا يوجد في هذه الأيام منقذ
للبنات .. كذلك المنقذ الذي أرسلت إليه (مانون) .. ولو وجد هذا
المنقذ لبيت مرعريت إليه ..

- ماذا أستطيع أن أفعل يا أبي .. إنني ربما كنت على خطأ ..
ولكنني لن أجد السعادة إلا في حب هذه الفتاة .

- افتح عينيك يا أرمان .. واقهم أباك الذي طالما أحبك .. ولا
يريد إلا سعادتك .

- هل مما يشرفك أن تعاشر معاشرة الأزواج فتاة ملكها الجميع
قبلك ؟

- وماذا يضيرني يا أبي .. طالما أن أحداً لن يملكها بعدي ؟
ماذا يضيرني ما دامت الفتاة تحبني .. وما دام هذا الحب قد
خلقها خلقاً جديداً ؟

- هل تعتقد إذاً أن رسالة الرجل الشريف في الحياة أن يرد البنات
إلى سواء السبيل ؟ ترى ماذا يكون رأيك في كلامك هذا متى بلغت
الأربعين ؟ إنك سوف تضحك ساخراً من غرامك .. إذا وجدت في
مقدورك أن تضحك على الإطلاق .. ولم يكن هذا الغرام قد ترك
في حياتك جراحه الدامية !

- وترى ماذا كان يمكن أن يكون شأنك الآن .. لو أن أباك جرى
على خطتك وأسلم نفسه لنزوات الشباب .. بدلاً من أن يقف ثابتاً
على دعائم الشرف .. والإيمان الصادق ؟ فكّر يا أرمان .. ولا تشفق
بهذه السخافات .. إنك ستهجر هذه المرأة اليس كذلك ؟ إن أباك
يضرع إليك .

- لم أجب .

واستطرد :

- أرمان .. أستحلفك باسم والدتك الطاهرة أن تصغي إلي .

انفض عن حداثك غبار هذه الحياة التي سوف تنساها بأسرع مما تتصور .. والتي تشدك إليه الآن نظرية جوفاء .. لا تصمد أمام التفكير الرصين .. والمنطق السليم .

إنك لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرك .. ففكر في مستقبلك ..

أنت لا تستطيع دائماً أن تحب هذه المرأة .. وهي بدورها لن تحبك دائماً .. كلاكما يبالغ في تقدير حبه للآخر ..

أنت تسد أمام نفسك دروب المستقبل .. وإذا خطوت خطوة أخرى تعذر عليك أن تبرح الطريق الذي تسلكه الآن .. وقضيت بقية حياتك نادماً على شبابك الضائع .. أسفاً على أملك المخدوع ..

اذهب إلى أختك واقض عندها شهراً أو شهرين .. فيتركك الحب العائلي المقدس من هذه الحمى .. لأن ما بك ليس إلا نوعاً من الحمى ..

الا تذهب يا أرمان؟؟

قال هذه العبارات بلهجة رقيقة ضارعة .. فلم أقو على الكلام ..

قال بصوت يرتجف من التأثر :

- ألا تحب؟!

فأجيبته أخيراً :

- لا أستطيع أن أعدك بشيء يا أبي .. إن ما تتطلبه مني يفوق طاقتي .. ولكن صدقني .. إنك تبالغ في تقدير نتائج هذه الصلة .

فمرغريت ليست الفتاة التي تتصورها .. وهذا الحب أبعد من أن يضلني عن سواء السبيل .. بل إنه على العكس حقيق بأن ينمي في نفسي أنبل الخصال .. وأكرم المشاعر .. لأن الحب الصحيح يهذب الرجل ويصلحه .. مهما تكن المرأة التي تلهم هذا الحب .

لو أنك عرفت مرغريت .. يا أبي .. لاحتجعت بأنها ليست المرأة التي تسوقني إلى ما نخشى .

إنها نبيلة كأنبل النساء .. ولا تصدر في حبيها لي عن مصلحة شخصية أو غرض مادي ..

- الأمر الذي لم يمنحها من قبول كل ثروتك .. لأن الستة آلاف فرنك التي ورثتها عن أمك .. وتريد أن تتنازل لها عنها - تذكر جيداً ما أقول - هذه الستة آلاف فرنك هي كل ثروتك .

ولا شك أنه احتفظ بهذا التهديد .. كأخر سهم في جعبته .. وآخر صدمة يوجهها إلي .. ولكنني كنت أقوى أمام تهديده متي أمام رجائه وضارعه .

سأله :

- من قال لك إنني أنوي النزول لها عن هذا المبلغ؟

- صديقي مسجل العقود .. هل ظننت أن هذا الرجل الشريف يقدم على عمل كهذا دون أن يسألني رأيي؟

إنني لم أحضر إلى باريس إلا لأمنحك من السعي إلى خرابك في سبيل هذه المرأة .

لقد أورتك أمك هذه الثروة .. لكي تعيش بها عيشة الرجل الشريف .. لا لكي تقدمها هبة لعشيقائك!

- أوكد لك يا أبي أن مرغريت تجهل أمر هذه الهبة .

- إذا ، لماذا وهبتها لياها؟

- لأن هذه المرأة التي تتعنتها بأبشع الصفات وتطلب إليّ أن أمجرها قد ضحت بكل ما تملك .. لكي تحيا معي .

- وهل قبلت هذه التضحية؟ أي رجل أنت يا سيدي لكي تسمح للأتسة مرغريت بأن تضحي بشيء من أجلك؟ .. كفى .. كفى .. لا بد أن تترك هذه المرأة .. إنني رجوتك منذ لحظة .. أما الآن فإني أمرك .

إنني لا أسمح بمثل هذه الحماقات في منزلي .

احزم أمتعتك .. وتأهب للرحيل معي .

- عفواً يا أبي .. إنني لا أنوي الرحيل ..

- لأن؟

- لأنني بلغت سنًا تجاوز ألا أطيع أمرك ..

فامتنع وجه أبي .. وقال بعد لحظة :

- حسناً يا سيدي .. إنني أعرف الآن ما يجب أن أفعله ..

وقرع الجرس .. فدخل خادمي .

قال له :

- اذهب بأمتعتي إلى فندق باريس .

ثم نفذ إلى الغرفة المجاورة ليرتدي ثيابه .

ولما خرج .. اقتربت منه .. وقلت له :

- هل تعدني يا أبي بالأ تفعل شيئاً من شأنه أن يؤلم مرغريت؟

فصعدني يمينيه باحتقار وأجاب :

- أظن أنك جنتت .

*

وخرج .. وأغلق الباب وراءه بعنف .. فشرشت لحظة .. ثم انصرفت بدوري . واستأجرت مركبة انطلقت بي إلى «برجيفال» . وهناك وجدت مرغريت عند نافذتها تنتظر عودتي .

الفصل الواحد والعشرون

صاحت وهي تعانقني :

- ها أنت قد عدت أخيراً . ولكن ما أشد امتناع لونك؟

وقصصت عليها ما كان بيني وبين أبي .. فهتفت :

- آه .. هذا ما حدثني به قلبي عندما أعلن جوزيف قدوم

أبيك .. ارتجفت كما يرتجف الإنسان إذا سمع نبأ سيئاً .

مسكين أنت يا عزيزي .. إنني سيب همومك جميعاً .. ربما كان

من الخير لك أن تهجرني .. بدلاً من أن تغضب أباك !

ومع ذلك .. فلإني لم أفعل ما يستوجب نقمته عليّ .. إننا

نعيش معاً في هدوء .. وستكون حياتنا في المستقبل أكثر هدوءاً .

وهو يعلم أنه يجب أن تكون لك حبيبة .. وكان ينبغي أن يسره

أن أكون أنا حبيبته لأنني أحبك .. ولا أطمع في غير حبك .

هل حدثتني كيف وضعنا خططنا للمستقبل؟

- نعم .. وذلك ما ضاعف حنقه .. لأنه رأى في خططنا دليلاً

على حبنا المتبادل .

- وما العمل إذا؟

- يجب أن نصمد يا عزيزتي مرغريت إلى أن تعبر العاصفة .

- ولكن هل تعبر بسلام؟

- يجب أن تمرّ .

- ولكن أباك لن يقف عند هذا الحد . . أليس كذلك؟

- ماذا تعتقد أن سيفعل؟

- لا أعلم . . ولكنه سيفعل كل ما يمكن أن يفعله الأب ليرغم ولده على طاعته . . وسيدترك بماضيه . . وقد يشرفني بقصة جديدة يخترعها عني لينفرك مني . . ويحملك على هجري .

- أنت تعلمين أنني أحبك .

- نعم . . ولكني أعلم كذلك بأنك يجب أن تطيع أباك . . عاجلاً أو آجلاً . . وقد ينتهي بك الأمر إلى الاقتناع بوجهة نظره والخضوع لمشيئته .

- كلاً يا مرغريت . . أنا الذي سوف أقتعه . . إنه متأثر بكلام بعض أصدقائه . . ولكنه في الواقع طيب القلب . . وكريم الخلق . . سريع المغفرة .

وبعد . . فماذا يهمني من غضبه أو رضاه؟

- لا تقل ذلك يا أرمسان . . إنني لوثر أي شيء على أن يقال إنني سبب الخلاف والموجدة بينك وبين أبيك . . فدع اليوم يمر بسلام . . واذهب إليه غداً بعد أن تهدأ سورة الغضب . . فربما استطعتما التفاهم .

- ولا تحاول زعزعة مبادئه . . وتظاهر بالرضوخ لبعض رغباته . . واقتصد في حماسك لي . . فبهذا بالاً . . وترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي .

- ولا تبالس يا عزيزي . . وكن واثقاً من أنه مهما حدث فإن مرغريت لن تتحوك عن إخلاصها ووفائها لك .

- هل تقسمين؟

- وهل يجب أن أقسم؟

وقضينا بقية النهار في التفكير والتدبر للمستقبل . . ونحن نتظر في كل لحظة أن يطرأ جديد . . ولكن لحسن الحظ أن اليوم انقضى ولم يحدث شيء .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي قصدت إلى الفندق الذي انتقل إليه أبي . . فبلغته في منتصف النهار .

ولكن قيل لي إن أبي قد انصرف . . فذهبت إلى منزلي حيث رجوت أن أجده . . ثم قصدت إلى مكتب مسجل العقود . . ولكني لم أجد أبي هنا أو هناك .

وعدت إلى الفندق . . وانتظرت حتى الساعة السادسة . . ولكن دون جدوى .

ولمّا عدت أدراجي إلى «بوجيفال» لم أجد مرغريت في انتظارني كالعادة . . رأيته جالسة بجوار الموقد . . مستغرقة في التفكير بحيث لم تشعر بي عندما دتوت منها .

ولمّا قبلت جبينها . . رفعت رأسها بحدة . . كأنها أيقظتها القيلة فجأة من نوع عميق . .

قالت :

- لقد أفرغتني . . هل قابلت أباك؟

- كلاً . . ولا أعرف أين هو . . فقد بحثت عنه في كل مكان اعتاد أن يختلف إليه !

- إذا ، يجب أن تعيد الكرة غداً .

- الرأي عندي أن أنتظر حتى يرسل في طلبي .. وفي اعتقادي أنني فعلت ما فيه الكفاية .

- كلاً يا أرمين .. هذا لا يكفي .. ويجب أن تعود إلى أليك .. غداً على وجه الخصوص .

- لماذا غداً دون أي يوم آخر؟

- فاحرص وجهها قليلاً ولكنها أجابت :

- لأن هذه المواظبة من جانبك تبدو أدل على الإخلاص وحسن النية .. وقد تثير عطف أليك وتحلب لنا صفحه .

•

وقضت مرغريت بقية النهار مهمومة حزينة مكتئبة .. واضطرت أكثر من مرة أن أكرر أسئلتني لها .. قيل أن تفهمني .. وتحبيني .. وقد سوغت كتابتها .. وتفكيرها .. وحزنها بأنها من تأثير الخوف الذي أوقعته في نفسها مفاجآت اليومين الآخرين .

وفي صباح اليوم التالي .. أصرت على رحيلي إصراراً لم أفهم له معنى ..

وقصدت باريس ولم أجد أبي في الفندق .. ولكنه كان قد ترك لي بطاقة عليها هذه الكلمات :

«إذا حضرت لمقابلتي اليوم فانتظري حتى الساعة الرابعة .. وإذا لم أجد في الساعة الرابعة فتعال غداً لمقابلتي وتناول طعام الغداء معي .. فإنني أريد أن أتحدث إليك» .

فانتظرت حتى الساعة الرابعة .. ولم يحضر أبي .. فانصرفت .

•

كانت مرغريت في اليوم السابق حزينة مهمومة .. أما اليوم فقد وجدتتها شديدة الاضطراب والانعزال .. وما إن وقع بصرها عليّ حتى أحاطت عني بإعديها واتفجرت باكياً .

ولسأ سألتها عن سر هذا الحزن الفجائي الذي ضاعف فزعي .. لم أجد عندها جواباً شافياً .. ولجأت إلى الأعدار المصطنعة التي تخترعها المرأة عادة عندما ترغب في كتمان الحقيقة ..

ولسأ زال اضطرابها قليلاً .. حدثتها بنتيجة رحلتي .. وأبرزت لها بطاقة أبي .. وقلت إن لهجة الرسالة تدعو إلى التفاؤل .

أما هي فإنها ما كادت ترى البطاقة وتسمع ملاحظتي على مضمونها .. حتى سألت دموعها مرة أخرى .. فأشفقت أن تتابها نوبة عصبية .. ودعوت نانين .. وتعاونت معها على وضع الفتاة المسكينة في فراشها .. غير أنها ظلت تبكي .. وهي تمسك بيدي .. ثقيلها بين الفينة والفينة دون أن تنطق بكلمة واحدة .

وسألت نانين .. هل تلست سيدتها رسالة ألفتها .. أو هل زارها في غيابي زائر أزعجها؟ ولكن الوصفة أجابت سلباً .

بيد أنني كنت موقناً أن شيئاً لا أعلمه قد حدث .. فأحزن مرغريت أمس .. وأزعجها اليوم .. وهي لا تريد أن يوح لي به .

•

وهذا اضطرابها قليلاً في المساء .. فأجلستني بجانبها .. وراحت تجدد عهود حبها .. وإخلاصها وتيسم لي .. ولكن بجهد .. لأن الدموع كانت تملأ عينيها بالرغم منها .

وقد لجأت إلى كل حيلة ممكنة لحملها على الاعتراف بأسباب حزنها .. ولكنها أصرت على أجوبتها المبهمة التي لا تشفي غليلاً .

وأخيراً نامت بين ساعدي .. ولكنه كان نوماً متعباً للجسم .. لا
سجداً لقواء .. لأنها كانت تهذي تارة وتصرخ تارة أخرى ..
وتنهض فجأة بين الفينة والفينة .. حتى إذا استوفقت من وجودي
بجانبيها طلبت إليّ أن أقسم بأن أحبها دائماً ..
ثم غلبها النعاس آخر الأمر فاستغرقت في نوم عميق استمر إلى
الساعة الحادية عشرة .

ولمّا استيقظت .. نظرت حولها .. وسألني :
- هل ستذهب الآن؟

- فأجبته وأنا أريت على يدها :

- كلاً .. فلا يزال الوقت مبكراً ..

- ومتى تذهب إلى باريس إذا؟

- في الساعة الرابعة ..

- بهذه السرعة؟ إذاً فابق معي .. حتى يحين وقت الرحيل .. هل

تبقى معي؟

- طبعاً .. ألا أفعل ذلك دائماً؟

- يا للسعادة !! فلتناول طعام الإفطار إذاً .

- تريشي !

- وهل تزودني بقبلك إلى أن ترحل؟

- نعم .. وسأعود بأسرع ما يمكن ..

فنظرت إليّ بعينين شاردتين .. وغمغمت :

- وهل تعود حقاً؟!

- طبعاً .

- هذا صحيح .. إنك ستعود الليلة .. وسأنتظرك كالعادة ..

وستعجبني .. ونكون سعيدين كما كنا منذ عرف أحدا الآخر .

*

قالت ذلك بصوت أجوف .. خيل إليّ أنه يحجب فكرة مؤلمة ..
قلت لها :

- أصغي إلي .. أنت مريضة .. ولا أستطيع أن أتركك هكذا ..
سأكتب إلى أبي لكيلا ينتظرنني .

فهمت :

- كلاً .. كلاً .. لا تفعل ذلك وإلا اتهمني أبوك بأنني أمتك عن
مقابلته كلما أراد أن يراك .. كلاً .. يجب أن تذهب .. ثم .. إنني
لست مريضة .. إنني في خير حال .. كل ما هنالك أنني رأيت بين
النوم واليقظة حلمًا مزعجاً ..

وحاولت بعد ذلك أن تبدو مرحة مختبئة .

ولمّا حان وقت الرحيل .. قبلتها .. واقترحت عليها أن ترافقني
إلى المحطة .. عسى أن ينعمشا السير والنسيم .. فوافقت .. وألقت
على منكبها معطفاً .. وخرجت معي ..

وخطر لي مائة مرة أن أعدل عن الرحيل .. ولكنني أشفقت أن
أغضب أبي أكثر مما أغضبته .

قلت لمرغريت عندما تحرك القطار :

- إلى مساء إذاً ..

ولكنها لم تجب ..

وقد حدث مرة .. قبل ذلك .. أنها لم تجب علي مثل هذه
الكلمات ...

كان ذلك عندما قضت ليلتها مع الكونت دي ج ..

ولكن هذا الحادث وقع منذ وقت طويل .. حتى كسدت أن

أنساء .. وفضلاً عن ذلك فإن خيانة مرغريت أصبحت اليوم آخر ما
يشير مخاوفي ..

ولمّا وصلت إلى باريس .. أسرعته إلى بيت برودنس كي
أرجوها أن تذهب إلى مرغريت .. لشرقه عنها .. وتدخل السرور
على نفسها .. وجدها أمام أدوات الزينة .. فهتفت في شيء من
القلق :

- آه .. هل جاءت مرغريت برفقتك؟

- كلا ..

- وكيف هي؟

- إنها مريضة ..

- أليس في نيتها الحضور؟

- وهل يجب أن تحضر؟

- فاحمّر وجهها .. وقالت في ارتباك :

- كان من الطبيعي أن أنتظر قدومها معك ما دمت قد جئت إلى
باريس !

- كلا .. لم تأت !

- ونظرت إليها بحدة .. فأطوقت برأسها ..

- قلت :

- لقد جئتك يا عزيزتي برودنس لكي أرجوك أن تذهبي إلى

مرغريت .. وتقضي المساء معها .. فإنني لم أرها قط كما هي

اليوم .. وأخشى أن يصببها مرض ..

- فأجابته :

- إنني الليلة على موعد لتناول طعام العشاء في باريس .. وليس

في استطاعتي أن أذهب إلى مرغريت .. ولكني سأزورها غداً ..

- فشكرتها .. وقصدت إلى الفندق .. فوجدت أبي في انتظاره ..

- شعرت من نظراته الأولى إليّ أن غضبه عليّ قد انشأ ..

- قال وهو يبسط إليّ يده :

- سرتني أن تزورني مرتين يا أومان .. هذه الزيارة المزدوجة إذا دلت

على شيء فعلى أنك فكرت في الأمر ملياً .. كما فكرت أنا فيه ..

- هل تسمح لي يا أبي بأن أسألك .. ماذا كانت نتيجة تفكيرك؟

- كانت أنني شعرت بأنني بالغت في تقدير أهمية الإشاعات التي

سمعتها .. وأني قررت أن أكون أرحم بك وأكثر عطفاً عليك ..

- فصحت في جذل :

- ماذا تقول يا أبي العزيز؟

- أقول يا ولدي إن كل شاب يجب أن تكون له خليلية .. وإنني

أفضل بعد المعلومات التي استقيتها أن تكون عشيقةً للأنسة جوتييه

من أن تكون عشيقةً لأية امرأة أخرى ..

- يا أبي العزيز .. ما أسعدني بك ..

- وتحدثنا قليلاً .. ثم جلسنا لتناول طعام الغداء ..

- وكان أبي جديلاً .. أمّا أنا فكنت انغمس شوقاً للعودة إلى

«بوجيفال» لكي أرف هذا النبأ السعيد إلى مرغريت ..

- كنت أنظر إلى الساعة في كل دقيقة .. فقال أبي :

- أنت قلق .. وتريد أن تتركني بأسرع ما يمكن .. أليس كذلك؟

- آه .. لكم الله أيها الشباب ! إنكم تضحون بالمواقف الخالصة على

مذبح المواقف المريبة ..

- لا تقل ذلك يا أبي .. إن مرغريت تحبني وإنني واثق من ذلك ..

فلم يجب .. ولم يد عليه أنه صدقني أو لم يصدقني .
وأخف عليّ في البقاء إلى اليوم التالي .. ولكنني قلت له إن
مرغريت مريضة .. وإن غيابي سيقلقها حقاً .. ثم وعدته أن أزره
في اليوم التالي .

وكان الجو صحوً .. فاقترح أن يرافقني إلى المحطة ..
وشعرت بأنني لم أكن في حياتي أسعد مني في ذلك اليوم ..
وبأنني أحب أبي كما لم أحبه من قبل .
وقبل أن يتحرك القطار .. سألتني مرة أخرى أن أبقى .. فرفضت .
- أنت تحبها بإخلاص إذاً ؟
- بل أحبها حب جنون ..
- اذهب إليها إذاً ..

ومرّ بيده على جبينه .. كمن يريد أن يقصي خاطراً يضايقه ..
وفتح فمه ليتكلم .. ولكن عاد فشد على يدي بسرعة وقال وهو
ينصرف على عجل :
- إلى اللقاء غداً .

الفصل الثاني والعشرون

كان يبدو لي أن القطار لا يتحرك .

ووصلت إلى «بوجينفال» في الساعة الحادية عشرة .. ولم أر
ضوءاً في أية نافذة من نوافذ البيت .. فقرعت الجرس مراراً ..
وانتظرت طويلاً .. وأخيراً فتحت نائين الباب .. وأضاءت مصباحاً .
سألتها :

- أين سيدتك ؟

فأجابت :

- ذهبت إلى باريس .

- إلى باريس ؟

- نعم يا سيدي .

- متى ؟

- بعد ساعة من انصرافك .

- ألم تترك لي شيئاً ؟ ألم تترك لي رسالة ؟

- كلا ..

- هذا عجيب .. هل قالت لك إنها على موعد ؟

- كلا ..

وتركتني الفتاة وانصرفت إلى غرفتها .

قلت لنفسي :

- يحتمل أن تكون مرغريت قد ارتابت في الأمر وحسبت أنني ما
قصدت إلى باريس إلا لأستمع بالحرية .. فأرادت أن تتأكد
بنفسها ..

ويحتمل أن تكون برودنس قد كتبت إليها تستقدمها لأمر هام
خاص بديونها .. ولكن .. !

لقد قابلت برودنس في باريس .. ولم تذكر لي شيئاً عن رغبتها
في دعوة مرغريت !!

وفجأة .. تذكرت سؤال برودنس حين قالت : (إذاً فليس في نيّتها
أن تأتي اليوم ؟) ..

وتذكرت ارتباكها حين نظرت إليها بعد هذا السؤال الذي يشتم
منه أنها كانتا على موعد ..

ثم تذكرت إلى جانب هذا وذلك دموع مرغريت وحزنها الغامض .. وإلحاحها عليّ في الرحيل .. وسألت نفسي ما معنى كل هذا؟ ترى هل أقدمت على خيانتني .. واعتمدت على أنها تستطيع العودة قبلي .. ثم خانتها الظروف؟

ولم أحرك بصري عن عقربي الساعة حتى انتصف الليل .. وأيقنت ألا أمل في الانتظار ..

على أنني لم أصدق .. بعد الذي رأيته من دلائل حبها وإخلاصها وتضحياتها .. أنها تقدم على خيانتني ..

كلّاً .. كلّاً .. لا بد أنها وجدت من يتنازع أثاثها فذهبت إلى باريس لهذا الغرض .. وكتمت الأمر عني لكيلا تؤلني .. ولعناً أفسى عليها المساء قصدت إلى بيت برودنس ..

ثم من يدري؟ فلعلها الآن في طريقها إلى هنا ..

ولكن .. ما سبب دموعها إذا؟

لا شك أن الفتاة المسكينة لم تستطع .. رغم حبها لي .. أن تنزل عن مظاهر بذخها ونعمتها دون أن تسكب دموعاً ..

•

وانتظرت بفارغ الصبر أن أراها فأضمتها إلى صدري .. وأقول لها إنني أدركت سر غيابها ..

ولكن الساعات مرت كأنها أجيال .. ولم تعد مرغريت ..

واستولى عليّ الفزع فضاعف الحزن التي تمشي في قلبي ودمي ..

ترى هل وقع لها حادث ما؟

ترى هل جرحت .. أو ماتت؟ لا شك أنها أبطأت لسبب خارج عن إرادتها ..

ودقت الساعة الواحدة .. فقلت لنفسي «سأنتظر ساعة أخرى .. فإذا لم تأت .. انطلقت للبحث عنها في باريس» ..

ولم أجسر على الاستمرار في التفكير .. فتناولت كتاب «مانون ليكو» وتصفحته ..

خيل إليّ أنني أرى في بعض صفحاته آثار الدموع ..

على أنني لم أستطع القراءة .. فطويت الكتاب .. وسمرت إلى النافذة .. وأصغيت ..

ولكنني لم أسمع صوت مركبة .. أو وقع حوافر جواد ..

ثم دقت ساعة الكنيسة دقاتها الحزينة ..

وعندئذ استبد بي القلق .. فقصدت إلى غرفة نائين .. وكانت الفتاة نائمة .. ولكنها استيقظت عندما فتحت الباب .. وسألت :

- هل عادت سيدتي؟

فاجبتها :

- كلّاً .. ولكن متى عادت فقولني لها إنني لم أطلق صبراً ..

وانتي ذهبت للبحث عنها في باريس ..

- في هذه الساعة؟

- نعم ..

- ولكن كيف؟ لن تجد مركبة تلعب بك؟

- سأذهب سيراً على قدمي ..

- إن السماء تمطر ..

- ذلك لا يهمني ..

- إن سيدتي ستعود حتماً .. وإذا لم تعد فإنك ستجد متسعاً من

الوقت غداً للبحث عنها ..

- إنني أفضل أن أبحث عنها الآن .. إلى اللقاء يا نائين .

فجاءتني بمعطفي .. ووضعتني على كتفي .. واقترحت عليّ أن
توظف مدام أرنولد وتسألها عما إذا كان في الإمكان الحصول على
مركبة .. ولكنني رفضت هذا الاقتراح حرصاً على الوقت .. ولأنني
كنت بحاجة إلى الهواء والتعب الجسماني للتغلب على انفعالي .
وتناولت مفتاح شقة مرغريت في شارع دانتان وانصرفت .

•

أخذت أعود في البداية .. حتى أرغمني التعب على التبرّث .
وكان الظلام شديد الخلكة .. فاشفققت أن أصطدم بإحدى
الأشجار التي كانت تتراعى لي كأنها أشباح مقبلة نحوي .. ورأيت
من الحكمة أن أتأمل في سيري .

ومرت مركبة تنهب الأرض في الطريق إلى «بوجيفال» فانتعشت
آمالي .. ورجوت أن أجد مرغريت في هذه المركبة فصرخت :
- مرغريت .. مرغريت .

ولكنني لم أسمع جواباً .. واستمرت المركبة في طريقها .

•

وأشرفت أخيراً على باريس .. فشدّد منظرها عزمي .. وأنعش
قواي .. وأوسعت الخطى .
لم أصادف أحداً في طريقي .. وعجل إليّ أنني أسير في مدينة
الموتى .

ولبّما وصلت إلى شارع دانتان .. كان الفجر قد بزغ .. ودقت
ساعة إحدى الكنائس خمس دقائق .

طرقت باب مرغريت .. وذكرت اسمي للبواب .. وكنت قد

أعطيته من القطع الذهبية ما جعله يعرف اسمي .. ويعلم أن من
حقني أن أزور الأتة جوتييه في الساعة الخامسة صباحاً .

ولم أسأله عن مرغريت .. وهل هي في منزلها .. خوفاً من أن
أسمع جوابه بالنفي . وآثرت الشك مع الأمل .. على اليأس المطلق .
أسرعت إلى شقة مرغريت .. وأصغيت ببابها .. ولكنني لم أسمع
حركة أو حساً .

فتحت الباب .. ودخلت .

كانت جميع النوافذ مغلقة .. والستائر مسدلة .. ففتحت نافذة
في قاعة الطعام .. وانسلّ ضوء الفجر إلى داخل الشقة .
وأسرعت إلى مخدع مرغريت .. وفتحت .. ونظرت إلى
القراش . كان خالياً .

•

نفذت من باب إلى باب .. وانتقلت من غرفة إلى غرفة ..
ولكنني لم أجد أحداً ..
خيل إليّ أنني أجن .

وأخيراً .. قصّدت إلى قاعة الثياب .. وفتحت نافذتها .. وناديت
برودنس مراراً .. ولكنني لم أسمع جواباً .

•

وعدت إلى البواب .. وسألته .. هل جاءت مرغريت إلى شقتها
في أثناء النهار؟
فأجاب :

- نعم يا سيدي .. . جاءت ومعها مدام برودنس ..

- ألم تترك لي رسالة؟

- كلمة ..

- هل تعلم ماذا فعلنا بعد ذلك؟

- انصرفنا في مركبة ..

- وما نوع هذه المركبة؟

- مركبة أجرة ..

- يا إلهي .. ما معنى كل هذا؟

- وطرقت باب المنزل المجاور .. ففتحه الباب وسألني :

- ماذا تريد يا سيدي؟

- أريد مقابلة مدام برودنس ..

- لم تعد بعد ..

- هل أنت واثق؟

- نعم يا سيدي .. وها هي رسالة وردت إليها أمس ولم تسلمها بعد ..

- ولوح بالرسالة في يده .. فوقع بصري على غلافها وعرفت خط

- مرغريت ..

- تناولتها بلهفة .. ونظرت إليها بامعان .. وقرأت على غلافها هذا

- العنوان «إلى السيدة برودنس دفتروي .. لتسليمها إلى السيد أرمان

- ديفال» ..

- فتهتفت :

- هذه الرسالة لي ..

- فقرأ العنوان يدوره .. وسألني :

- هل أنت السيد ديفال؟

- نعم ..

- آه .. إنني أعرفك .. فقد رأيتك مراراً عند السيدة برودنس ..

*

- وابتعدت عن المنزل .. وقضت الرسالة ..

- لو أن صاعقة انقضت أمامي لما أذهلني كما أذهلني مضمون هذه الرسالة ..

- قرأت فيها هذه الكلمات :

- «عندما تقرأ هذه الرسالة يا أرمان .. أكون قد أصبحت عشيقـة رجل آخر .. وبهذا ينتهي كل ما كان بيننا ..

- أعد إلى أبليك يا صديقي ..

- «أذهب إلى أختك فهي صبية عذراء تجهل كل تعامتنا وبؤسنا .. وسوف ينسبك عطفها ما قدر لك أن تعانيه على يد مرغريت جوتييه .. تلك المرأة التي كتب لها الضياع .. والتي تدبر لك بالسعادة القصيرة التي نعمت بها في حياتها» ..

*

- عندما قرأت هذه الرسالة خيل إلي أن عقلي يكاد يتفجر ..

- وغشيت عيني سحابة مظلمة .. واندفع الدم في عروقي بقوة ..

- وأخيراً ملكت نفسي قليلاً .. ونظرت حولي .. وأدهشني أن أرى الدنيا لا تزال دنيا رغم الكارثة التي نزلت بي وسحقت قلبي ..

- لم تكن لدي القدرة على احتمال هذه الصدمة بمفردي .. وجرى خاطري إلى أبي .. فهو الوحيد الذي أستطيع أن أفزع إليه في محنتي .. والوحيد الذي يستطيع أن يرفه عني ..

- انطلقت أعدو كالهجين .. كاللصوص .. حتى وصلت إلى فندق باريس .. وصعدت إلى غرفة أبي ..

كان بابها مفتوحاً .. وكان أبي يقرأ .. فنظر إليّ بقليل من الدهشة .. وكأنه كان ينتظر قدومي ..
ألقيت بنفسي بين ساعديه دون أن أنطق بكلمة .. ثم دفعت إليّ رسالة مرغريت .. وانفجرت باكياً ..

الفصل الثالث والعشرون

قضيت الشهر التالي بين أبي وأختي .. ولم يغني عطفهما وحنانهما عن التفكير في مرغريت ..

كنت قد أحببت هذه المرأة حباً يستحيل معه أن أنساها بهذه السرعة .. أو أنسى الطغنة النجلاء التي أدمت بها قلبي ..

لم أقصها عن ذهني .. ولم أستطع إقصاءها .. وشعرت بأنه يتعين عليّ أن أحبها .. أو أن أكرهها .. وشعرت أكثر من ذلك برغبة شديدة في أن أراها للمرة الأخيرة على الأمل ..

وملكنني هذه الرغبة حتى لم أطلق صبراً على تحقيقها .. فقلت لأبي إنني أنوي السفر إلى باريس لشأن من الشؤون .. على أن أعود بسرعة ..

ولا شك أنه أدرك غرضي .. لأنه ألحف عليّ في البقاء .. فلما أصررت أشفق أن يؤثر الرفض في حالتي النفسية .. فضمنني إلى صدره .. ورجاني .. والدموع تترقق في عييه .. أن أعود إليه بأسرع ما يمكن ..

ولم يغمض لي جفن .. حتى وصلت إلى باريس .. وكان أول ما فعلته بعد أن نفضت غبار السفر عن نعليّ أني قصصت إلى الشانزليزيه ..

ولم تخفى ساعة حتى رأيت مركبة مرغريت قادمة من ناحية الكونكوردي ..

لا شك أنها ابتاعت المركبة والجياذ من جديد .. لأنني وجدت المركبة كما كانت .. وعرفت السائق ..

ومرت بي المركبة .. ولكنني لم أر أثراً لمرغريت ..

وفجأة .. وقفت المركبة .. ووقع بصري على مرغريت وهي تقترب من مركبتها ومعها فتاة لم أرها من قبل ..

ومرت المرأتان على مقربة مني .. ولاحظت أن مرغريت قد امتعت وعلت شفتيها ابتسامة عصبية ..

أما أنا فقد انتفض قلبي بين ضلوعي .. ولكنني تظاهرت بالهدوء وقلة الاكتراث إلى أن مضت المركبة بالمرأتين ..

كنت واقفاً من أن هذه المقابلة الفجائية قد أذهلتها .. فهي ولا شك قد علمت بأنني رحلت .. فاطمأنت .. وفلت أنها تخلّصت مني إلى الأبد .. أما الآن .. بعد أن قابلتني وجهاً لوجه .. ولاحظت شحوبي .. وانفعالي .. فإنها سوف تضرب أحساساً لأسداس .. وتتساءل عن غرضي من العودة .. ولا يبدأ لها بال في هذه الحال ..

لو أنني وجدتها شقية تعبة .. لأمكن إذاً أن أصفح عنها .. ولكنني على العكس .. فقد وجدتها سعيدة وعليها كل مظاهر النعمة التي أغدقها عليها عاشقها الجديد ..

كان من المستحيل ألا أكثرث بأمر هذه المرأة .. ولكنني كنت واقفاً .. من أن عدم اكتراثي سوف يضايقها أكثر من أي شيء آخر

في الوجوه . . لذلك رأيت من الضروري أن أظاھر بقلة
الاكتراث . . ليس أمامها فقط . . بل وكذلك أمام جميع الذين
يعرفون الصلة التي كانت بيننا .

*

وهكذا قصدت إلى بيت برودنس . . وعلى شففي ابتسامة
مصطنعة .

ودعيت بي الخادمة إلى قاعة الاستقبال . . وانطلقت إلى سيدتها
لتنبئها بقدومي .

وبعد انتظار يقبع دقائق أثقلت برودنس . . ورافقتني إلى
مخدعها . . وما كنت أجلس حتى سمعت في الغرفة المجاورة وقع
أقدام تتحرك بخفة . . ثم فتح الباب الخارجي . . وأغلق بعنف .

قلت لبرودنس :

- ترى هل أزعجك قدومي؟

- كلاً . . على الإطلاق . . لقد كانت مرغريت هنا . . فلما ذكرت
الخادمة اسمك أسرعرت بالفرار . . ولعلك سمعت وقع خطواتها
وصفق الباب . .

- وإذا فأنا أخيفها الآن؟!

- كلاً . . ولكنها تخشى أن يزعجك مرآها .

- وكيف؟ هذه المسكينة قد هجرتني لتسترد مركبتها وأثاثها
ومجوهراتها . . وقد أحسنت صنعاً . . فليس ثمة ما يستوجب غضبي
عليها!

ثم استطردت بقلة اكتراث :

- إنني قابلتها اليوم .

- أين؟!

- في الشانزليزيه . . وكانت معها فتاة أخرى على جانب عظيم
من الجمال . . فمن هي هذه الفتاة؟!

- هل تذكر أوصافها؟!

- إنها شقراء . . هيفاء . . لها عيناں زرقاوان . . وترتدي ثوباً
أنيقاً . .

- آه . . هذه هي أوليمبيا . . إنها جميلة حقاً .

- مع من تعيش؟!

- إنها لا تعيش مع أحد . . وتعيش مع كل إنسان . .

- وبيتها؟!

- بشارع ترونشييه رقم . . آه . . هل ترجو أن تخطب ودها؟!

- من يعلم ماذا يأتي به الغد؟!

- ومرغريت؟!

- إذا قلت لك إنني لم أعد أفكر بها كنت كاذباً . . ولكنني من
أولئك الذين يمشون بالقطيعه والغضاء إلى أقصى حدودهما .

إن مرغريت نبذتني ببساطة جعلتني أشعر بأنني كنت مغفلاً حين
أحببتها . . لأنني في الواقع . . كنت أحبها .

- لقد أحببتك أيضاً . . ولا زالت تحبك . . ودليل ذلك أنها ما

كادت تراك اليوم حتى أسرعرت إليّ لتقول لي ذلك . . ولما وصلت

إلى هنا . . كانت تلهث وتترنح إعياها وانفعلاً . .

- وماذا قالت لك؟

- قالت لي «لا شك أنه سيأتي لزيارتك» ثم طلبت إليّ أن أسالك

الصفح عنها .

- لقد صفحت .. فقولي لها ذلك .. إنها لم تفعل إلا ما كان يجب عليّ أن أتوقعه من فتاة مثلها ..

- ولكنها ستكون أهدأ بالآ إذا علمت أنك تدرك الظروف التي أوجأتها إلي ما فعلت ..

لقد هجرتك في الوقت المناسب يا صديقي .. فقد علم دانتوها أنها تهم ببيع أثاثها بثمان معقول لتقوم على سداد ديونهم .. فأشفقوا أن تفلت منهم هذه الصغرة .. وقرروا طرح الأثاث للبيع بعد يومين .. وإرسال مندوبيهم لشراؤه بثمان بخس ..

- والآن هل دفعت كل ديونها؟

- تقريباً ..

- ومن الذي أمدّها بالمال؟

- الكونت دي ن .. نعم يا عزيزي .. هناك أناس ولدوا لذلك .. وقد أعطاهم الكونت عشرين ألفاً من الفرنكات .. ولكنه نال أربه ..

إنه يعلم جيداً بأنها لا تحب .. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يعاملها بكرم وسخاء .. فابتاع لها مركبتها وجيادها وردة إليها حلّيتها .. وهو يعطيها الآن أكثر مما اعتاد الدوق إعطائها ..

- وهل تقيم الآن في باريس بصفة دائمة؟

- لقد رفضت العودة إلى «برجيفال» .. وطلبت إليّ أن أحزم أمتعتها هناك .. ففعلت .. وحزمت أمتعتك كذلك .. وهي هنا كلها .. فيما عدا حقيبة صغيرة عليها الحروف الأولى من اسمك .. فقد رغبت مرغريت في الاحتفاظ بها .. إنك إذا طلبتها أستردها منها ..

فقمعت :

- لتحفظ بها كما تشاء ..

وصعدت الدموع من قلبي إلى عيني ..

ولو دخلت مرغريت في تلك اللحظة .. لطلقت فكرة الانتقام وألقيت بنفسي تحت قدميها ..

قالت برودنس :

- على أنني لم أرها قط كما هي الآن .. إنها لا تنام على الإطلاق .. وتسرف في اللهو والعيث والشراب إسرافاً قاتلاً .. هل في نيتك أن تزورها؟

- وما الفائدة؟ إنني جئت لزيارتك .. لأنك أكرم عليّ منها .. ولأنني عرفتك قبل أن أعرفها .. ولك وحدك الفضل في أنني كنت عشييقها .. والفضل في أنني لم أعد كذلك .. أليس هذا صحيحاً؟ - إنني قد فعلت في الحق كل ما أستطيع .. لكي أحملها على إقصائك وكنت على يقين من أنك ستشكرني في النهاية ..

*

وانتهى الحديث بيننا .. وانصرف من بيتها وفي عيني دموع غضب وفي صدري صيحة انتقام ..

*

هكذا كانت مرغريت بغيّاً كسائر البغايا ..

وهكذا لم يقو الحب العميق الذي زعمته لي على مقاومة حبها الغريزي للترف والبذخ .. والتبذل .. وقضيت الليل كله في التفكير والبحث عن كل وسيلة ممكنة لتعذيب هذه المغلوقة البائسة ..

*

وعلمت أن مرغريت اتخذت أوليمبيا صديقة لها منذ عودتها إلى باريس .. ونهي إلي أن في نية هذه الأخيرة أن تقيم في بيتها حفلة راقصة .. وأيقنت أن مرغريت ستشارك في هذه الحفلة .. فسمعت للحصول على إحدى بطاقات الدعوة .. وتكامل سعيي بالنجاح .. وقصدت إلى مكان الحفلة .. وصدري مرتع لعاصفة من العواطف المتباينة .. ووصلت والحفلة في عفتوانها .. فألقيت القوم يرقصون .. ويغنون .. ووقع بصري على مرغريت وهي تراقص الكونت دي .. وهذا الأخير ينظر حوله في غرور وخيلاء كأنه يريد أن يقول لكل إنسان :
هذه المرأة لي .

ولمحتي مرغريت .. واضطربت .. ولكني ابتسمت وحيثما بقله اكتراث .
على أنني ما كنت أفكر في أنها لم تعد لي .. وأنها ستنصرف بعد الحفلة في صحبة هذا الأحقق الغني .. حتى صعد الدم إلى وجهي .. وثافت نفسي إلى تعكير هاتهما بأية وسيلة .

وانتهزت إحدى الفرص .. وتقدمت من صاحبة الحفلة لأحييها . كانت فتاة حسناء .. مديدة القامة .. جميلة التكوين .. ناضجة الأثوة .. ترتدي ثوباً يكشف عن كتفيها البديعين ويرز تقاطيع صدرها المغربي .. تأملتني طويلاً .. ولم يسعني إلا الاعتراف بأنها إذا لم تفضل مرغريت جمالاً وتكويناً .. فإنها لا تقل عنها بحال .
ولعل مرغريت كانت تشعر بذلك أيضاً .. فإنها لم تمورك بعصرها عن صديقتها الجديدة وهي تحدث إلي .. وقد لاحظت ذلك ونفقت

ذهني في الحال عن أبسط وسيلة للانتقام .
لم يكن لأوليمبيا عشيق في ذلك العهد .. وكان في استطاعة من يلوح لها بالذهب أن يملأ هذه الوظيفة الشاغرة .. فقررت أن أتخذ هذه المرأة عشيقاً لي .. وبدأت بأن دعوتها للرقص معي .. وكانت النتيجة أنه لم تنقض بضع دقائق .. حتى انصرفت مرغريت من المرقص .. ووجهها شاحب كوجوه الموتى .

الفصل الرابع والعشرون

كانت نتيجة لا بأس بها ولكنها غير شافية .
شعرت بسلطاني على هذه المرأة .. واستخدمته بنذالة .. لإذلالها وتحقيرها .. فليغفر لي الله ما جلبت عليها من الألم والهم .
وبعد العشاء .. بدأ المدعوون يلعبون الميسر .. فجلست بجانب أوليمبيا وجعلت أقامر بطيش وقلة اكتراث لغنا نظرها إلي .. ولكني كنت حسن الحظ .. فلم تمض بضع دقائق حتى ربحت مائة وخمسين جنياً .

ثم تضاعف ربحي .. وتضاعفت خسارة أوليمبيا .. ولاحظت أنها تنظر في جشع إلى كومة النقود التي أمامي .. ثم لاحظت أنها كفت عن اللعب بعد أن خسرت ما معها .. ولعله كان كل ما قللك .. فأعطيتها بعض النقود لتواصل اللعب إلى جانبي .

ونحو إلى الساعة الخامسة صباحاً .. نهض اللاعبون .. وانصرفوا .. فانصرفت معهم .. وكنت أسير في المؤخرة .. وأوليمبيا

تتبعنا لتودعنا . . فانتظرت حتى انصرف آخر المدعوين . . ثم تحوكت إليها فجأة . . وقلت :

- أريد أن أتحدث إليك .

فقلت :

- غداً .

- كلا . . الآن .

- ماذا تريد أن تقول؟

- هل خسرت؟

- نعم .

- كل ما تملكين؟

فترددت .

قلت :

- تكلمي . . وكوني صادقة صريحة .

- نعم .

- لقد ربحت ثلثمائة جنيه . . وسيكون لك هذا المبلغ إذا سمحت

لي بالبقاء معك . .

ووضعت كومة النقود الذهبية على المائدة . .

قالت :

- ولم هذا العرض؟

- لأنني والله أحبك . .

- كلا . . إنك تحب مرغريت . . وتريد أن تصيح عشيقتي لنثار

منها .

إنك لا تستطيع أن تخدع امرأة مثلي يا صديقي العزيز . . ولكن من سوء الحظ أنني لست من الكبير والبشاعة بحيث أقبل هذا الدور الذي تعرضه علي!

- هل ترفضين؟

- نعم . .

- فكّري في الأمر يا عزيزتي أوليمبيا . . هذا مبلغ لا يستهان به . . ولو أنني وسّطت بيني وبينك أحد الناس وأرسلت معه هذا المبلغ لقبلت ما أعرضه عليك . . ولكني أكثر التضاخم معك بتغيير وساطة . . فاقبلي ولا تسألي عن الأسباب والدوافع . . وفكري فقط في أنك جميلة وأنه لا غرابة في أن أحبك وأهيك مالا .

كانت مرغريت غائبة كأوليمبيا . . ومع ذلك فإنني لم أكن أجرو فط على أن أقول لها في أول مقابلة . . ما قلت لهذه المرأة . . وذلك لأنني اكتشفت في مرغريت غرائز تفتقر إليها هذه المخلوقة . . وقد شعرت وأنا أعرض على أوليمبيا هذا العرض بأنني أحقرها وأنقر منها .

وقبلت أوليمبيا الصفقة . . واتخذتني عشيقاً . . ولكنني انصرفت من بيتها في اليوم التالي . . وأنا لا أذكر كلمة واحدة من كلمات الحب التي رأت من واجبيها أن تصبها في أذني لأنها أخذت عرضاً . .

ومنذ ذلك اليوم . . أصبحت مرغريت هدفاً لنقمتي واضطهادي .

وقد انقطعت الصلة بينها وبين أوليمبيا لأسباب يسهل إدراكها . .
وأمنت في النكاية بمرغريت . . فأهديت عشيقتي الجديدة مركبة
وجياداً ومجوهرات . . وتوزعت في المقامرة وغيرها من الحماقات
الخليفة برجل يعشق امرأة مثل أوليمبيا .

وانخدعت برودنس كما انخدع غيرها . . وأيقنت أنني قد نسيت
مرغريت نسياناً تاماً .

أما مرغريت - ولا أعلم هل انخدعت بدورها أو أدركت سرّ هذا
الهوس - فإنها راحت تقابل الإهانة والعدوان . . بالكبرياء والترفع . .
ولكنني لاحظت أنها تتألم وأنها تزداد نحولاً وشحوباً وحزناً .

وفي بعض الأحيان . . كانت إذا قابلتني . . بعد إحدى الإهانات
اللاذعة . . نظرت إليّ متوسلة مستعطفة نظرة لا أمثالك معها من
الشعور بالحجل والندم . . فأرد لو أنطرخ على قدميها . . وأسألهما
الصنح .

ولكن هذا الشعور سرعان ما كان يفسح في السبيل لرغبتني
الشريرة في الانتقام والتشفي .

وظلت أوليمبيا أنها تفوز بالزيد من رضاي كلما شددت التكبر
على مرغريت . . فراحت تهينها في كل فرصة بإصرار وسفالة المرأة
التي تشعر بتشجيع الرجل .

وانتهى الأمر بمرغريت أنها كتفت عن التردد على المسارح والملاهي
والمراقص خوفاً من أن تلصق بنا . .

ولكنني لم أقنع بكل هذا . . وذهبت أذيع عن مرغريت أشنع
الإشاعات وأوقعتها . .

والواقع . . أنني كنت أشبهه برجل ثمل بنشوة الخمر الرديء . .

وانتهى إلى تلك الحالة من الانفعال والهياج التي تستطيع فيها اليد أن
ترتكب أية جريمة . . دون أن يكون للعقل ضلع فيها .

وضاعف جنوني ما كنت أرى من هدوء مرغريت . . وسكنتها . .
وكبرياتها . . وترفعها . . وذللها . .

وصادف أن جاءتني أوليمبيا في أحد الأيام وقالت لي إن مرغريت
قابلتها في أحد المراقص . . وإنها انتهزت فرصة انفرادها وأهانتها . .

والظاهر أن أوليمبيا كانت البادئة بالإهانة والعدوان كالعادة . . وأن
مرغريت غضبت لكرامتها أخيراً فقابلت الإهانة بالمثل . .

ومهما يكن من أمر . . فقد أصرت أوليمبيا على أن أكتب إلى
مرغريت رسالة لاذعة أطلبها فيها احترام المرأة التي أحبها . . سواء
أكنت معها أم لم أكن .

وغني عن الذكر أنني رحبت بهذا الاقتراح . . وأودعت رسالتي
كل بداءة وقساوة ممكنة .

وقد أيقنت أن اللطمة في هذه المرة أشد من أن تحتملها الفتاة
المسكينة دون أن تقول شيئاً . .

والواقع . . أنه لم تنقضى ساعتان حتى دق جرس الباب . .
ودخلت برودنس .

تظاهرت بقلة اكتراث وأنا أرحب بها . . وأسألهما عن الدافع إلى
زيارتها غير المنتظرة . . ولكنها كانت شديدة الانزعاج والتأثر على غير
عادتها . . فقالت لي بلهجة رزينة . . وصوت يضطرب . . إنني لم
أترك فرصة لإيلا ممرغريت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة إلا
وانتهزتها . . وإن حادث الأملس ورسالة اليوم . . قد أزعجا الفتاة
المسكينة . . فلزمت فراشها . . وإن مرغريت ترجوني الكف عن هذه

الحملة . . وتقول إنها لا تقوى صحياً ولا أدبياً على احتمال هذا السلوك الشائن بحقها .

فقلت :

- لقد كان للأسة جوتييه كل الحق في أن تنبذني . . ولكني لا أسمح لها بحال أن تهين المرأة التي أحبها .

فقال برودن :

- يا صديقي . . أنت تخضع لتأثير فتاة لا قلب لها ولا ضمير . صحيح أنك تحبها . . ولكن ذلك لا يسوغ لك أن تهين امرأة لا تستطيع الدفاع عن نفسها .

- إذا فترسل لي صديقها الكونت دي . . وشاهده .
- أنت تعلم أنها لن تفعل هذا . . فدعها وشأنها يا عزيزي أرمان .
إنك لو رأيتهما لحجلت من سلوكك حيالها !

إنها هزيلة شاحبة . . تسعل بشدة . . إنها لن تعمّر طويلاً .
ومدّت يدها إليّ وأردفت :

- تعال وانظر إليها . . إن زيارتك ستجلب لها السعادة .
- إنني لا أنوي مقابلة الكونت دي . .
- إن الكونت لا يقيم معها . . إنها لا تطيقه .
- إذا أرادت مرغريت مقابلي . . فإنها تعرف مكاني . . فلتحضر إليّ إذا شاءت . . أمّا أنا فلن أقصّر قدمي في شارع دانثان .
- وهل تترقب بها وتقابلها بإحسان ؟

- نعم . .

- أنا واثقة من أنها ستأتي .

- لتأت إذا . .

- هل ستخرج اليوم ؟
- بل سأقضي المساء هنا . .
- سأقول لها ذلك .
- وانصرفت . .



ولم أكلف نفسي عناء الكتابة إلى أوليمبيا لأثبتها بأنني لن أذهب إليها هذا المساء .

ثم خرجت لتناول الطعام . . وعدت على الأمر . . وأمرت الخادم بأن يشعل النار في الموقد .

ولا أستطيع أن أصف لك المشاعر التي كانت تعتمل في أعماقي . . وأنا أنتظر مرغريت . . فلما دق الجرس في الساعة التاسعة . . استحالت هذه المشاعر إلى انفعال عنيف لم أملك معه إلا أن أستند إلى الجدار لأمنع نفسي من السقوط . .

دخلت مرغريت . . وقصدت إلى غرفة الاستقبال . . ورفعت النقاب الرقيق الذي يحجب وجهها . .

كانت شديدة الشحوب .

قالت :

- هأنذا يا أرمان . . قلت إنك تريد أن تراني فجئت . .

وأستندت رأسها بين كفيها . . وانفجرت باكياً . .

فاقتربت منها وسألته بصوت يرتجف .

- ماذا بك ؟

وخفتها العبرات . . فضغطت على يدي دون أن تجيب . .

واستعادت بعض هدوئها بعد قليل . . وقالت :

- لقد ألحقت بي كثيراً من الأذى يا أرمان .. ولم ألحق بك أذى قط .

تأجبت وأنا أبتسم بمرارة :

- لم تلحقني بي أذى ؟ !

فاستدركت :

- إلا ما أرغمتني عليه الظروف الضاغطة .

•

ولا أعلم هل مرَّ بك في حياتك .. أو سيمرُّ بك على الإطلاق .. مثل الشعور الذي أحسَّ به عندما رأيت مرغريت .. كانت عندما زارتنى لأخبر مرة قد جلست في المقعد نفسه الذي تجلس فيه الآن ..

ومنذ ذلك العهد .. تبدَّل كل شيء .. فأصبحت عشيقة رجل آخر .. وارتشف غيرة رحيق الحب من شفتيها اللتين ما زالتا تغرياني . ومع ذلك فقد شعرت بأنني ما زلت أحبها كما أحببتها من قبل .. بل وأكثر مما أحببتها ..

•

قالت :

ستضايقك زيارتي يا أرمان .. لأنني جئت لأسألك شيئين : أن تصفح عملاً بدر مني أسس نحو الآسة أوليمبيا ، وأن تكفَّ عما أظن أنك مستعد لمواصلته ضدي .

منذ عودتك إلى باريس يا أرمان وأنت - بقصد أو بغير قصد - تعمل على تجريحى .. حتى أصبحت لا أقوى على احتمال معشار الآلام التي عانيتُها حتى الآن .. فهلاً رحمتني .. وهلاً رأيت أن

للرجال في الحياة رسالة أنبل من البطش بامرأة عليلة حزينة مثلي؟؟ إليك يدي .. فإلسها .. إنني محمومة .. وقد غادرت فراشي وجشتك .. لا لأتمس صداقتك .. وإنما لأتمس إغضاضك وضحكك ..

فتناولت يدها .

كانت تحترق وترتجف .. فحرَّكت مقعدها حتى أدنيه من الموقد . ثم قلت :

- وهل تعتقدين أنني لم أتألم ليلة أن انتظرتك فلم تعودى .. ويحسَّ عنك فلم أجد إلا تلك الرسالة التي كادت تفقدني صوابي؟ كيف استطعت أن تخدعيني يا مرغريت .. أنا الذي أحببتك كما لم يحب الرجل امرأة من قبل ؟ !

- لا تتحدث عن هذا يا أرمان .. إنني ما جئت لأتحدث عن هذا الموضوع .. إنما جئت لكي أشد على يدك للمرة الأخيرة .

إن لك عشيقة شابة حسناء يقال إنك تحبها .. فكن سعيداً معها .. وانسني .

- وأنت .. إنك سعيدة بغير شك؟

- هل يبدو عليَّ أنني سعيدة يا أرمان؟؟ بالله لا تسخر من آلامي وحزني !

- إذا لم تكوني سعيدة .. فإن الذنب في ذلك ذنبك وحدك .

- كلاً يا صديقي .. إنَّ الظروف كانت أقوى من إرادتي .. فلم

أعمل بوحى شعوري كامرأة مستهتره .. وإنما عملت بوحى ظروف سوف تعرفها في أحد الأيام .. وسوف تغفر لي متى عرفتها .

- ما هي هذه الظروف .. ولماذا لا تحدِّثيني بها الآن ؟ !

- لأن ذلك لا يمكن أن يرد علينا سعادتنا المستحيلة .. وربما يفرق
بينك وبين أشخاص ينبغي ألا تفترق عنهم .

- من هم أولئك الأشخاص؟

- لا أستطيع أن أذكرهم لك الآن ..

- إذا فأنت تكذبين !

فنهضت واقفة .. وسارت نحو الباب ..

كان من المستحيل أن أشهد هذا الحزن البالغ الصامت دون أن
أثائر .. فأسرعت إليها ووقفت بينها وبين الباب وهتفت :

- لن تذهبي .

- لماذا؟!

- لأنني ما زلت أحبك .. رغم كل ما فرط منك .. وسأبقى هنا ..

- لكي تطردني غداً؟! كلا .. هذا مستحيل .. لقد انقطعت
أسباب دنيائي عن أسباب دنيائك .. وافترقت مصائرنا .. فإذا حاولت
أن تجمع بينها فقد تحققني .. أمّا الآن .. فيأفك لا تستطيع فقط إلا
أن تكبرهني ..

- كلا يا مرغريت .. كلا .. سأنسى كل شيء .. وسننعم معاً
بالسعادة التي وعدنا بها أنفسنا .

فهزت رأسها في ارتباك ولكنها أجابت :

- أأنت أطوع لك من العبد؟! أأنت أطوع لك من الكلب؟!

أفعل بي ما شئت فإنني لك .

وخلعت قبعتها ومعطفها .. وأخذت تحل أزوار ثوبها .

وفي هذه اللحظة انتابتها سحابة جافة .. فوضعت متدليها
على فمها . واستطردت :

- قل للسائق أن يعود بالمركبة .

فانطلقت لإنفاذ أوامرها .. ولما عدت وجدها عمدة أمام الموقد
وهي ترعف .. وأستانها تصطك .. فتزعت ثيابها عنها وحملتها إلى
الفراش ورددت الحرارة إلى بدنها بقبليتي .

•

كانت ليلة غريبة أفرغت فيها مرغريت كل حياتها في قبيلات ..
وملكتني فيها نشوة حببت إلي أن أقتلها حتى لا يملكها سواي من بعد .
وصحوت عند الفجر .. فوجدت مرغريت شديدة الشحوب ..
والدموع تنحدر من عينيها في سكون وتستر على وجنتيها كحجاب
الماس .

قلت لها في همس :

- هل نذهب يا مرغريت؟ هل نبرح باريس؟

فأجابت في فزع :

- كلا .. كلا .. ذلك يجلب علينا شقاء لا يحتمل .. إنني لا
أعدك بالسعادة .. ولكنني أعدك بأن أظل أطوع لرغباتك من الكلب
الأمين طالما في جسدي شريان ينض .

فإذا رغبت في .. في أية ساعة من ساعات الليل والنهار ..
وجدتني تحت قدميك .. ولكن لا تصل مستقبلك بمستقبلي .. ولا
تقرن مصيرك بمصيري .. والأجلت لنفسك الشقاء .. وجلبت لي
التعاسة .

إنني ما زلت .. وسأظل بعض الوقت .. على شيء من
الجمال .. فأفد من جمالي ما استطعت .. ولكن لا تسألني بالله أكثر
من ذلك .

•

ولمّا انصرفت .. شعرت بالفراغ الذي تركته في قلبي وكياني .
وانقضت ساعتان بعد انصرافها .. وأنا لا أزال أتأمل الفرائش الذي
تركته فيه طابع جسدها .. وأشعر بقلبي تهباً موزعاً بين الحب
والغيرة .

وفي الساعة الخامسة كنت في شارع داتان دون أن أشعر .

طوقت الباب .. ففتحته نائين .

قالت في ارتباك :

- إن سيدتي لا تستطيع أن تستقبلك .

- لماذا؟

- لأن الكونت دي .. هنا .. وقد أمرني بالأمر لا أسمح لأحد
بالدخول .

فغمضت :

- هذا صحيح .. لقد نسيت .

وعدت إلى منزلي وأنا أترنح كالتمل .

فهل تعرف ماذا فعلت؟

قلت لنفسي إن هذه المرأة تسخر مني .. وإنها تهتمس الآن في
أذن الكونت الكلمات نفسها التي سمعتها منها بالأمس .

ثم تناولت ورقة مالية ذات خمسمائة فرنك .. وأرسلتها إليها مع
هذه الكلمات :

«لقد عجلت بالانصراف هذا الصباح فأستني العجلة أن أتقدمك
أجرك» .

وفي المساء .. جاءني أحد الغلمان برسالة .. ففضضتها .. ولم

أجد بها سوى الورقة المالية ذات الخمسمائة فرنك .

سألت الغلام :

- من أعطاك هذه الرسالة؟

فأجاب :

- سيدة كانت تهتم بالسفر .. وقد أمرتني أن أحملها إليك بعد أن

يتحرك القطار ..

فهولت إلى بيت مرغريت .. وأجابني البواب :

- رحلت إلى إنجلترا في الساعة السادسة ..

*

وهكذا لم يبق حب أو بغض يغريني بالبقاء في باريس ..

وكان أحد أصدقائي يتأهب لرحلة طويلة في الشرق .. فاستأذنت

أبي في مرافقته فأذن لي .

*

وحدث عندما وصلنا إلى الإسكندرية أنني صادقت هناك موظفاً

بالسفارة الفرنسية .. كنت قد قابلته مراراً في بيت مرغريت ..

فأنبأني بمرض هذه الفتاة المسكينة ..

وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك .. ولا يتقصك إلا أن تقرأ هذه

الصفحات التي تناولتها من جوليا ديبار .. ففيها خاتمة هذه المساة .

الفصل الخامس والعشرون

تعب أرمان من الكلام .. فوضع يديه حول رأسه .. وأغمض

عينيه .. إما ليفكر وإما لينام النوم .

وبعد بضع دقائق لاحظت أن أنفاسه تتردد ببطء وانتظام ..
فأدركت أنه أغفى .. وتناولت الصفحات التي دفع بها إلي ..
وقرأت فيها ما يلي :

نحن اليوم في الخامس عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر ..
«كنت أتألم في الأيام الأخيرة ، فلزمت فراشي ، والجو مكفهر ،
وأنا حزينة ، ولا أحد بجانبني ..

إنني أفكر فيك يا أرمان .. وأنت .. أين أنت في الساعة التي
أكتب فيها هذه السطور؟

إنك بعيد عن باريس .. بعيد جداً كما قيل لي .. وربما قد
نسيت صاحبتك مرغريت .. فكن سعيداً يا صديقي .. يا من أدين
له باللحظات القليلة التي سعدت بها في حياتي .

إنني لم أستطع كبح رغبتني في أن أقدم إليك إيضاحاً عن
سلوكي .. وقد كتبت إليك رسالة .. ولكن الرسالة التي تكتبها فتاة
مثلي .. قد تعتبر كذبة ما لم يدمعها الموت بطابع الصدق .. فتصبح
اعترافاً لا رسالة ..

إنني اليوم مريضة .. وقد أموت بهذا المرض .. فطالما حدثني
قلي بأنني سأموت في عتفوان الشباب .. وقد ماتت أمني بالسل
الروثي .. وطبيعة حياتي كان شأنها أن تشجع هذا الداء .. وهو
الإرث الوحيد الذي ورثته عنها ..

ولكنني لا أريد أن أموت قبل أن تصحح رأيك في .. وأجعلك
تصدر علي حكماً صادقاً .. إذا صح وكنت لا تزال تفكر في الفتاة
المسكينة التي أحببتها قبل رحيلك .

أنت تذكر يا أرمان .. كيف كان قدوم أبوك مفاجأة لنا .. وتذكر

الرعب الغريزي الذي استولى عليّ يومئذ .. وما كان بينك وبينه في
المقابلة الأولى ..

ففي اليوم التالي .. بينما كنت أنت في باريس تبحث عن
أبيك .. جاءني رجل .. وقدم إليّ رسالة من السيد ديفال .

وفي هذه الرسالة - وأنت تجدها هنا - توسّل إليّ أبوك بلمحة
جديدة أن أقصيك عن المنزل في اليوم التالي بأي عذر ممكن .. وأن
أستقبله .. لأنه يريد أن يتحدث إليّ ..

ولعلك تذكر كيف ألححت عليك أن ترحل إلى باريس في اليوم
التالي .

ولم تنفرض ساعة بعد رحيلك .. حتى جاء أبوك .. ولا أحدثك
عن الأثر الذي تركه غيابه وتجهيه في نفسي .

كان أبوك مشبعاً بالنظريات العتيقة التي تقول بأن الغاية مخلوقة
لا قلب لها ولا عقل .. وأنها نوع من الآلات التي تشتري
بالذهب .. وأنها كالآلات الحديدية .. قد تجرح اليد التي تقدم
الوقود .. وتهلك بغير شفقة أو رحمة الصانع الذي يجعلها تعيش
وتعمل .

كانت الرسالة التي كتبها إليّ تنطوي على الاحترام .. أما مقابلته
فكانت غير ذلك .

كان مرتفع الرأس .. متنفخ الأوداج .. مهدهداً متوعداً .. ما
حملني على أن أذكره بأنني في بيتي .. وأنه ليس هناك ما يرغمني
على أن أقدم له حساباً عن حياتي .. وأني لم أستقبله إلا بدافع
حبي وإخلاصي لولده .

وعندئذ هدأت ثورته قليلاً .. ثم قال إنه لن يسمح لولده بعد

الآن بأن يورد نفسه موازاة الخراب والدمار من أجلي .. وإنني فائتة حقاً .. ولكن ينبغي ألا أنخذ من فتتي معولاً لهدم مستقبل أحد الشبان بإغرائه على تبذير ما يملك وما لا يملك في سبيلي .

ولم يكن لدي إلا ردة واحد .. ولا شك أنك توافقني عليه .. وذلك هو أن أبرز الأدلة على أنني لم أدخر أية تضحية مهما عظمت .. في سبيل أن أبقي مخلصة لك .. دون أن أحملك من التفات أكثر مما تستطيع .

وأبرزت له وثائق البيع والرهن .. وقلت له إنني الذي أبيع أنا في كله لأسدد ديوني وأعيش معك دون أن أكون عبثاً ثقيلاً عليك .

وحديثه عن سعادتنا .. وآماننا .. وانتهى به الأمر إلى الانتعاش .. فبسط إلي يده .. وسألني المعذرة على غلظته وقسوته .

ثم قال :

- ما دام ذلك كذلك يا سيدتي .. فإنني لا أستعين بالتهديد .. بل أستعين بالضراعة لأكتسب منك تضحية أعظم من كل تضحية أخرى بذلتها في سبيل ولدي .
فارتجفت ..

واقرب أبوك مني .. وتناول يدي واستطرد بلمحة رقيقة :

- لا يحزنك ما سوف أقول يا بنيتي .. وافهمي فقط أن للحياة في بعض الأحيان ضروراتها القاسية على القلب .. ولكنها ضرورات لا بد من الخضوع لها والتسليم بها .

إنك فتاة طيبة .. وفي قلبك من العواطف الكريمة ما لا تعرفه الكثيرات من النساء .. اللاتي ربما يحتقرنك .. لأنهن لا يعرفن قيمتك .. ولكن فكري .. في أنه إلى جانب الحب .. توجد

الواجبات .. وأنه بعد ثورة الشباب .. يأتي الوقت الذي يتعين فيه على الرجل لكي يكون محترماً .. أن يتربع في مركز خطير ..

وولدي لا يملك ثروة تذكر .. وعلى ذلك فإنه على استعداد للتزول لك عن الإرث الذي خلفته له أمه .. فإذا هو قبل التضحيات التي تؤشكين الإقدام عليها من أجله .. أصبح من واجبه كرجل يعرف الشرف والكرامة أن يقابل التضحية بمثلها .. وينزل لك عن القليل الذي يملكه ليقيك في المستقبل شر الحاجة الملحة .

ولكنه لا يستطيع أن يقبل تضحيتك .. لأن الناس الذين لا يعرفونك يردون هذا القبول إلى أغراض غير شريفة يجب ألا تلوث الاسم الذي نحمله .

ولن يسأل الناس .. هل يحبك أرماني .. وهل تحبينه .. وهل في هذا الحب سعادته .. وعودتك إلى سواء السبيل .. ولكنهم سيرون فقط أن أرماني ديفال قد رضي بأن يتبع إحدى الغانيات - ومعذرة إذا استخدمت هذه الكلمة فما أبغي غير الصراحة - سيرى الناس فقط أن أرماني ديفال قد رضي بأن يتبع إحدى الغانيات كل ما قللك من أجله .

ثم لا بد أن يأتي بعد ذلك يوم الندم .. فتندمان معاً .. وتشعران معاً .. بأنكما مغلولان بسلسلة من حديد لا تستطيعان فصمها .. وعندئذ ماذا تصنعان ؟ ! تكونين أنت قد فقدت جمالك .. ويكون ولدي قد فقد مستقبله .. وأكون أنا - أبوه - قد فقدت نصف العطف الذي رجوته من ولدي في شيخوختي ..

إنك في مقتل العمر .. وعلى جانب كبير من الفتنة .. ولا شك أنك ستجدين العزاء .. والسلوى .. وستكفرين بهذا العمل الكريم

عن بعض ذنوب الماضي ..

إن أرمان قد نسيني منذ عرفت .. وقد كتبت إليه أربع رسائل .. فلم يفكر في الرد علي .. ولو اخترمني الموت ما علم بذلك ..

ومهما يكن عزمكما على الحياة معاً .. فإن أرمان الذي يحبك لن يطبق العزلة التي عثمتها عليكما قلة ثروته .. ومن يعلم ماذا يفعل عندئذ؟

لقد تورط في المقامرة - كما علمت - دون أن يقول لك - وأنا واثق من ذلك ..

ولكن هي أنه تورط في المقامرة في ساعة جنون .. ثم تورط في الدين .. واضطرتني أن أنقذ شرفه بتضحية المال الذي ادخرته ليكون مهراً لأخته .. وملاًذاً لي في شيخوختي .. فماذا يحدث عندئذ؟ ثم هل أنت واثقة من أن الحياة التي هجرتها من أجله لن تجتذبك إليها مرة أخرى؟

هل أنت واثقة من أنك لن تتخذي من دونه عاشقاً آخر؟ !
فكري في كل هذا يا سيدتي ..

إنك تحبين أرمان .. فيرهنني على ذلك بالرسيلة الوحيدة التي بقيت لك الآن .. برهنني على ذلك .. بتضحية غرامك لمستقبله ..
إن الصلة بينكما لم تسفر عن شر أو أذى حتى الآن .. ولكنها ستسفر عنهما حتماً في المستقبل .. وقد يحدث أهول مما أتوقع .. قد يغار أرمان في أحد الأيام من رجل يحبك .. فيبارزه ويقتل .. وعندئذ كم سيؤلمك منظر أبيه عندما يسألك حساباً عن حياة ولده؟
إنني لم أذكر لك كل شيء يا بيتي .. ولكنك يجب أن تعلمي كل شيء ..

إن لي ابنة .. وهي صبية حسنة .. طاهرة كاللائكة ..

وابنتي تحب .. وهي كذلك قد وضعت في الحب كل آمالها .. وأحلامها .. إنني كتبت لأرمان عن كل هذا .. ولكنه كان قد شغل بك عن كل شيء آخر ..

صفوة القول إن ابنتي توشك أن تتزوج بالشاب الذي تحبه .. وهذا الشاب ينتمي إلى أسرة شريفة نبيلة تتوقع أن ترى في أسرتي كل شرف .. ونبل ..

وقد وصل إلى سمع الشاب وأسرته نبأ الحياة التي يحيها أرمان في باريس .. فصبرحوا بأنهم سيضطرون إلى العدول عن هذا الزواج .. إذا استمر أرمان على هذه الحال .. فبين يديك إذا مستقبل صبية لم تلحق بك أذى ولها كل الحق في أن تطمع في السعادة .. فهل من حقيك .. وهل تجدين في مقصودك أن تقوضي هذه السعادة؟

استحلفك بحبك وتوبتك يا مرغريت أن تمنحي ابنتي سعادتها ..

*

أصغيت إليه يا صديقي .. وبكيت في صمت .. وما زلت أبكي كلما طافت بذهني هذه الكلمات ..
بل لقد قلت لنفسي ما تردد أبوك في أن يقوله لي .. وما قرأته على شفثيه عشرين مرة ..

قلت لنفسي : أما أنا أولاً وأخيراً إلا بغني .. ومهما فعلت فسيتظل غرامي بلبس ثوب الطمع .. وسيتظل ماضي ينكر علي كل حق في مستقبل شريف سعيد ..

*

كانت لهجة أبيك ومشاعره النبيلة .. وما يتظرني من تقديره أولاً
وتقديرك أخيراً .. كل ذلك حرك في أعماقي عواطف لا عهد لي
بها .. جعلتني أرتفع في نظر نفسي .

وعندما تذكرت أن هذا الشيخ النبيل الذي جاءني ضارعاً من
أجل مستقبل ابنته .. سوف يطلب إلى ابنته في أحد الأيام أن
تذكرني في صلواتها .. هانت علي سعادتي .. وهان علي هنائي ..
وطراً علي تحوّل جعلني أفخر بنفسي .

قلت لأبيك وأنا أجفّف دموعي :

- حسناً يا سيدي .. هل تعتقد بأنني أحب ابنتك ؟

- نعم .

- هل تعتقد بأنني جعلت من هذا الحب أمل حياتي ..
وحلمها .. وكفارتها ؟

- أعتقد ذلك .

- إذا قبلني يا سيدي كما تقبل ابنتك .. وأقسم لك أن هذه
الفيلة .. وهي القيلة الطاهرة الوحيدة التي تلقينها .. سوف تشدّد
عزيمتي على قهر جي .. ولن ينقضي أسبوع حتى يعود إليك ولدك
وقد شفّي من غرامه إلى الأبد .

فقال وهو يقبل جيبيني :

- إنك فتاة نبيلة .. وسيمجزيك الله عمّا تصنعين .. أما ولدي ..
فأخشى ألا تنالي منه جزاء .

- اطمئن يا سيدي .. فإنه سوف يمجّتي .

وكان لا بد أن أضع يدي وينك حاجزاً مانعاً لكلينا .. فكبت

إلى برودنس أقول لها إنني قبلت ما يعرضه عليّ الكونت دي ..
وإنني سأتناول طعام العشاء معها ..

والصقت غلاف الرسالة .. وقدمتها إلى أبيك دون أن أذكر له
مضمونها .. ورجوته أن يسلمها إلى صاحبها في باريس ..

على أنه سألني عن مضمونها فأجبت :

- إنها تتضمن سعادة ولدك .

فقبلني مرة أخرى .. وشعرت بدمعتي وفاء تتساقطان على
جبيني .. وخيل إليّ أن هاتين الدمعتين قد غسلتا ما فرط من ذنوبي
وخطاياي ..

•

وانصرف السيد ديفال في مركبته ..

أما أنا فلما نيت امرأة على كل حال .. ولمّا رأيتك لم أملك من
البكاء .. ولكنني لم أتحوّل عن عزمي .

فهل أصبت يا ترى؟؟

ذلك ما أسألك عنه نفسي الآن وأنا مريضة .. طريحة فراش قد لا
أبرحه وأنا على قيد الحياة ..

إنك شاهد عدل على ما كنت أقاسي عندما دنت ساعة الفراق ..
ولم يكن والدك معنا لكي يشدّد عزيمتي .. وقد كدت مراراً بدافع
الخوف من غضبك واحتقارك .. أن أعترف لك بكل شيء .. ولكن
الله عصمني .. وشدّد عزيمتي .. فكان ذلك دليلاً على أنه قبل
تضحيتي .

ولمّا قابلت الكونت في المساء لم أجسر على التفكير فيما أنا
مقدمة عليه .. خوفاً من أن تخونني شجاعتي .. من ذا الذي كان

يتوقع هذا؟؟ من ذا الذي كان يتوقع أن يوماً سيأتي .. تشعر فيه
مرغريت جوتيه بأشد الألم إذا اتخذت لنفسها عشيقاً جديداً؟
وأسرفت في الشراب لكي أنسى .. ولما استيقظت في
الصباح .. وجدتني مع الكونت .
تلك هي الحقيقة يا صديقي .. فأصدر حكمك عليّ .. واغفر لي
كما غفرت لك إساءاتك إليّ منذ ذلك اليوم .

*

وأنت تعلم ما حدث بعد ذلك .. شيء واحد لا تعلمه .. هو
أنني قاسيت كثيراً منذ افترقنا .
وقد علمت أن أياك ذهب بك .. ولكنني ارتيت كثيراً في أنك
تستطيع الحياة بعيداً عني .. ولما قابلتك في الشانزليزيه بعد
ذلك .. استولى عليّ الانزعاج .. ولكنني لم أدهش .
ثم بدأت سلسلة الأيام .. التي حمل إليّ كل واحد منها .. إهانة
جديدة منك .. ولكنني كنت أرحب بتلك الإهانات .. ليس فقط
لأنني وجدت فيها الدليل على حبك .. وإنما كذلك لأنه خيل إليّ
أنك كلما أسرفت في اضطهادي .. كلما ازدادت سمواً في نظرك
عندما تعرف الحقيقة كلها .

فلا يدعشك هذا الاستشهاد المرح يا أرمان .. فإن حبك فتح
قلبي لأنواع من العواطف النبيلة لم يكن لي بها عهد من قبل .
ولا شك أن برودنس قد حدثك .. كيف وجدت من الضروري
لي أن أستعين على حياتي الجديدة بالإسراف في الشراب واللهو
والعبث .. لكي أنسى .. ولكيلا أجن ..

كنت أرجو بهذا الإسراف أن أقتل نفسي بسرعة .. وأعتقد أن

رغيتي من التحقق عما قريب .. فقد ساءت صحتي كثيراً .. ويوم
أرسلت إليك برودنس في طلب الصفيح .. كنت منهوكة القوى
جسمانياً وعقلياً ..

ولست أذكرك يا أرمان كيف كافأني على آخر دليل من أدلة
الحب قدمته إليك .. ووسط أية فضيحة أخرجت من باريس المرأة
التي لم تستطع - حتى وهي تحتضر - أن تصم أذنيها عن ندائك ..
أنت طاليتها بليلة غرام .. فظنت في جنونها أنها تستطيع أن تصل
الماضي بالحاضر .. ثم ما لبثت أن فطنت إلى خطئها ..
وقد كنت أنت على حق فيما فعلت بعد ذلك .. ولكن ليالي لم
تكن دائماً غالية الثمن هكذا يا أرمان؟!

*

إنني فررت إذاً من باريس .. وتركت كل شيء .. فاحسنت
أوليمبيا مكاني عند الكونت دي ن .. وقيل لي فيما بعد إنها
تفضلت فذكرت له أسباب رحيلي .

أما أنا فإني رحلت إلى لندن .. حيث يوجد الكونت دي ج ..
وهو من أولئك السادة العظام الذين يفتحون لنا قلوبهم من ركن
واحد وجيوبهم من جميع الأركان .. وقد رحّب بي ولكنه كان
عشيق امرأة ذات مكانة في المجتمع هناك .. فأشفق أن يرانا الناس
معاً .. وقدمني إلى بعض أصدقائه .. وهؤلاء دعوني لتناول طعام
العشاء .. ثم اصطحبني أحدهم إلى منزله .. ماذا كان في استطاعتي
أن أفعل غير هذا يا صديقي؟

هل أقتل نفسي؟

إنني لم أفعل ذلك حتى لا أحمل ضميرك وزر انتحاري ..

وبعد .. لماذا يتشحر الإنسان وهو يرى نفسه أدنى ما يكون إلى الموت؟

وهكذا تدرّجت إلى الحالة التي يصبح فيها الإنسان جسماً بلا روح .. وهيكل بلا عقل أو وجدان .. وبقيت كذلك فترة من الوقت .. ثم عدت إلى باريس .. وسألت عنك فسيقيل لي إنك ذهبت في رحلة طويلة .

ويرحلك .. لم يبق لي ما يمنعني من الاحتدار .. فعدت إلى الحياة التي كنت أحيها قبل أن أعرفك .. وحاولت أن أجتذب الدوق .. ولكنه أبى أن ينسى أو يصفح .. وذلك شأن الشيوخ جميعاً .. فإنهم أضيق الناس صدرأ وأقلهم صبراً .. ولعل ذلك لأنهم يشعرون أكثر عما يشعر غيرهم بأنهم ليسوا خالدين .

واستبدّ بي المرض .. وزاد شحوبي .. وتحولت وحزني .. ولعلك تعلم أن أولئك الذين يشترون الحب يفحصون البضاعة قبل الاختيار .. وفي باريس نساء أقوى مني جسماً .. وأصبح بدناً .. وأشدّ مرحاً .. فلا عجب إذا تركت في زوايا النسيان .

ذلك هو الماضي .

أما الآن .. فأني طريحة الفراش .. وقد كتبت إلى الدوق أسأله نقوداً .. لأنني لا أملك شيئاً .. والدائنون لا يكفون عن إزعاجي .. ترى هل يجيني الدوق؟

لماذا أنت لست في باريس يا أرمان؟ لكي تزورني . وترقّه عني .

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر :

الجو مخيف .. وأنا وحيدة في المنزل .

منذ ثلاثة أيام .. والحصى تنهب جسدي .. وتمنعني من الكتابة إليك .

ولكن لا جديد يا صديقي .

وفي كل يوم أنتظر رسالة منك .. ولكن دون جدوى .. فما أقدر الرجال على عدم الصفح !

*

لم أتلّم رداً من الدوق .. وقد عادت برودنس إلى روحاتها وغدواتها بين المنزل وخوانيت الرهون .

أما أنا فأني ما زلت أثقت دعاً .. وسيؤلك أن تراني .

إنك سعيد الحظ يا صديقي لأنك تعيش في جو دافئ .. وليس هناك شتاء ملتح يزرع فوق صدرك .

لقد نهضت قليلاً .. ونظرت من النافذة .. ورأيت باريس المتحركة النشيطة .. التي أشعر بأنني انتزعت منها انتزاعاً .. ووقع بصري على أناس أعرفهم .. قرأيتهم يمرون ببابي فرحين مسرعين مغتبطين .. ولكن أحداً منهم لم يرفع عينه إلى نافذتي .

إنني مرضت قبل الآن .. ولم تكن تعرفني .. ولكنك كنت تستفسر عني كل يوم .

وهأنذا مريضة .. بعد أن قضينا معاً ستة شهور .. أحيتك في خلالها حياً لم تنظر عليه جوانح امرأة قبلي .. وهأنذا بعيد عني .. لا تبعث إلي ولو بكلمة عزاء .

*

٢٥ كانون الأول/ ديسمبر :

حظر عليّ الطبيب أن أكتب كل يوم .. والواقع .. أن ذكرياتي

تضاعف الحمى ..

ولكنني تلّمت أمس رسالة أنعشتني مادياً بما تضمنت .. وحباً بما حملت .

وقد جاءني الرسالة من أبيك . . وإليك مضمونها :
سيدتي :

علمت الآن أنك مريضة . . ولو كنت في باريس لاستفسرت عنك
بنفسي . . ولو كان ولدي على مقربة مني لأبته عني . . فاسمحي
لي يا سيدتي أن أكتب إليك معبراً عن ألي لمرضك . . وأملّي في
شفائك .

سيذهب صديقي الحميم السيد (هـ) إلى منزلك . . فتفضلي
بمقابلته . . فقد أوفدته إليك في مهمة أنتظر نتيجتها بفروغ صبر . .

تلك هي رسالة أبيك .

إنّ أبك رجل نبيل الخلق . . كبير القلب . . فاحبه كثيراً يا
أرمان . . فما أقل الرجال الجديرين بالحب في هذا العالم !!
وقد جاء السيد (هـ) هذا الصباح . . وقدم لي باسم أبيك خمسة
آلاف فرنك . . فأردت أولاً أن أرفضها . . ولكنه أقّد لي أن هذا
الرفض سوف يؤلم السيد ديفال . . الذي كلّفه بأن يمدني من المال
بالقدر الذي أريد . .

وقد قبلت هذا المبلغ . . الذي لا يعتبر من أبيك على سبيل
الإحسان .

فلذا مت قبل عودتك يا أرمان . . فدع أباك يقرأ ما كتبه عنه . .
وقل له إن الفتاة التسعة التي كتبت هذه السطور . . قد انتهلت إلى
الله من أجله . . وذرفت عيناها دموع الشكر والوفاء وهي تكتبها .

٤ كانون الثاني / يناير :

قضيت بضعة أيام مؤلمة . . ولم أعلم الآن أن الجسم يستطيع أن

يحمل كل هذه الآلام .

لقد أصبحت كيتوتشي قسمة عادلة بين الحمى . . وهذا السعال
الخفيف .

لقد امتلأت غرفتي بالخلوى والهدايا المختلفة التي حملها إليّ
أصدقائي . . وبين هؤلاء طائفة من الشباب يرجون بغير شك أن
أصبح عشيقتهم فيما بعد . . ولو أبصروا ماذا فعل المرض بي لولوا
الأدبار فزعاً مني .

٨ كانون الثاني / يناير :

لو عرض الآن للبيع هذا الجسم الذي كان في وقت ما أئمن من
كثر . . فترى كم يساوي ؟
لا بد أننا ارتكينا كثيراً من الأثام قبل أن نولد . . أو أننا سننعم
بالكثير من السعادة بعد أن نموت . . وإلا ما احتوت الحياة كل هذا
العذاب وهذه الآلام . .

١٢ كانون الثاني / يناير :

ما زلت أألم وأقاسي . .
وقد أرسل إليّ الكونت دي ن . . مبلغاً من المال أمس ولكنني لم
أقبله . .

إنني لا أريد شيئاً من هذا الرجل . . فهو السبب في أنك لست
الآن بجاني .

آواه . . ما كان أسعد الأيام التي قضيناها في «بوجيفال» !! أين
هي تلك الأيام . . ؟

إذا قدر لي أن أبرح فراشي على قيد الحياة . . فسأجج إلى البيت

الذي أقمنا فيه معاً .. وأبقى هناك حتى أموت .

٢٥ كانون الثاني / يناير :

لم يغمض لي جفن منذ إحدى عشرة ليلة ..

إنني أختنق وأناضل في سبيل تنشق الهواء ..

ويخيل إلي في كل لحظة أنني ساموت ..

وقد حظر علي الطبيب أن ألمس القلم .. ولكن جوليا ديار التي

تسهر علي قد سمحت لي بأن أكتب هذه السطور القلائل .

أفلا تأتي قبل أن أموت .

هل انتهى حقاً كل شيء بيننا؟

يخيل إلي أنك إذا جئت فيأتي أبرأ من سقمي .. ولكن لماذا

أطلب الشفاء .. ولأية غاية؟

٢٨ كانون الثاني / يناير :

أيقظتني اليوم ضجة شديدة .. وسمعت في الغرفة المجاورة

أصوات رجال عديدين .. وصوت جوليا وهو يحاول أن يرتفع على

تلك الأصوات .

ثم أقبلت جوليا وهي تكي .

قالت إن الدائنين يريدون توقيع الحجز على الأثاث .. فأجبتها بأن

الحق يجب أن يأخذ مجراه .

ودخل المحضر غرفتي وقبعته في يده .. وفنح جميع الأدراج ..

ووضع قائمة بما وجد . وأحمد الله على أن رحمة القانون قد أغقت

فراشي من الحجز فلم يسجله المحضر في القائمة .

وتفضل المحضر فقال لي إنني أستطيع الاعتراض على الحجز خلال

أسبوع . ثم ترك أحد الدائنين لحراسة الأثاث . وانصرف .

فيا إلّهي .. ماذا سيكون من أمري !!

٣٠ كانون الثاني / يناير :

تسلمت اليوم رسالتك .. وكنت في أشد الحاجة إليها .. ولكن

ترى هل يصلك الرد في الوقت المناسب؟!

إن سعادتي اليوم قد أنستني ما قاسيت في الأسابيع الستة

الآخيرة .. حتى إنني بدأت أطمع في الشفاء .. وأطمع في أن

أراك .. وأطمع في أن أرى الربيع مرة أخرى .

٤ شباط / فبراير :

لقد عاد الكونت دي ج . وهو حزين .. لأن عشيقته خدعته ..

ولكن حزنه لم يمنعه من سداد ديني وصرف الدائن الذي بقي

لحراسة الأثاث .. وقد حدثه عنك .. ووعد بأن يحدثك عني .

وأمس .. أرسل الدوق يستفسر عني .. ثم جاء اليوم

لزيارتي .. ولا أفهم ما الذي يبقى هذا الرجل على قيد الحياة .

لقد قضى بالقرب مني ثلاث ساعات ولم ينطق بأكثر من عشرين

كلمة .. ولكنه بكى عندما رأى شحوبي وهزالي .. ولا شك أنه

تذكر ابته .. فكأنه وأها غوت مرتين .

ولم يقل لي كلمة عتب .. حتى خيل إلي أنه شعر بالارتياح حين

رأى العلة تفني جسدي .. وتحصد شبابي .. وشعر بالكبرياء لأنه

صحيح رغم شيخوخته .. وأنا أموت رغم شبابي .

نعم يا صديقي .. إنني أدور من الموت .. ولست أندم على شيء

كما أندم على أنني أصغيت إلى أليك ونزلت على إرادته .

ولو علمت أنني لن أعيش أكثر من عام .. لما سمحت لأية قوة أن تحول بيني وبين قضاء هذا العام في أحضانك .. حتى إذا مت .. وجدت صديقاً أضع يدي في يده . ولكن تلك هي إرادة الله .

٥ شباط / فبراير :

شعرت أمس بانطباق شديد .. ووددت لو أقضي المساء في أي مكان إلا في هذا البيت .. واليوم قد جاء الدوق لزيارتي .. فخيل إليّ عندما رأيت هذا الشيخ الذي غفل عنه الموت أن مرآة يديني من الموت؟ وبالرغم من الحمى .. التي تلهب جسدي .. قد طلبت إلى جوليا أن تذهب بي إلى مسرح «الفودفيل» فألبستني ثيابي .. وصبغت وجتي وشفتي لكيلا أبدو كجثة أفلتت من القبر .. وأجلستني في المقصورة التي التقينا فيها لأول مرة .. ولم أحول بصري طول الوقت عن المقعد الذي تعودت أنت أن تجلس فيه .. وأخيراً حملت إلى البيت وأنا بين الموت والحياة ..

وفيما يلي رسائل جوليا ديار :

١٨ شباط / فبراير :

السيد أرمان ..

منذ ذهبت مرغريت إلى المسرح .. وهي أشبه بجثة لا حراك فيها .. وقد احتبس صوتها .. وشلت أعضاؤها .. ومن المستحيل أن أصف لك ما تعانيه هذه الفتاة المسكينة .. وهي تهذي دائماً .. ولكنها في صحتها أو هذيانها لا تردّد غير اسمك .

وقد اتّحد الطبيب أنها لن تعيش طويلاً .. وكفّ الدوق عن السؤال عنها .. وامتنعت برودنس عن زيارتها بعد أن وجدت أنها لا تستطيع أن تفيد منها .

كل إنسان قد هجرها .. حتى الكونت دي ج .. فإنه اضطر إلى أن يرحل إلى لندن .. ولكنه ترك لها بعض المال قبل رحيله . لقد فعل هذا الرجل الكريم من أجلها كل ما يستطيع .. ولكن ذلك لم يمنع بعض الدانتين من توقيع الحجز على أثاثها مرة أخرى .. وهم الآن يتظرون موتها بفروغ صبر لكي يبيعوا الأثاث . إنك لا تستطيع أن تتصوّر التعاسة الشديدة التي تحيط بهذه الفتاة المسكينة وهي على فراش الموت .

وهي لا تزال تشعر بما يقع حولها .. ودموعها المندرة تنحدر ببطء وسكون على وجهها الشاحب الهزيل .. الذي لو رأيته الآن ما عرفت فيه الوجه الجميل الساحر الذي طالما أحببته . وقد استحلقتني أن أواصل الكتابة إليك عندما يتمتع الضعف .. وما هي الآن تنظر إليّ ولكنها لا تستطيع أن تراني .. فقد غشيت عينيها سحابة الموت .

١٩ شباط / فبراير (منتصف الليل) ..

هذا يوم محزون يا سيد أرمان .. فقد تعذّر على مرغريت أن تلتقط أنفاسها .. ونصح لها الطبيب أن تستقدم أحد القس لكي تعترف بين يديه .. وتتقبّل الغفران . ودعنتي مرغريت إليها .. وطلبت إليّ أن أفتح خزانة الثياب .. ثم أشارت إلى ثوب أبيض بسيط .. وقبعة عريضة وقالت : - إنني ساموت بعد أن أعترف للقس بخطاياي .. فمضى مت ..

فألبسني هذا الثوب .. وهذه القبعة ..
ثم قبلتني وبكت ..
وأقبل القس بعد ذلك .. ودخل وهو يقدم رجلاً ويؤخر
أخرى .. ولعله علم في منزل من هو .
فقالت له مرغريت :
- ادخل يا أبت .. ولا تخف .
وقضى القس عندها بعض الوقت ثم خرج وقال لي وهو
ينصرف :
- إنها عاشت بغياً وستموت قديسة .

*

٢٢ شباط / فبراير :

انتهى كل شيء .. ولم يتعذب شهيد كما تعذبت مرغريت ..
فقد نهضت في فراشها مرتين أو ثلاثاً .. كأنما لتمسك بروحها
وتستردها قبل أن تذهب إلى بارئها ..
وقد نطقت باسمك كذلك مرتين أو ثلاثاً .. ثم سالت من عينيها
دمعتان وأسلمت الروح .
وناديتها فلم تجب .. فأغمضت عينيها .. وقبلت جبينها ..
مسكينة مرغريت .. ! ليتني كنت قديسة لكي تشفع لها قبلي .

*

٢٣ شباط / فبراير :

شيعت جنازتها اليوم .. وبكاها بعض أصدقائها بإخلاص ..
ولمّا حمل التابوت في الطريق إلى مونمارتر لم يتبعه إلا
رجلان .. الكونت دي ج .. وقد عاد خصيصاً من لندن ..
والدوق .. وكان يسير متكئاً على ساعد خادمه ..